

العراق بين إحصارين

مذكرات السفير أحمد أمين



العراق بين إحصارين

مذكرات السفير أحمد أمين

تقديم وتعليق: د. كمال مظهر



دار اراس للطباعة والنشر

أربيل - إقليم كردستان العراق

جميع الحقوق محفوظة ©
دار اراس للطباعة والنشر
شارع گولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الإلكتروني aras@araspess.com
الموقع على الانترنت www.araspublishers.com
الهاتف: 00964 (0) 66 224 49 35
تأسست دار اراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

العراق بين إحصارين - مذكرات السفير أحمد أمين
تقديم وتعليق: د. كمال مظهر
منشورات اراس رقم: ١١٣٨
الطبعة الأولى ٢٠١١
كمية الطبع: ٦٠٠ نسخة
مطبعة اراس - اربيل
رقم الابداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٩٦ - ٢٠١١
الاجراج الداخلي والغلاف: آراس أكرم
التصحيح: أوميد البناء

الإهداء

سيدتي نفرتاري

أعلم أنك أجمل الجميلات. وأنت بنت رئيس كهنة المعبد. وأعلم أنك زوج الفرعون.
كنت أسطورة زمانك يوم نفخت في أبار جافة فتدفقت ماءً سلسبيلاً. شرب جيش
فرعون وانتصر بعد أن كاد يموت عطشاً.

أهديك صرخة حق، وإن كان قول الحق لم يبق لي صديق. أهديك ما جاد به قلبي
وعصارة ذهني وضوء عيوني.

بحثت وفتشت فلم أجد من هو أجدر منك بالإهداء. زمني غير زمانك، وأهلي غير
أهلك، وصحبي غير أصحابك. تلمست فيك النخوة والعزة والكرامة والصدق والوفاء
والقوة الخارقة. وجدت فيك ضالتي ومبتغاي. وإن كنت بظهر الغيب وفي العليين.

أنقذيني من محنتي، ومن جور زمانني، وظلم ذوي القربى. لقد تعاورت على وطني
زمر الذئاب وكلاب الدروب، وعصابات الشر. أحاق بي وبأهلي وبشعبي إعصار أسود
سبقه إعصار أحمر أنهكا الإنسان العراقي والعربي. فلا نصير ولا عون لشعب ظلم.
إليك سيدتي هذا القلم الحر الواعي المعذب. أستجير بك لعلك تنفخي في الصور
فيستيقظ المخدرون بمورقين المال والدعارة. لعل الحق ينتصر بعد غياب طويل.

العراق والأمة العربية والإسلامية بحاجة إلى معجزة، إلى قوة خارقة قادرة على
التغيير والخلق والإبداع. هوة التخلف باتت أكبر من الكرة الأرضية والجهل تطاول
حتى عنان السماء، وعلا الباطل، وتمنطق الكذب وتصعلك الدجالون.

سيدتي قد أجد بين حطام الدنيا وركام الشرور من ينقذ أمتي وينتصر لشعبي.
لقد صمت الأذان واعورت العيون وعمت البصائر لذا أفوض أمري إلى الله وإلى كل
شهم وكل حر. لا بد من نصير ولا بد من قدير فالحق يعلو ولا يعلو عليه. ففي
السطور وما بينها ألف عيرة والله ولي التوفيق ونعم النصير.

أحمد أمين محمود الأمين



المقدمة

تُعد مذكرات الشخصيات السياسية مصدراً أصيلاً مهماً لا غنى للباحث عنه. مع ذلك يعاني هذا الحقل من قصور شديد نتلمس آثاره بسهولة، وربما يكفي أن نشير في هذا المضمرة إلى نماذج قليلة من شأنها أن تجسد لنا أبعاد الموضوع، فإن أياً من الملوك الهاشميين في العراق، أو شخصيةً سياسيةً فذة من قبيل نوري السعيد الذي أشغل أربع عشرة مرة كرسي رئاسة الوزراء في أخرج أيام العهد الملكي، لم يتركوا وراءهم مذكراتهم التي تفتقر إليها المكتبات العربية والعراقية أياً افتقار، دك عن أناس آخرين من أمثال عبدالكريم قاسم وعبدالسلام محمد عارف وشقيقه عبدالرحمن محمد عارف ومحمد رضا الشبيبي ومحمد باقر الشبيبي وغيرهم من الذين أدوا أدواراً متميزة في تاريخ العراق الحديث والمعاصر.

وإذا انتقلنا إلى الأستاذ أحمد أمين، أطال المولى في عمره، تحديداً بوسع صاحب هذه الأسطر أن يدلي بدلوه المتواضع عنه. قُدر لي أن أعرف هذا الرجل عن كثب منذ بداية تسعينيات القرن الماضي عن طريق صديقه الأقرب الأستاذ طاهر شهباز الحيدري، فبدأت أزوره بصورة مستمرة، وأتابع بانتباه أحاديته الأخاذة، النابعة من أعماقه الصافية، وفي ضوء قناعاته الفكرية والوجدانية المطلقة دون أدنى موارد مواربة بغض النظر عن اقتناع المتلقي بالقناعات تلك أو عدم اقتناعه، هذا الذي جعل له موقعاً خاصاً لدى كل من عرفه، فلا غرو أن وجدت شخصياً أن الوثائق السرية البريطانية قد سجلت له هذه الخصلة بوضوح^١، وأن المصادر الأردنية المعتمدة تحدثت

١ ينظر في: National Archives, Foreign Office, 371/170433, Confidential, from: S.L. Egerton, British Embassy, Baghdad, November 3rd, 1963, To: W. Morsden, Eastern Department, Foreign Office, London, S.W.1, P.3;

ينظر كذلك في: كمال مظهر، الكرد وكردستان في ضوء الوثائق السرية البريطانية، المجلد الأول، باللغة الكردية، بيروت، ٢٠٠٨، ص٣٧٩، ٣٨٠.

عن مدة سفارته في الأردن بعد انتقال السلطة للبعثيين من جديد يوم السابع عشر من تموز سنة ١٩٦٨ على النحو الآتي:

"الدبلوماسي العربي العراقي الكبير اللبق الذي رفع شأن الدبلوماسية العراقية إلى ذروة المجد حضرة صاحب المعالي السيد أحمد بيك أمين محمود سفير الجمهورية العراقية في عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية الشقيقة - الدبلوماسي العربي العراقي الشجاع الذي شهدت بحنكته السياسية والدبلوماسية الأوساط الأردنية العربية الرسمية والشعبية والأدبية والصحفية"^٢.

أثبت أحمد أمين الجدارة نفسها عندما أصبح سفيراً للجمهورية العراقية في يوغسلافيا التي منحته وسام النجمة اليوغسلافية مع الوشاح من شخص تيتو تقديراً رفيعاً لجهوده الدبلوماسية وذلك في اليوم السابع من شهر نيسان سنة ١٩٧٥^٣. كان الأستاذ أحمد أمين صديقاً صدوقاً للکرد، مدافعاً أميناً عن حقوقهم المشروعة التي كان يرى فيها الطريق الأسلم لتعزيز الوحدة الوطنية العراقية، فهو القائل في مذكراته بأسلوب رفيع:

"كانت علاقتي وثيقة مع الصديق الكردي طاهر شهباز الحيدري، وكانت هذه العلاقة تمتد إلى العام ١٩٦٢ يوم كنت مديراً لشرطة الكاظمية فيما كان الأخ طاهر قائممقاماً فيها، توثقت هذه العلاقة وقويت يوم عملت على إطلاق سراحه وزميله الكردي العميد الركن مصطفى عزيز عندما كانا معتقلين في السجن العسكري رقم واحد... وظلت علاقتنا تتوثق أكثر فأكثر مع مرور الأيام نغذيها بروح من الوفاء والإخلاص حتى أثمرت على الصعيدين السياسي والجهوي". فقد "عرفني الأخ طاهر الحيدري على قياديي الحزب الديمقراطي الكردستاني أيام كنت محتجزاً بداري بعد ردة تشرين. استمرت زيارات الإخوة الأكراد، وفي كل لقاء كنا نستعرض أحداث

٢ ينظر في: كمال أمين قليات، السجل الذهبي اللبناني العراقي العربي الدولي للعام ١٩٧١، ص ٣٥-٣٧

٣ المصدر نفسه، ص ٣٨-٣٩

٤ كرّس الأستاذ أحمد أمين كل الفصل الثالث من مذكراته للقضية الكردية، وهو على ما أعتقد أهم فصول المذكرات الأربع قاطبة.

الماضي المأساوية بحرارة وأسف شديدين، وكان موقفه من القضية الكردية بمطلع ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ موقفاً مؤثراً في نفوس الكرد بصورة عامة وبالقوى السياسية الكردية بشكل خاص".

ومن أجل أن يُعرف صاحب المذكرات القارئ العربي بخلفية القضية الكردية يقدم لقرائه "نبذة عن تاريخ النضال الكردي"، ويشير بصورة خاصة إلى أن "الأفكار القومية العالمية بدأت تبعث النشاط في نضالهم الاجتماعي السياسي". وفي خضم ذلك يشير إلى ثورة الشيخ عبید الله النهري في أواخر القرن التاسع عشر، كما يشير إلى "الثورة الكردية بزعامة الشيخ محمود بُعيد الحرب العالمية الأولى"، وفي الوقت نفسه ظهر اتجاه آخر يقوده "المثقفون القوميون الكرد لإقامة دولة كردية مستقلة". كما يتطرق صاحب المذكرات بالروحانية نفسها إلى بنود معاهدة سيفر الخاصة بتأسيس دولة كردية، وإلى نضال سمكو شكاك، وإلى جمهورية كردستان وعاصمتها مهاباد برئاسة القاضي محمد، وإلى الانتفاضات الكردية في العراق بزعامة البارزاني.

ومن القضايا النادرة التي يتطرق صاحب المذكرات إليها الاتصالات اليومية للمرحوم صالح اليوسفي ممثلاً للحزب الديمقراطي الكردستاني معه شخصياً قبل قيام "حركة ١٧ تموز عام ١٩٦٨"، ويروي الأستاذ أحمد أمين في هذا المضمون الحقيقة التاريخية المهمة الآتية:

"طالب ممثل الحزب الديمقراطي الكردستاني المرحوم صالح اليوسفي بمقاعد وزارية، وقد أُلح عليّ لألعب دوراً وسيطاً لإنجاح طلبه، فاتصلت بالقصر في اليوم الأول لإنجاح الحركة، وقد عرضت على القيادة الأمر، فأرسلت سيارة خاصة لنقل المرحوم صالح اليوسفي والسيد حبيب محمد كريم، وقد غادرا داري متجهين إلى القصر الجمهوري للاجتماع بمن يمثل مجلس قيادة الثورة الجديد، وهناك جرت مفاوضات جديدة وتوصل الطرفان إلى الحل المقبول لكليهما".

ومن الأشياء المهمة التي يتطرق إليها صاحب المذكرات بموضوعية عالية تراجعات قيادات بعثة مؤثرة عن خط التفاهم مع القوى السياسية الأخرى، بما في ذلك القيادة الكردية، ومن بين ما يذكره الأستاذ أحمد أمين في هذا المجال الآتي نصه:

”في أحد اجتماعات المكتب السياسي لحزب البعث وفي مكتب وزير الثقافة والإعلام الأستاذ عبدالله سلوم السامرائي يوم كان يرأس المكتب السياسي، طرحت عليه النتائج الخطيرة المترتبة على تنصل حزب البعث من التزاماته، طرحت الموضوع بعصية وبصوت عالٍ، إذ قلت: إن حزينا يلعب بالنار إذا ما تخلى عن الجبهة الوطنية والقومية التقدمية واختلف مع الكرد حيث سيعود العراق إلى فوضى عارمة، وإلى اقتتال الشعب الواحد، وفعلاً بدأت تتمزق اللحمة الوطنية، ويهراً نسيجها للأسف الشديد، وابتعد العراق عن واجبه القومي وانصرف كلياً إلى القتال في الشمال. ضحك الرفيق عبدالله وقال: يا رفيق أحمد، لا يوجد عندي سوى نصيحة واحدة أرجو قبولها: ”إن ما تقررته القيادة يكون ملزماً لكل رفاق البعث، وما عليك إلا أن تتقبل قرار قيادة الحزب، فهم أدرى بشعاب مكة، وإلا ستقع عليك عقوبة قاسية، أرجو أن تتفادى إيذاء وغضب القيادة“. واستمر الجدل بيني وبينه، وانتقل الحديث لأمور أخرى تنظيمية دون استجابة رأبي“.

وما أروعك وأصدقك يا أبا ليث، تسجل لنا بصراحة ما بعدها صراحة، كيفية انتهاء علاقتك بالمكتب السياسي لحزب البعث العربي الاشتراكي فترضع مذكراتك الرائعة أصلاً بهذه الدرر النادرة:

”صدر قرار حزبي وقعه أمين سر القطر أحمد حسن البكر يلزم أعضاء المكتب السياسي بالاجتماع أسبوعياً بالقوى السياسية، وسوف يفصل من المكتب السياسي كل من يتغيب أكثر من اجتماعين. وجدت في هذا القرار مخرجاً للهرب من المكتب السياسي، وفعلاً تغيبت عن اجتماعات المكتب أكثر من ثلاث اجتماعات. اتصل بي الرفيق مرتضى الحديثي قائلاً: لم يكن أمامي إلا إخبار القيادة بتغييرك بتنفيذاً لقرار الحزب، وهذه أمانة حزبية وأرجو أن لا يغضبك ذلك. قلت له: رفيقي، إن الأعمال المناطة بي كثيرة، وليس لدي وقت أصرفه في اجتماعات لا تسمن ولا تغني من جوع، فأرجو إعفائي من مهام المكتب. وفعلاً انقطعت علاقتي بالمكتب السياسي دون أن تتخذ القيادة العليا أمراً بفصلي، وكفى الله المناضلين شر النضال“.

ولا غرو أن ينهي الأستاذ أحمد أمين الفصل الثالث الرائع من مذكراته بهذه العبارات النابعة من أعماق إنسان مدركاً لأهمية الأخوة العربية-الكردية.

"البعض من رفاقي يعتبرونني منحازاً للکرد، وإن حماسي واندفاعي يؤكدان هذا التحيز. مثل هذه الآراء - آراء بعض الرفاق - كانت ضعيفة الحجة، وفيها كثير من قصر النظر، وتحمل بذرة الحقد والجهل، وتدفع لدمار العراق. إن تمسكي بهذه الآراء والدفاع عنها ينبع بالأساس من مصلحة العراق ومصلحة الأمة العربية، وإن خندق النضال يسع العرب والکرد للدفاع عن مصالحهما، ويفتح الباب أمام عراق ديمقراطي حضاري يليق بالإنسانية وما تصبو إليه. هذه الحقائق ترسخت في ذهني وقلبي، وأخذت تؤرقني كلما أصابها الوهن والأذى، وتكبر عندي بواعث التحدي، فكان العمل السياسي في "حزب البعث العربي الاشتراكي" فرصتي الوحيدة لتحقيق ما أمنت به، ولكن الواقع السياسي كان مناهضاً لما أؤمن به، لذا واجهت تحدياً كبيراً وخطيراً أثناء عملي الحزبي، وأكد أقول إنني لم أجد عضيداً ولا مناصراً ضمن المكتب السياسي لتسويق هذه الآراء ومناصرتها".

إذن أن مذكرات الأستاذ أحمد أمين حالة نادرة في مضماتها، إنها فعلاً جديرة بالدرس والتمحيص، فهي طافحة بالدروس والعبر المفيدة لحاضر العراق ومستقبله، لذا ينبغي نشرها على نطاق واسع جداً، وينبغي الاهتمام بها في الوسط الأكاديمي والسياسي العربي والكردي.

ويقي أن نشير إلى أنه وقعت بعض الأخطاء اللغوية في ثنايا المذكرات على الرغم من أسلوب صاحبها الرفيع، إلا أنه ليس بوسع هذه الهفوات أن تقلل من أهمية مذكرات الأستاذ العزيز أحمد أمين قييد أنملة وكلنا أمل أن نراها مطبوعة تزين المكتبة العراقية بأقرب فرصة ممكنة إن شاء الله!

د. كمال مظهر

الفصل الأول

سيدتي نفرتاري...

عندما يسود الظلم ويسدل الظالم خيمته على العدل، تغيم الدنيا كما تتراعى لناظري. أراها سوداء كأنها سيدة غارقة في الأحزان... بأسفة يقطر الأسى من عينيها... مقطبة الجبين عابسة السمات. عندها تثور في دواخلي الهمم فأستنفر قوى الخير وينتصب العقل حاكماً وقاضياً يفصل ويقاضي وينطق بما عنده من خزين على ضوء خبرته ويحدود معرفته. إنه العقل يا سيدتي. عجيب هذا الجهاز المعقد لا يعرف كنهه إلا خالقه، عجز العلماء والأطباء إدراك عمله، دعيني وقصة العقل وفلسفة التفكير، إنها عملية معقدة ومركبة، الخوض فيها يعني الضياع.

أعود إلى طبيعة الحياة، إلى الوقائع.. أريد أن أصل إلى نتيجة وهدف معين، أريد أن أدرك شيء ألمسه أتعرف عليه وأن امتزج بالخيال أحياناً.

قطار عمري لا يزال يعلك أيامه وقضبان سكتته لازالت تمتد بين السهول والجبال والوديان، هاهي تلمع إذا ما لامستها أشعة شمس وضوء قمر. رحلة العمر عجيبة معي تهتز كلما عصفت بها رياح التحدي وتقوي عزائمي عندما تهب عليها رياح الإيمان والثقة بالنفس، من هنا تبدأ أحلام سعادتي، هنا تنشئ آمالي ومن هنا تتصاعد في نفسي نشوة الانتصار كأني عملاقاً يتحدى الموت، كأني سلطاناً يتحكم برقاب خصومه.. للحق أقول أدرك ذاتي.. أحس بوجودي.. أتمس حريتي.. أتنفس نسيم الحياة أقول أنا قادر على عمل ما أحبه وما ينفع الناس.. أنا الإنسان المفكر المدرك الواعي.. يا لها من لحظات تطفح بالروعة والجمال، أحتضن الحياة بقوة حتى أشعر بما لا يشعر به الآخرون. عندها تحتضنني هي برقتها وحنانها وتسعدني وكأنني عشيقها.. تذوب عواطف الغزل خجلاً من نفسيها وتنتشي براعم الأمل في قوانا.. لست أدري أهذا كل ما فيها؟ أهذه هي معطياتها؟ أين هم العوازل؟ أين هم

النمامون؟ أين هم التعساء من أهل السوء؟ أين ظلم المجتمع، أين ظلم وتعاسة الأقرابون؟ أين شروط التحدي؟ أين قوانين القسوة والأذى؟ أين وأين ألف أين ترتسم في مخيلتي تبحث عن جوابٍ شافٍ.

قوانين الحياة ظالمة. سن شريعته ووضع قواعدها هم البشر (اعذريني إذا استعملت مفردة البشر للتدليل على بني آدم وإذا مررت بك مفردة الإنسان أعني البشر المتحضر) إنهم يطبقونها على الآخرين، يفسدون عليهم نعيم الحياة تحت مسميات مخترعة كاذبة.. سيدتي دواخلهم قبر أسود تنطلق منه رائحة كريهة مصدرها عفونة التفكير وقذارة السلوك. أهؤلاء يصدرن الأحكام على الطيبين؟ أهؤلاء يقيمون من تسامى وتجلى ومن ارتفع فوق سواتهم؟ هؤلاء نمامون وفي ظنهم سيرتفعون فوق جيفهم، كلا هم في الحضيض في مستنقع الرذيلة هم في جوف النفايات بل هم النفايات، هم القمامة، هم الحشرات تحوم حول ما يشتره ويملكوه من قبح وسفالة. هؤلاء يا سيدتي لن يتنسموا عبير الحياة ولن يدركوا السعادة.. سعادتهم في تعاستهم وغبائهم المطبق نعيم جهلهم.

قطار العمر يجد في السير.. يسير الهوينا حيناً وحيناً تزيد في سرعته قوة وقوده يحسب للعمر حسابه تتجاوز حساباته الواقع هكذا يبدأ الصراع عندي، الصراع بين الذات والواقع ثنائية الطبيعة وحقيقة الحياة لا مفر منها ولا بديل عنها بدون هذا الصراع يعني وقوف الحياة يعني الموت وهذا ما لا يقره إنسان عاقل. الحياة لن تموت ولن تتوقف ولن تنتظر العجزة ولا المعوقين، الحياة تندفق في مخيلة كل مخلوق بشراً كانوا أو نباتاً أو حيواناً.

الحياة تسير بقوة البرق وبسرعة الضوء.. فلا جدوى من الانتظار ولا جدوى من الاستسلام.. سعيد من ركب قطار العمر وقاده وأحسن توجيهه، المقود بيد سائقه. نعم للأقدار قوتها وفعلها قد تتحطم مركبة قيادته إذا ما صدمتها صخور التحدي وشروط الواقع ولكن أين سائقه؟ أين وعيه؟ أين إرادته؟ أين تجربته؟ أين معرفته؟ أين خريطة حياته وحدودها؟ أفهم التحدي وأفهم القدر ولكني لا أسقط سلطان العقل وقوة الإرادة.. هنا تبرز أمامي شاخصة ثنائية الكون وكما يسميها الفلاسفة جدلية الحياة، نعم إنها ثنائية جدلية أينما وجدت الحياة وجد الموت ويستمر الصراع حتى

تنتصر إرادة أحدهما بعد استكمال شروط التحدي.

انتحر أرنست همنغواي القاص الأمريكي الشهير صاحب قصة (لن تفرح الأجراس) و(وداعاً للسلاح) و(الشيخ والبحر) وغيرها. لقد عجز الأديب عن تحقيق أحلام حبه وساقته الأقدار فأعجب بمرضته الإيطالية بعد أن أصيب بطلق ناري في الحرب العالمية الثانية. بادلته هي حب بحب تواعدا على الزواج بعد أن شفي من إصابته وذهب إلى وطنه (أمريكا) ليصفي حساباته كي يكمل شروط سعادته فاجأه القدر عندما وجدها متزوجة من غيره، لقد أحببت شخصاً آخر فانتحر همنغواي وبهذا طوى صفحات عمره ولعله أراد أن يقول للدنيا لا أريد البقاء في الحياة لذا طلقته ثلاثاً مادامت الخيانة ونكث العهود وظلم البشر قائماً فوداعاً للحياة، ختم أرنست حياته وترك لنا العضات، ترك لنا تجربة غنية ختم بها آخر قصة كتبها بدمه. رحمة الله عليه ورضوانه وعلى صديقه العفو والغفران. أرنست انتحر نعم انتحر كي يبقى حياً أما هي فقد ماتت منذ أن تزوجت شخصاً آخر ونكثت عهد الحب والوفاء.

قطار العمر يا سيدتي يسير ولا يزال يسير وتزداد تجربته وخبرته وتتصاعد قدراته مادامت التقنية في خدمة تطوره ومادام الفكر سيد عطائه ومهارته.. لقد أحسنت قيادته كلما انحدر نحو واد عميق وأمسكت بعنان مقوده كلما صعد مرتفعاً.. أخشى عليه كلما صادفني منحدر أو منزلق.. أريد أن أستمر في قيادته، أريد أن أدير دفة هذا المركب وإن غالبني النعاس واستحوذ عليّ الكسل في فترات عمري. يقظتي تستفزني تجلب انتباهي وإن أدركني الخدر أحياناً. أتحنس بفطرتي العفوية أو بحاستي السادسة مكانم القدر ومواضع الخطأ، على كل حال أحاول أن أقلل من الخطأ وإن كثر في حياتي. أنا إنسان مدرك ومع هذا الإدراك تنزل قدمي وهذا أمر طبيعي لا غرابة فيه. سعيد من اتعظ بخطأ غيره، كلما أخطأت تزداد تجربتي وتتعمق خبرتي فيقوى عودي ويتصلب. الحياة عجيبة وفيها من العجائب ما لا يصدقه إنسان هذه حقيقة تكاد تكون أزلية.

تطرق خاطري قصة الشاعر الفرنسي شارل بودلير مأساة شاعر الثورة الفرنسية تكمن في حبه للأديبة الفرنسية بولين سببتيه. تزوجها عن حب جارف وأخيراً كتبت له ذات يوم رسالة تطلب منه الطلاق. لقد صدمه الطلب والحب لازال يستعر في قلبه

ويضيء جوانبه، ومما زاد في صدمته اتهمته بحبه لفتيات باريس. هن أحببته لشعره وتعلقن به، فسقط ميتاً من هول ما قرأه، حبيبته التي أحبته وأخلصت له كشفت عن وجهها فإذا هي كباقي النساء وإن اتسمت بالأدب، قتلتها الأثانية وسوء الظن وقصر التفكير أين إذاً إبداعات أدبها كما ظن بودلير بها؟

قطار العمر يسير في وجهته وكلما قلت أنا ممسك بمقوده، قدره السير على القضبان.. إلى أين يمضي؟ لست أدري. كل ما أدركه أنا فيه تمر بي المحطات جميلها وقبيحها، حلوها ومرها.. أبتأس كلما صادفتني محطات الظلم وأفرح كلما واجهتني صور السعادة. أتفاعل مع هذا وذاك دون إرادتي.. جبلت على نفسية تتفاعل مع الحدث تعيش معه وكأني أنا الحدث.. أنا صاحبه. لا أحب الاعتزال وأكره الانطواء، دواخلي تبحث عن النور، عن الانسراح، عن الجميل الممتع والبديع المغربي. الوردية تبعث في شيء من السعادة لونها، أريجها، شذاها، كل ما فيها يسعدني، أستمتع بها، أتفاعل معها، إنها وردة، لذا ذهبت مثلاً للجمال والأناقة. النسيم يسكرني، عبيره يسعدني، طراوته.. أعب من فيضه بنهم وشراهة.. حق للشعراء أن يغارلوه ويمتدحوه.. إنه الانطلاق، إنه معنى من معاني الحرية.

سيدتي..

لا تبحثي عن السعادة، فهي مبثوثة في كل أرجاء الدنيا، في الكون، في زواياها، وفي ثناياها. أجد السعادة في روعي أينما ذهبت وكيفما حلت.. إنها في ضوء عيوني.. إنها متعة الخيال حينما أسرح في عالمه وأطير في سماءه.. إنها أئمن من الماس والذهب واللؤلؤ والعقيق، الذهب مبدول عند كل صائغ، وكذلك الماس والدر. كلما توفر المال امتلك الإنسان ما يعجبه ويرضيه. ولكن السعادة لا تشتري ولا تباع.. الحب ليس سلعة معروضة للبيع.

إنه روح الإنسان، بل هو روح روحه، هو عصاره نفسه وعقله، إنه شيء سام لا تطاله يد البشر إلا من تسامى وصار إنساناً وعرف معناه وتذوق عطاءه، إنه أئمن من الثمين، هو أئمن ما في الدنيا. عجائب الدنيا سبعة، هكذا يزعمون.. عجائب الدنيا لا سبعة ولا سبعون ولا ألف سبعون.. كل إنسان له عجائبه، يعبر عن سلوكه

بشيء من العجب، كل مأساة تعبر عن شيء من الاستغراب، وكل حدث عظيم له أعجوبة. أحب تولستوي واحدة من بنات صديقه الخمس، وكانت في ريعان الشباب، وميوعة الصبا، كانت على جانب كبير من الجمال. كانت هي الجمال، كانت هي الحياة، كانت روح تولستوي وقلبه، شغفته حباً، وملاؤه إحساساً فوق أحاسيسه، كانت خياله الخصب، ملأت عليه تفكيره، واستحوذت على قلبه. صارت جزءاً منه، تسبح في محيطات دمه. تسافر مع كرياتته، تغزو عقله بعد أن غزت قلبه. توحد تولستوي مع زوجته الصغيرة وهو ابن عصور سألقة يكبرها عمراً وعقلاً ودهوراً، هو ابن عصور التحفظ والخجل، وهي شعاع المرح والانطلاق. لقد تقمص عصرها، وسلك سلوكها، وحاكى قلبها، وداعب أحاسيسها، وغازل عواطفها. لقد ردم هوة الفوارق ومد جسور اللقاء.

لقد أحبته، وتحسست أحاسيسه، وتناغمت مع عواطفه، وأسكرت رغباته حتى الثمالة. كانت متعته التي لا تعوض. مد القدر يده فوق هام الأديب المبدع، وصبغ شعر رأسه ولحيته بلون الثلج الذي يحيط بأرضه. عبث العمر بأسنانه، وتغضن وجهه. أما زوجته، فهي تزداد جمالاً فوق جمال، أصبحت ضوء صباه، وشمس نهاره، وقمر ليله. أثر تولستوي سعادتها على سعادته، وراحتها على متعته.. كتم ثورة حبه.. وخبأ نيران قلبه.. وغادرها سراً.

باتت الجميلة وحيدة تبحث عنه، وعلمت بمكانه، وحظيت بلقائه، وتوسد صدرها، وأسرت في أذنها (أثرت أن لا أثقل عليك هموم مرضي وعجز شيخوختي). ودمعت عيناها حرصاً على حياته وسعادته.. همست بأذنه أحلى كلمات الحب وقالت له (إن أنسى حديثك الشيق، وقلبك الكبير، وعقلك الجوال، وعظمتك الشامخة، وحبك المعطاء. فالعظيم يخلق الحب العظيم). أغمض الموت جفون تولستوي، وظلت ذكراه حديث البعيد والقريب، وأصبحت قصصه وما كتبه من عيون الأدب العالمي. هذا تولستوي، وليس كل الناس تولستوي، وليس كل النساء مثل زوجته الجميلة.

تزاحمت في ذهني صور كثيرة، وتدافعت في نزع قلبي حوادث عديدة، الكل يستحق التسجيل.. الكل يستحق أن يكون مثلاً للكتابة والتدليل. قيس مجنون ليلي خلد نفسه حتى جن جنونه، وذاب عوده. إنه الحب يا سيدتي، أمره عجيب، وانفعالاته

أعجب، وعطاؤه ثر، ونتائجه رائعة.. هذا هو حال جميل مع بثينة، وكثير الشاعر مع عزة، وعباس بن الأحنف مع حبيبته، ونابليون مع جوزفين، وهتلر مع إيفا براون.. كل حدث يثير الاستغراب والتعجب. تنازل ملك بريطانيا إدوارد الثامن عن العرش وتخلي عن أسمى وأعلى تاج في العالم عندما أحب سمسن، وهي واحدة من عامة الناس، وكانت مطلقة.

في الحياة، يولد كل يوم المئات، بل الآلاف من هذه الحوادث. قد لا تسجل في كتاب ولا يُؤشر في السير، لكنها موجودة في كل زمان ومكان، حتى الأنبياء أحبوا.. أحب النبي سليمان الملكة بلقيس، واصطفى النبي محمد عائشة على زوجاته وهن أكثر، إنه الحب يا سيدتي.. إنه الفضيلة، هو نعمة من نعم الله الخالدة.

مرّت بالبشرية عصور ودهور وسجل التاريخ أروع قصص الحب وأبدع روايات العشق. كل يحب حسب هواه وبطريقته المثلى. إنه نتاج سرمدى لا ينضب.

الحب يرهف الأحاسيس، ويطرب العواطف، ويسعد النفوس. هو غذاء الروح، هو النبع الصافي اللذيذ، يسكر من يتذوقه. إنه أصدق صديق للإنسان، يخلق فيه من السجايا والسلوك ما لا تقدر عمله الخوارق. من يحب، ترق حاشيته، وتصغر في عينيه الكبائر وعظائم الأمور.

آدم من حواء، أو حواء من آدم، جاءت من ضلعه أو نزلت عليه من السماء، إنها هدية الكون للنبي آدم، إنها حليلته، ورفيقة دربه، إنها ريحانه عمره وزهرة صباحه.. خلده بعد أن خلدها. أزلفت عنها الجنة برغبتها، قبلت الحياة في الدنيا، مادام آدم حبيبها، يضاجعها، يقبلها، يعيش معها. لن تضجر منه ولن تمله، كلاهما يأنس الآخر.

لن أكون غريب الرأي، ولا أوحده، فالشعراء والأدباء والفنانون وحتى الإنسان الاعتيادي أدرك معنأً للحب، وتذوق بكأس حبيبته عصير عشقه وغرامه.

أدركيني سيدتي، فعطاؤه الثر لا ينضب، ينبوع سرمدى يفيض عطراً وسخاء. سخاء في قيمه وعواطفه وعطر شذاه، في سلوكه، في حركاته، في سكناته.

أعلم أن رحلة العمر قصيرة، وأدرك أن الحياة هبة الكون للإنسان.. قرأت وتعلمت

أن للإنسان حواسه وبصيرته، ورأيت نعم الطبيعة لا حدود لها. غرفت من معينها ما سمحت به الظروف رغم صعوبتها، ورغم الوشاة والعوائل والأعداء. أين هم؟ أنا في وادٍ مخصب وهم في حضيض مجذب.

مرّ بي من هم أتعس من الحشرات، وأتفه من الذباب، ينعمون بفتات الموائد وفضلات الطعام.. سيدتي.. حتى النسور تأكل الفطيس من الطعام، كالغربان. أما الطيور الحرة الجميلة الفريدة تعيش في البساتين وتتغنى في كل أيك، هناك تغرد، وهناك تتكاثر تحت أشعة الشمس وفي الهواء الطلق.

كثير ممن تخطى عتبات البشر وارتقى درجات المدنية تسره مثل هذه الحياة، يعيشها، بل يحياها بجوارحه وبكل تفاصيلها. ومن يتهيب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر.

أين هذه الحياة وأين تلك؟ أين الثرى وأين الثريا؟ اختفت المقارنة، بل خجلت حياة التوسع رغم منطقتهم الفج ورغم رأيهم الهزيل. الحياة لمن يعرف معناها، لمن يحياها، لمن يتطلع إليها، لمن يتجاوز حدود اليأس ويحطم الأغلال. أما الخنع فلا جدوى من مطارحتهم ولا معنى لحوارهم. فأنا تعاليت وسموت وكبرت، فمطارحتني مع أضرابي، مع نظائري، مع من يعيش الحياة ويتذوق فنون الجمال أينما وجد. هذا ما أردت أن أسطره، وهذا ما أحببت أن أقصه عليك. هذا ما أردت أن تطلعي عليه.

سيدتي..

الحياة تأخذ ولا تعطي، والحب يسمو ولا يتواضع، والكرامة عنفوان النفس الزكية، من اتسم بها سلم وكبر في عيون أعدائه وأصدقائه. الحياة -كما قلت لك- تولد مرة واحدة، ويعيش الإنسان فيها مرة واحدة، ويموت مرة واحدة. والخلود هنا في الدنيا قبل الآخرة. هنا الجنة بين يديك وتحت قدميك، ليست في سماوات الغيب ولا في رحم المجهول. أنت أقدر على صنع قدرك وإن كتب القدر قراره في جيبك. فالموت والفناء الحقيقي موجود في دياجير العزلة. وأما الحياة والسعادة فهي متوفرة في أروقة الحرية.

انهالت فوق رأسي كئيبان الظلم دون رحمة وبلا شفقة، وتكالبت عليّ السنة السوء،

وكثر سكاكين الغدر ونبال اللؤم، أنتني من هنا ومن هناك.. لاحقتني في الرواح والمجىء. ربح صفراء، غطت أغصان حديقتي، ولوثت عبير أزهارى، وهاجمت زجاج نوافذى.. أدركت لؤم العاصفة، وشممت رائحة الخسة والنذالة. أخذتني أفكار الخير إلى شواطئ الأمان، هناك استسلمت بهدوء، وأبصرت في المجهول. تجول ذهني في رياض الكون السحيق، استعنت بقوى القوي الجبار. تنادت قواي، واستنفرت الهمم، حتى نهدت أمام ناظري أسيجة العدالة، وطوق الحماية، وإذا بسيف الغدر تنكسر الواحد بعد الآخر، وسكاكين اللؤم والأناية تتقطع، تتساقط تحت قدمي. تنفست الصعداء، حمدت الله حيث وضع يده فوق أيديهم، وجبروته فوق طغيانهم. هؤلاء الصعاليك أقزام أمام عظمة الله وكبريائه، هؤلاء أخف وزناً من القشة.. لا وزن لهم ولا هيبة، كل ما يملكون بطون الجشع وقلوب قدت من الصخور. أغصان الخير تبرزعت وازدهرت وأورقت حتى توردت في روعي، وفي نفسي، وفي فكري، واستقامت شجرة العزة والكرامة باسقة خضراء زاهية في رياض عمري المديد.

كثيراً من الأحياء والأصدقاء يتفياون ظلال هذه الأرومة الوارفة، يتلذذون معي لقمة العيش، وطراوة الحديث، ويتلمسون شرف الصداقة ونبل المحبة. إنهم أصدقائي، أحبائي، أصبحت أنا منهم وهم مني. هم فلذات كبدي، ونجيع دمي، وحلاوة لساني. أذكرهم بخير، يتقلون عني بشرف وأمانة صدق العلاقة الحميمة الطيبة الخالصة.. الصداقة صدق وأمانة. أكره التزلف والتملق، وأنف الخنوع والإذلال. أكره التواضع إذا كان يحمل معنى المذلة. وأكبر الغرور إذا كان يهدف إلى العظمة والكبرياء. ألم يكن المتكبر من أسماء الله الحسنى؟ نعم، إن مثل هذا التكبر يحمل في طياته معاني العظمة والقدرة والقوة على الخلق والإبداع، ولا يحمل معنى اللؤم والأناية والغرور.

لا أريد أن أتشبه بالخالق العظيم، لكنني أريد أن أسلك ما يأمر به ويرضاه، حتى أنام قرير العين، ثابت الجنان، مرتاح الضمير. هذا أنا أتمنى أن أكون كذلك، مع إقرارى بعجز الذات، وضعف الإنسان، وخور العزيمة أحياناً.

الحياة يا سيدتي تملي إرادتها في كثير من الأمور وفي عديد من الأحوال. يرضخ الإنسان طوعاً أو كرهاً لمشيئتها، وهنا تنهد أمامي صبر الرجال وقدرة تحملهم وقوة تحديهم.

العاصفة الصفراء عندما تحمل رمال الحقد الأسود، يغمض المرء عينيه، تتداعى كفاه تحمي وجهه لحين صفاء الأجواء وانجلاء الأمور. صبر الإنسان ينفذ في كثير من المواقف، إنه إنسان، وقابلية التحمل تختلف من شخص لآخر، وقدرات التحدي تختلف أيضاً، هذا قوي وهذا ضعيف. نعم، الناس كأسنان المشط متساوون بالحقوق والواجبات، ولكنهم يختلفون بدون أدنى شك بقدراتهم وقواهم وعقولهم وخبراتهم، لكل وزنه الطبيعي، ولكل هيبته وشخصيته. الناس معادن ولهم منازل.

جاء في القرآن الكريم «الرجال قوامون على النساء». إن الله عز وجل لا يعني التحكم والسيطرة للرجل، ولا يعني سلب إرادة المرأة، ولا يعني بطش الرجال بالنساء، ولا يعني تفوق جنس على آخر.

كثير من الرجال يتشدقون بهذا القول حسب هواهم. إن الآية الكريم تعني تقويم الرجل للمرأة، أي التكامل والتعاضد والتناغم والتساوي والتكافؤ والتوحد حتى يستقيم المجتمع وتتوازن قواه. إنها معادلة ذات حدين، الرجل في كفة ميزان، والمرأة في كفة أخرى، فإن توازنت الكفتان استقام المجتمع وعمت الفضيلة وقلت الرذيلة. من هنا تنطلق قوة الإبداع والعطاء عند الجنسين. وإذا ما أخلت الموازين بقواعد الكون يبرز الشذوذ وينحدر الإنسان إلى هوة الرذيلة وبؤس الحياة، عندها يكون العطاء فجاً تافهاً.

من هذه القاعدة أردت أن أنطلق إلى ذاتي، إلى ما أؤمن به. نعم، إنني أقدم المرأة، بل كدت أعبدتها. جبلت على هذا السلوك، وتمسكت بهذا الرأي، وقاوتت من أجله. إنني لست نصير المرأة فحسب، بل جندي في خندق نضالها. متى ما أدركت المرأة منزلتها الاجتماعية وموقعها عند الرجل، تدرك مكان قوتها، ويكبر الاعتزاز بنفسها. وإذا ما ابتذلت واستهترت، فهوة الخزي والعار مستنقع يسع الكثيرات ممن انحدرن نحو الهاوية. قلت وكتبت، واستعملت كل ما أملكه من أسلحة الدفاع والهجوم للذود عن كرامة المرأة، باحثاً عن سعادتها.

إن ما يستهوي المرأة أحياناً الرجل القوي القاسي الذي يجيد استعمال العنف لإدامة أوامر الحب. نعم، أحببت المرأة رغم عزوفها، ورغم نكران الجميل، ورغم احترامي لها. لكنني أقدمتها. إنها أُمِّي وأختي وابنتي وزوجتي وصديقتي وحببتي

وجارتي. هي في كل منزلة من هذه المنازل، رائعة، جميلة، مضحية، تصنع الحب والسعادة، وتزرع الرضا والابتسامة عند الرجل. إنهن قوارير. ورفقاً بالقوارير أيتها النساء قبل أن أوجه كلامي إلى الرجال.

نعم، إن الرجل يموت في الحب، ولكن المرأة تعيش فيه.

سيدتي..

لا زالت تنتعش في الأمان، وتكبر عندي الآمال. طموحاتي تجاوزت حدود المعقول واللامعقول. تبرعت في نفسي وفي خيالي أشجار التفاؤل حتى ازدهرت وأبنت. تعيش في قلبي، في فكري، في خيالي. آمالي كبرت أو صغرت، صعبت أو سهلت، أحبها، أحترمها، أقدسها، أقاتل حتى تتحقق. كثيراً ما استنفرت قوى الذات، وجندت طاقة الروح كي أحقق ما أهدف وأصبو إليه. لن أدع الخور يدب فيّ، لن أدعه يتلبسني حتى يجعل مني رداءً مهلهلاً. إنني أرفض واقعي، كلما تكالبت عليّ شروخ الدنيا وظلم الطغاة. أرفض حصار نفسي. أكسر قيود عبودتي.. أحطم أناثية محيطي، حرיתי، إرادتي، رغباتي، عواطفني قيم عليا في حياتي، تحتفي عندي قدرات القدر وقوته، لذا أستهين بالظلم، أبصق بوجهه، إلا إرادة الموت، فهو القدر الذي لا طاقة لعظيم أن يرده أو يتحده.

ليس هذا باب من أبواب التبجح، ولا هو غرور في النفس، ولا كبرياء مفتعل.. إن إرادتي وقواي مجنّدة لتحقيق هدفي رغم صعوبة الحياة وقسوة القدر. من هنا تنطلق رغبة الحب في ذاتي، من هنا تصهل خيول الفوز في روحي، قواعد الانطلاق في كياني وفي يدي.

تعيش في صخور الخرائب وتحت الأحجار وفي المجاري والمستنقعات أغلب الحشرات وأتفهبها وأرذلها شكلاً ومعناً. تتكاثر وتتواجد في المواخير والشقوق ورتق الجدران. أناس كثر يعيشون كهذه الحشرات، ولا غرابة إذا ما تغنوا بالسعادة وتوسدوا الرضا.

سيدتي..

كتبت لك ما أسعفني به العقل وما قدمته لي الذاكرة. أتمنى مخلصاً أن أكون قد وفيت للحقيقة وخدمت الآخرين، فهذه هي سعادتِي. إن أجمل ما أحب هو الجموح في رغباتي كي أحقق لنفسي وللرجل وللمرأة شيئاً من السعادة. فالمرأة أتمن ما في الوجود. هي كنز العطاء. لذا، أهيب بالمرأة أن تكون سيّدة وأمّ وحبّيبية، وبودي لو تغلق باب الابتذال والارتخاخاص إلى الأبد لتبقى رمزاً للعظمة، رمزاً للعطاء، رمزاً للكرامة، ورمزاً للحب..

سيدتي:

أنا لا أكون أفكاري من الشذوذ السائد في المجتمع ولا من القناعات التي يفرزها المتخلفون. كثير من يعتقد أن أفكاره حقائِق مسندة وثابت قائمة وهي بلا شك استلهاهم بيغائي لإرهاصات واسقاطات المجتمعات المتخلفة. يتعلل أدعياء المعرفة بأن الإنسان العاقل ينسجم مع مقولة حشر مع الناس عيد لو لم يكن التقليد أعمى لما سارت الدواب بشكل جماعي، خذي مثلاً ايما الفرنسية شابة في مقتبل العمر أرسلها أبوها من جنوب شرقي آسيا إلى باريس لإتمام دراستها وإكمال ثقافتها على طراز العوائل الأرسقراطية الفرنسية، اختطفها قرصان البحر وقد أخذهم جمالها فقرر رئيسهم إهداءها للسلطان العثماني عبدالحميد الأول وفعلاً تزوجها وأضافها لمجموعته من تحف النساء. أخذت الجميلة عليه ليه واصطفت قلبه واستحوذت على مشاعره، أعزها السلطان وأكرمها وأحبها حتى أنجبت منه ولداً صار سلطاناً بعد وفاة أبيه. خطط القدر بعناية حتى توجت ايما الفرنسية ملكة على عرش السلطان العثماني. رهينة القراصنة. اعتلى ابنها السلطان محمود عرش آل عثمان ومن الصدق الغربية الأخرى زارتها جوزفين في الأستانة صديقة طفولتها زوجة نابليون وحبّيبته وكانت يومها مطلقة وهنا تذكرنا نبوءة العرافة [قالت العرافة لهما يوم ذاك ستصبحان ملكتان على أعظم عروش الدنيا] هذا هو القدر حقق نبوءة العرافة يصنع من العجائب ما لا يصدق ولا يقبله التفكير السوي. فالتفاؤل عندي ينطلق من هذه الحقائق لذا تستقيم عندي القيم الإيجابية وأحاول جاهداً سحق المعتقدات البالية. لا

أكتّم سرّاً إذا قلت زادت تجربتي عمقاً واستقامت خطواتي وتحسن منطقي وهكذا الأيام نداولها بين الناس فمنهم من اتعظ ومنهم من سقط. الخيار للعقل هو القادر على التمييز بين الخير والشر والباطل من الحق.

سيدتي قدري كما قلت لك له خطوطه وله قواعده وله موازينه وله أحكامه وللعقل أيضاً له أبعاده وعنده المعرفة وله الإدراك ومنه الرأي. فاز من وازن بين عقله وقدره بين دواخل نفسه وواقعه، إنها قصة طويلة ومعادلة صعبة يدركها من استفاد وتثقف وخسرهما من همّشها وأهملها.

فهم القدر يحتاج أولاً وآخر إلى مقومات أساسية وثوابت حقيقية يستعين بها الإنسان لفتح أبواب النجاح أمام مستقبله حتى يحقق كل أبعاد طموحاته وإلا يقعد الإنسان ملوماً محسوراً. قد لا يحالف الحظ إنساناً ما ويحالف آخر هذا هو قدر كل منهما مكتوب في لوح مخطوط.

سيدتي...

حدثك عن القدر والأقدار وعن الحظ والمحظوظين واحدة من هذه القصص قصة غاري بالدي هذا الإيطالي الثائر طارده السفن الفرنسية بعيد هزيمته العسكرية حتى أخفق وفشل في تحرير إيطاليا وصعب عليه توحيدها كما هدف وخطط. اعتكف في جزيرة إسبانية، توغل في غاباتها، سكن في كوخ صغير هو وزوجته الجميلة. شاعت الأقدار أن يفقد زوجته بعد أن مرضت وأودعت في نفس زوجها أجمل حب وأروع وفاء، ولم لا وهو القائد المحنك ذو الطموحات الكبيرة والمشروعة، لا أريد سرد قصته النضالية بل ما يهمني هنا الإشارة إلى قدره وما كان يخبأه من مفاجآت. أدركته شارلوت الصحفية الإنكليزية الثرية الجميلة إلى منفاه الاختياري غابات إسبانيا وعرضت عليه شراء مذكراته مقابل تسليحه ودعمه مالياً وسياسياً. وجدت فيه الاستجابة والاندفاع الكافيين. وافق وسافر إلى إيطاليا ثانية واختار ألف رجل من ذوي القمصان الحمراء، هذا ما كان يميز جنده حرر فلورنسا أولاً من سيطرة النمساويين وحرر نابولي من سيطرة فرنسا ونصب الملك فكتور ملك إيطاليا على هذين المقاطعتين وتصاعدت طموحاته وتطلع إلى تحرير روما من نفوذ البابا. رفض

الملك طلبه. اضطر إلى الانزواء ثانية وآثر أن يكون منفياً برضاه في جزيرته الصغيرة مستأنساً بغاباتها، إلى أن أدركته أميرة نابلي الصبية الجميلة، بنت الترف والدلال والعزة والكبرياء، كانت على نصيب وافر من الجمال عرضت عليه الزواج فوافق دون قيد وبلا شرط. وعاد معها إلى نابلي لإتمام حفلة زواجه منها. دس أحد المقربين ورقه في يد غاري بالدي قرأها وإذا هو يترك الحفل رغم جموع الوجهاء والمحتفلين وولى هارباً إلى جزيرته تاركاً أجمل وأصغر امرأة تعرف عليها في حياته. لم يكشف لنا التاريخ سر ما كتب بالورقة لقد ضاعت في خضم مياه بحر الأبيض المتوسط وابتلعها أمواجه العاتية. لم ينته قدر هذا الرجل حيث علمت شارلوت الإنكليزية بخبره فآثرت نعيمها وسعادتها وجاهاها والتحقت به وعرضت عليه الزواج لإسعاده وتكريمه، ففاضت عليه من نعيم ملكها وسعت مالها وسقته من معين عواطفها ما يرضيه ويسكره. استقر هذا الرجل في أحضان زوجته الأخيرة واستمتع بروحها وجمالها وذكائها. إنها الأقدار يا سيدتي تأتي بما لا يخطر في الحسبان ولا يكتب في الديوان. هذه المرأة الذكية الغنية مالاً وجمالاً أحبته وضحت بحياة الرخاء والبطر والترف لتستقر في أحضان رجل عظيم وقائد كبير وكانت سعادتها في كوخ غاري بالدي المتواضع في وسط غابة منسية في جزيرة إسبانية صغيرة بعدما كانت تنعم في أصخب وأكبر مدينة "لندن". يومها كانت عاصمة الدنيا تعج بالمفاخر وتزدهي بالعلوم وتتباهى بالانتصارات وتنعم بكل ما وهب الله من نعم ورخاء كل هذا وذاك لا يساوي عندها قبلة واحدة من فم الحبيب إنه الحب يا سيدتي يخلق العجائب ويأتي بما لا يصدق العقل. هذه السيدة شارلوت (مس روبرت) كما يطلقون عليها الإنكليز تملك داراً للنشر وصحافة رفيعة ومالاً وفيراً وجاهاً قل نظيره وقصراً منيفاً وعلاقات اجتماعية واسعة كل هذه المقومات والمغريات تتهاوى أمام الحب ورضت أن تنزوي في كوخ في غابة في جزيرة. كان غاري بالدي يومها مهجوراً في ذلك الكوخ النائي ولم يبق لديه إلا سمعته المشرفة وتاريخه النضالي المبدع.. لا مال لديه ولا ملك إن كل ما تبقى في جعبته كرامته وعلو همته وشهامته وشرفه.

لا تستغربي قصة هذا الرجل، لم يكن هناك ما يدعو للاستغراب بل عندي ما يدعو للفخر والاعتزاز والإكبار حقاً إنها قصة تثير في نفسي عظمة الأقدار وروعة

التضحية. إن أيماني بوحدة الأمة العربية تشجعني على سرد قصة هذا الرجل العظيم.

سيدتي

ما أن أطلت إلى التقاعد عام ١٩٨٢ حتى تفرغت كلياً إلى نفسي ونبضت عن أكتافي أعباء الحزب واجتماعاته وهمومه انصرفت طيلة أعوام التقاعد لاستذكار مسيرتي النضالية أقول كنت أف طويلاً أمام صور الباطل ومواقف الحق معاً. استعرضت تشنجات بعض البعثيين القياديين وغيرهم جعلتني أطيل التفكير وأدقق وأفحص حتى ظهرت عندي الحقيقة كالشمس في رابعة النهار. هذا الإدراك عمق تجربتي وسلكت مسلكاً عقلانياً عند إصدار الأحكام على الأحداث وعلى تصرف القيادات "تعليمات الحزب". انصرفت إلى التحليل بقلبي وعقلي، لا أنكر أن النزعات العاطفية حيال أهداف الأمة كانت أخاذة وجذابة لتعلقها الصميمي بتريبتني. أصبحت أألف الحياة السياسية بواقعية أكبر وإن كانت الشعارات الحزبية المطروحة آنذاك جذابة للشباب القومي المنتطح للنضال والتضحية، كنت بحق أتلثمس لنفسي حزباً عقائدياً شجاعاً يحقق أهداف الأمة العربية معاً. ليس من السهل علي يوم ذاك أن أفسر لم كل هذا الحماس والاندفاع إلى التحزب، لا شك أن جهلي المطبق بالسياسة حجب عني الرؤية التحليلية للأحداث العربية والعالمية ولأجل أن أكون منصفاً لنفسي لم يكن إيماني بالحزب والنضال والتضحية من صنع يدي بل كانت ثورة شعب وهدير جماهير واندفاع عاطفي لا حدود له يطغى على الجو العراقي العام وجرفني معه. لقد تميزت الأيام التي عشتها وأنا متقاعداً في الثمانينات من ثمرة الماضي وما تلاها من عقود بأحداث خطيرة جداً ، أثرت في مسيرة الأمة العربية والإسلامية تأثيراً كبيراً حتى وصلت للحد الذي تكاد تزهق فيها أيماني الجماهير وتعصف بكل ما جاء به من نضال الأمة، منذ أن تأسس الحكم الوطني وحتى أول يوم من أيام التقاعد، لقد أصبحت جميع القيم النضالية والأخلاقية والروحية التي ألفتها قد تمزق وعاءها وانسكب ماء الوجه بشكل مخجل ومأساوي. نعم الحقيقة موجعة ومؤلمة لكنها حدثت فعلاً، لأن مفهوم أولوية العمل يجب أن يأتي للدولة والشعب قبل الحزب فالحزب

مؤسسة سياسية حاكمة لخدمة الدولة والشعب. انقلب هذا المفهوم إلى العكس تماماً حيث أصبحت الأولوية للحزب دون الشعب والدولة.

إن الفضائح التي خلفتها حرب الخليج الأولى والمسماة بحرب القادسية وحرب الخليج الثانية المسماة بأمر المعارك لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية لما تميزت به من ظلم وانتهاك للقيم الإنسانية والأخلاقية ومن خرق للقوانين والأعراف الدولية، لن أجد لتطعاتي العقائدية موطئ قدم في هذه المسيرة ولم أر إلا لهيباً محرقة لا يبقي ولا يذر.

إن قيماً جديدة بدأت تفرض نفسها على العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لا قبل للشعب العراقي بها ولا يخطر بباله صورة واحدة من هذه الصور المساوية، إن فقدان المقاييس الأخلاقية بالشكل الحاصل لم يستطع جيل الخمسينات وما قبله أن يجيب على الأسئلة المحيرة التي أفرزتها أحداث العقدين الأخيرين من القرن العشرين. إن السياسيين الذين عاشوا أيام الحكم الملكي أذهلهم الحدث وأفجعهم المصائب حتى غرقوا في الأس والمآسي فضاغ طريق النضال وغاب الأمل في عتمة هياج الأوغاد وصراخ العوام، لقد نسي العرب أن النضال دونما هدف أخلاقي وإنساني لا يمكن أن يؤدي إلا إلى الفوضى والضياع. إن الرضوخ للقضاء والقدر أصبح بصورة تلقائية قناعة ترسخت في عقول الناس رغم أنوفهم. ساد منطق الجهل والقوة الغاشمة بلا منافس. أدت التحولات الأخلاقية في عموم المجتمع إلى الفوضى الكاملة وإلى غياب هيبة الدولة وتفسخت مؤسساتها وخرقت قوانينها.

تجرعت بكأس الصبر سم الواقع بروح ممزقة ونفس معذبة أستشيط غضباً دون ثورة.. تشتعل في نيران الحقد وأنا كارهاً له وما اصطباري إلا الاحتكام إلى العقل. أقف على قمة التلة المتواضعة مع الأصفياء والصديقين أمام جبل من أكوام القتل والسفاحين والمصفقين والدجالين والكذابين والانتهازيين، نعم شكلوا هماً عالياً تناول حتى تقزمت التلة التي أقف عليها أمام غول رهيب يبتلع الأخضر واليابس. وهكذا بدأت ديدان الأرضة تتسلق شجرة الحزب وتنخر فيه. كل هذا يا سيدتي والجشع والنهم ممزوج بالخشسة والنذالة وشهوة الظلم والبطش تغلي في أتون

نفوسهم العفنة وروحهم القذرة. إنها الشراهة في حب جمع المكاسب، هذه الرغبة لن تقف عند حد وليس لها حدود، بل على العكس تتصاعد طردياً مع ازدياد الظلم والجهالة والقتل والسرقة لن تقف عجلة الرذيلة عند نقطة معينة ما لم يقف أمام هذا السيل العرم رجالاً صدقوا ما عهدوا الله عليه لقد انهارت سدود الإباء وانتهكت قوى الخير والعدل وبقت الصفوة الصابرة المؤمنة تنتظر ساعة الخلاص.

حق لتولستوي أن يفزع من الحماس الغريزي للحرية ويخشى على الجيل من الشباب أن ينطلقوا إلى الرد على استبداد الدولة باستبداد الإرهاب. كتبت لك عن تولستوي وعن وفاته في محطة القطار بعد أن هجر الألقاب والضياع والعبيد لأن الذي كان يؤرقه ليس ما يملكه الإنسان ولكن ما يكونه الإنسان، وقد مات زميله كروبيكتين في المنفى بعد أن هجر الألقاب والضياع والعبيد. كان تولستوي وباكونين وكروبيكتين يؤلفون ثلاثياً فكرياً سياسياً واجتماعياً في روسيا زمن نيقولا الأول. كان كروبيكتين ابن نبيل يملك أباه ثمانية آلاف عبد من غير النساء لكن هذا الشاب النبيل روع من هذه المفارقات بين حالة العبيد والفلاحين وحالة السادة الأغنياء.

سيدتي

حدثك عن تدخل القدر في صنع مستقبل الإنسان وضربت لك أكثر من مثل تؤكد هذه الحقيقة. لقد أصبحت أؤمن بالقدر وقوته وفعله. نعم أنا قدرتي وأؤمن بالنظرية القدرية وأرجو أن لا يغيب عن بالك أن القدرية كمنظريه غير النظرية الاتكالية بل هما متعاكستان تماماً ولكل واحدة فلسفتها. الاتكالية تدعو إلى الصبر والاتكال على الأقدار قد تأتي بما يشتهي الإنسان وهذا يفقد الإنسان قدرته على الاندفاع للعمل والإنتاج ويضعف حماسه ويقيد حركته. أما القدرية على العكس من ذلك فهي تدفع الإنسان إلى العمل الجاد والمثابرة لتحقيق ما يهدف إليه ويترك للأقدار ما تجيء به. فأنا ضد الاتكالية تماماً ومع النظرية القدرية أي مع العمل الجاد المثمر وأترك للأقدار أن تأتي بما هو مكتوب. زاملت بعضاً من أصدقائي وتتبع خطوات عملهم فمنهم من فاضت عليه الأموال بشكل غير محسوب ولا متوقع حتى التخمة أن أحدهم أقسم بأن لا دخل لفكره وجهوده عند تراكم المال لديه بشكل لا يصدق إنما الحظ كما

يدعي لعب دوراً كبيراً في النتائج وآخرون بذلوا جهوداً كبيرة لتحقيق هدفهم في الحياة فكانت نتائج الجهد عبثاً تذرره الرياح وهكذا نجد هناك من تنفتح عليه أبواب السماء رزقاً وعطاءً وآخرين يخرجون من الحياة بخفي حنين.

إن الأمثلة كثيرة واجهتني في حياتي وليست هي قصص من الخيال أو استنتاج لحدث معين أو واقع محدود السرد فيها يطول وليس هنا مكاناً لدرج مئات من هذه القصص.

سيدتي

اليوم أخذ تحول المجتمع الذي يستخدم العقل والعلم والتكنولوجيا يزيح عن طريقه اقتصاد الكفاف القديم. إن حدوث التطور في مجتمع تقليدي يحتاج إلى كمية كبيرة من رؤوس الأموال تستثمر في حقول التربة والزراعة والنقل والطاقة الكهربائية والصناعة وغيرهم، فالمجتمع ملزم على تأمين ادخارات واسعة حتى ينهض بعملية التطور. والادخار يعني ترشيد الاستهلاك. إن النقطة الرئيسية التي تميز بها المجتمعات القبلية والتقليدية هي افتقارها إلى الدوافع الداخلية للتجديد ومع ذلك نجد اليوم خميرة التطور تعمل في هذه المجتمعات في كل مكان وعلى كافة الصعد.

إن الدول الفقيرة تواجه في الوقت الحاضر تحدياً مزدوجاً. فهي تواجه تحدي التطور الهائل كما تواجه تحدي الاختيار الذي لا يقل عن الأول أهمية. إن الادخار والعلم هما مفتاحا ثورة النمو الاقتصادي. فالعلم المطبق (التكنولوجيا) يسفر عن زيادة الطاقة الإنتاجية كثيراً ويبتلع رؤوس أموال كبيرة. بمعنى آخر إذا كانت التقنية هي مفتاح المزيد من الإنتاج فلم يبق إذاً أمام المجتمعات إلا قبول الواقع الجديد.

لقد حررنا العلم من قيود فقرنا المادي وأتاح لنا مجالاً واسعاً للاختيار وإذا فهمنا العلم بهذا المعنى يكون فعلاً أداة للتحرر، تفادياً للصدمات المختلفة الحادة على الصعيد الإقليمي والعالمي والتي تؤلف العنوان الحقيقي لتاريخنا الإنساني المعاصر. تعتبر هذه الصورة المكبرة تناقضات الواقع الدولي اليوم: علينا إذن إدراك هذا الصراع حتى نتلافى أية كارثة عالمية تطال شعوب العالم. إن المشاركة في تفهم أحداث هذا التاريخ بعناية واهتمام دقيقين لبناء مستقبل الإنسانية والنهوض

بحضارتها إلى الأفضل. الحقيقة كالعلمية الجراحية قد تكون مؤلمة إلا أنها سبيل للشفاء. حتى نصل إلى إرساء قواعد لعلاقات تفاهم جديدة بين الشرق والغرب نجد أننا بحاجة إلى شيء أكثر من إجراء عملية جراحية وأعني بذلك تغيير نظرتنا العاطفية للأشياء ومحو مركبات العظمة والنقص السائدة والموروثة لتقريب الشقة بين الأمم وتعزيز الثقة المتبادلة لإحلال سلام عادل. أقول لا نطيل التآني وإن كان جميلاً ولكن الحياة قصيرة تحثنا لإنجاز مقومات عالمنا الجديد. لا أبغي بهذا الرأي أن أرى الشرق يزي الغرب فلكل جوه المميز. أقر أن صاحب المبدأ له قلب جريء يقاوم صدمات العواصف وما أشدها اليوم. إذن لا يهز الطغاة إلا صوت جماعة متحدة ولا عجب أن نرى اليوم خيول عجفاء تتقدم الصفوف تعبر عن الواقع المؤلم بجهالة وأمية. العقائد ظواهر اجتماعية قبل أن تكون أفكار مجردة. إذن لا يكفي أن تكون الفكرة جميلة ورائعة يجب أن تكون عملية أيضاً. سطوع البرهان أمر نسبي فهناك من لم يحس بهذا السطوع فالعلة إذن ليست بالبرهان إنما بمن لا يحس به. نعم المثل العليا رمز للحركة الاجتماعية التي لا تهدأ ولا تستقر، لقد ولي زمن الحق المطلق لفئة طاغية ممن يخشون الديمقراطية، التنازع والتعاون صنوان لا يفترقان، كما يقول ابن خلدون [إن التنازع عنصر أساس من عناصر الطبيعة البشرية فكل إنسان يحب الرئاسة ويتنازع عليها إذا وجد القدرة على ذلك]. إن أخذ الجماهير بالعواطف الرخيصة دون إقناعها بالعقل هو التغيرير بها ورشوتها وخداعها وبالتالي إفساد أخلاقها وتحطيم المقومات الإنسانية فيها.

سيدتي

كتبت لك الفصل الأول وقد ضم بين دفتيه شواهد كثيرة عن القدر وفعله ونتائجه كما سأسرد لك أحداث العراق في مرحلة الثورة عام ١٩٥٨ وما تلاها من أحداث خطيرة كان لهذه الأحداث تاريخ أثر في مستقبل العراق من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأثر في العلاقات الإنتاجية بشكل مغاير تماماً لما كان عليه قبل هذه الثورة سأذكر لك أيضاً الأحداث التي مرت بي وكنت أحد رجالها أو واحداً ممن وقعت على كاهله هموم وطنه وأمته، دفعت ثمناً باهظاً ومؤملاً بسبب مواقفي

الحادة والجادة والتي لم تقو على مواجهة القوى المناهضة لها. ساكتب ما ليس له شأن بالخيال لأن الخيال في بعض الأحيان يعتبر شيء من إفرازات الفشل. عمدت على كتابة ما في ذهني من أفكار اكتسبتها من قراءاتي ومن مشاهداتي ومن الأحداث التي مرّت بي ومن بيئتي ومجتمعي وما ورثته من عقائد دينية وقومية. هذه الأفكار ما هي إلا حصيلة هضم بكل ما أحاطني واحتطت به وما حصلت عليه خلال تجربتي في الحياة بعد عمر طويل يستحق التسجيل ليستفيد من يحب الإفادة ويتعظ من يحتاج إلى عظة.

يحاول الإنسان المناضل تحقيق مجتمعاً يرتكز على مبادئ وقيم روحية. لكن القوى المعوقة تقف في كثير من الأحيان بوجه هذه الرغبة. فالصراع قائم وفي الخاتمة النصر للمبادئ والقيم العليا كنتيجة نهائية ومحصلة طبيعية. لم يبق أمام أعداء سقراط مثلاً إلا أن يطعنوه في عقيدته وفلسفته باسم الدين وباسم النظام الاجتماعي وهي ذريعة طالما انطلت على البسطاء من الناس. نعم حوكم سقراط لأنه طلب من الناس التبصر بأنفسهم وقال أن الشر يحق بأهله كي يحمي العقل من الانحراف عن الحق بحجة أن الناس حادوا عنه فالكمل يجب أن يخضع لحكم القانون.

صحيح في الحياة لحظات تكون الغلبة فيها لأحكام القدر ولكن في القدر لحظات ينتصر فيها الحق وتنتصر فيها المبادئ. ارتكبت طبقات المجتمع حماقات ضد بعضها البعض نتج هذا من خوفها الغريزي المتولد عن الصراع الدائم بينها. قد يتحقق للإنسان يوماً ما العلاج الموضوعي لهذا المرض المزمن. وإذا ما أقررنا بأن التنازع والتعاون هما دعامة المجتمع البشري وصفتان متلازمتان للإنسان إلا أنها تفرز أحزاباً وكتلاً سياسية وفرق وطوائف، فالتنازع مفيد ومضر للإنسان في آن واحد، وهو يحفز الإنسان على العمل والإبداع كما يخفف كل منهما من حدة الآخر فالمجتمع المتوازن هو الذي تتكافأ فيه قوى هذين العاملين وهذا ما تنشده الديمقراطية وتعمل به، يقول مانهايم أن الأفكار البشرية على نوعين متضادين أفكار محافظة تؤيد النظام القائم وأفكار معارضة له تدعو إلى نظام أفضل، يذهب مانهايم فيقول أن أصحاب المصالح القائمة هم عادة من أولي الأفكار المحافظة وكل إصلاح يعد مربكاً للمجتمع ومقلقاً لنظامه القائم وقد أيد كل من العلماء فبلن وسمنر وغيرهم

هذا الرأي يقول فبلن [إن الطبقة الفراغية المترفة ميالة إلى التزام الجهة المحافظة وأبناءها يخافون التغيير والتجدد] ولسمنر وجهة نظر أخرى حيث قال هناك فرقاً بين المثل العليا والقيم الاجتماعية ويضع حداً فاصلاً بين المحافظين وآراء المعارضين. فالمثل العليا في رأي سمنر هي سلاح المتذمرين وأما القيم الاجتماعية فهي التي يستخدمها أولو النفوذ في المجتمع لدعم نظامهم القائم.

تشير الأبحاث الحديثة إلى أن التعصب صفة أصيلة في العقل البشري وأن الحياد أمراً طارئاً عليه. فلا عجب من وجود التعصب في عقول الناس ولا داعي للاستغراب. إن العقل يفكر استناداً على بعض المقاييس والمعلومات السابقة ومن الصعب أن يفكر العقل على أساس غير مألوف باستثناء العباقرة. إن المعرفة ليست عملية عقلية بحتة يقوم بها العقل بل أن مصدر المعرفة هي تلك التجربة الحية التي فيها نختبر الواقع وما نعانیه. ليس المهم في نظر كير كجارو أن تعمل على زيادة حظ الناس من المعرفة بل المهم أن نعلم الفرد كيف يكون إنساناً. إن مثل هذا القول صحيح لأن الفرد إذا ما عرف كيف يكون إنساناً زاد حظه من المعرفة كنتيجة طبيعية لهذا التغيير حيث يتنامى شعوره بالعدل. إن الثورات التي هزت التاريخ في مختلف العصور لم يكن مبعثها الظلم الواقع على الناس فقط إنما شعورهم بالظلم هو الذي حفزهم على الثورة. فالثورة الفرنسية مثلاً نشأت من جراء الآراء التي بشر بها فولتير وروسو ومونتسكيو كما نشأت من شدة الجور وضيق الحال. إن الفرنسيين كانوا أفضل حالاً من شعوب روسيا وألمانيا وإسبانيا في تلك المرحلة لكن الثورة حدثت في فرنسا لأن الإحساس بالظلم تصاعد حتى الانفجار. إن كل نظام لا يستهدف رفع الحاجة عن عامة الناس لا قيمة له وهو آيل للسقوط. الأساس في تفضيل الناس بعضهم على بعض هو العمل لا الحسب الموروث ولا السيادة المصطنعة إن رضى الشعب هو المقياس المعول عليه لصالح النظام وصلاح الحكم وأما الضغط والقسر فهما من سقط المتاع. كل فرد يثاب بما يعمل وما علينا إلا أن نحسر الشر من صدورنا ونحسره من صدور الآخرين. المهم في نظري الدنو من الفضيلة والفضيلة هي التي تجمع الناس على العمل الصالح. فالإيمان عند الناس نابع من أصوله الإنسانية ومن نظرتة العامة إلى الحياة والوجود. إن الحكم المستبد يحجب مسالك النور عن

الجماهير ويؤدي هذا إلى ضمور قوى البحث ويعطل نشاط الفكر لذا تصاب الجماهير بخلل في التفكير. فالحكم الفردي المستبد يخمد أنفاس الجماهير ويخدر العقول بمورفين المواعظ والمديح المصطنع. إن التاريخ البشري أقوى وأعمق من أن يؤثر فيه النصح والإرشاد. إن جذور الظلم كائن في كل مجتمع بشري ويظهر عندما تنتهي له الظروف. فالحياة ليست مادة أو جوهراً تقبل الصياغة والتشكيل وما الحياة إلا مبدأ من مبادئ بعث الذات لأنها دائمة التجدد ودائمة التشكيل تلقائياً والحقيقة لا تنتبثق في العقل المجرد إنما هي كائن متطور ينبعث من مصالح الناس ويقوم على أساس ما يحتاجون إليه. إن المبادئ لا تنتشر بالسيف وإذا أستعمل السيف لنشرها انتحرت المبادئ بذات السيف.

قال عالم الاجتماع كومت أن الدليل العقلي ذهب زمانه وحل محله الدليل الوضعي وقال أن العقل البشري مرّ في تطوره بمراحل ثلاث: المرحلة الدينية والمرحلة العقيلة والمرحلة الوضعية. وجد أن المراحل الثلاث لا زالت تخدم الإنسان للوصول إلى الحقيقة الهادفة بغية إسعاد الإنسان. إن الأنبياء لم يصنعوا دولة مثالية ولكنهم كانوا يصنعون المجموعة المثالية التي تسير حسب القوانين التي بشروا بها.

اقرئي ما سأكتبه من الذاكرة بإمعان ستجدي ما في السطور وما بينها كيف لعب القدر في رسم مستقبلي. تأكدي لم أكن إلا قلماً بيد القدر، يُملي علي وأنا أنفذ حتى وصلت إلى ما أنا عليه. وشي بي المعارف والأقارب كذباً ولوماً وخبثاً، حتى أوصلوني لحبل المشنقة ولأكثر من مرة ولكن خاب فآلهم، ولم يحصدوا إلا الخيبة وسواد الوجه، ونالوا من الله جزاء وفاقاً.

الفصل الثاني

العراق بعد انقلاب عام ١٩٥٨

أطاحت ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ بالنظام الملكي، أعلنت النظام الجمهوري في العراق بدلاً عنه. أحداث الثورة في أول يوم من أيامها كان دامياً ومؤملاً. أذاع راديو بغداد باسم الثورة بياناً طالب الجماهير بالتوجه إلى قصر الرحاب مؤكداً لها بأن الملكية انتهت في العراق وقتل الملك والوصي وأهله وهم على قارعة الطريق. أذيع هذا النبأ بلسان العقيد الركن عبدالسلام محمد عارف نائب القائد العام للقوات المسلحة. هب رجال الشارع إلى قصر الرحاب، وعثروا على جثة الوصي عبدالإله مرمية على قارعة الطريق، ويومها كان ولياً للعهد. أما الملك فيصل الثاني فقد نقل إلى المستشفى لإنقاذ حياته ولكنه فارق الحياة -رحمة الله عليه وأسكنه فسيح جناته-. أما جثة ولي العهد عبدالإله فقد سحلت من قبل رجال الشارع الغوغاء ومُثل بها في شارع الأمير عبدالإله في جانب الكرخ قرب جسر الشهداء. أما جثث النساء فقد نقلت إلى المستشفيات ودفنت في مثاهم الأخير بعد التأكد من مفارقتهم للحياة. لم ينجو من هذه المجزرة إلا طفل وعلى ما أعتقد هو علي بن الحسين وزوجة ولي العهد حيث أصيبت بطلق ناري في ساقها واستجدت بأحد الضباط فأنقذها.

كانت العائلة المالكة متهيئة للسفر في صبيحة ذلك اليوم إلى تركيا للقيام بمراسيم احتفال خطبة الملك من بنات إحدى العوائل التركية المعروفة، لكن القدر كان لهم بالمرصاد.

هذه هي خاتمة الهاشميين في العراق، خاتمة مأساوية محزنة هزّت ضمير العالم الحر وكافة الأشراف في العالمين الإسلامي والعربي. أما الشعب العراقي، فقد أخذته الحيرة، فأغلبهم ظل صامتاً مذهولاً من هول الحدث، وأما البعض الآخر، وهم القلة، فقد أخذهم الهوس والانفعال حتى تصرفوا بهياج مفرز منفعلين بهوس الثورة.

إن إسقاط النظام الملكي بهذه الصورة الدموية البشعة كان له نتائج خطيرة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. فقد العراق هويته الإنسانية على صعيد الشارع العالمي الإنساني، كما تفككت الروابط الاجتماعية بين المواطنين وتقطعت حبال الود والتآخي بين الناس.

وهكذا تبشعت صورة الواقع الاجتماعي وانهار الاقتصاد العراقي حين تربع الانتهازيون على مفاصل الدولة، فابتزوا كل ما يمكن ابتزازه وانتفع من كان يتربص صيداً. ضاعت المصلحة العامة في خضم اليسار الطفولي والهياج الغوغائي، كنت يومها ضابط شرطة مرشح لمدير شرطة. شاهدت الأحداث المأساوية بعين بصيرة مفتوحة، فقد تلبسني الحدث وأخذني الضياع إلى مجال التخمين والحيرة. أخذني التخمين والخيال حتى لم أعد قادراً على اتخاذ موقفاً واضحاً ومحدداً.

جاءت الأيام بمحكمة الشعب (محكمة المهداوي) ذات السيط السيئ، حاكمت رجال العهد المباد - كما كان يطلق عليهم - وأعقبهم في قفص الاتهام شباب البعث وتلاههم القوميون والناصريون. انفرد بالشارع العراقي والساحة السياسية الحزب الشيوعي، وأعلنوا ولأهم المطلق لزعيم الثورة عبد الكريم قاسم، واندفعوا بحماس وقوة لإسناده وتأييد خطبه، حتى بات كل عراقي يعتقد بأن الزعيم عبد الكريم قاسم واحداً من قياديينهم، لكن الأيام التالية كشفت الغطاء عن الحقيقة، وإذا بعبد الكريم قاسم يتصدى للشيوعيين وانقلب إلى خصم للحزب الشيوعي بعدما سيطروا على الساحة السياسية وأصبحوا قوة منافسة لزعامته.

أما الرجل الثاني في زعامة الثورة فهو العقيد الركن عبدالسلام محمد عارف، فقد أودعه الزعيم عبد الكريم قاسم السجن وأحيل إلى محكمة المهداوي متهماً بالتآمر على زعامة الثورة. كانت الفرصة ثمينة ومواتية في حسابات الحزب الشيوعي فشددوا قبضتهم على الشارع وسيطروا على عقول الجماهير بشعاراتهم وهتافاتهم المستوردة.

انزوى القوميون في بيوتهم وخلف سجينهم عبدالسلام عارف، هكذا استمرت محنة العراقيين بين قوى اليسار الطفولي الانتهازي وبين القوى القومية الوطنية المغلوبة على أمرها.

لم تأت الثورة من فراغ ولا من أوضاع العراق الاقتصادية والسياسية فحسب، بل تأثر الشارع العراقي ورجال السياسة والأحزاب بأحداث السويس، يوم شن الثالوث الإنكليزي الفرنسي الإسرائيلي حرباً على مصر العربية لاحتلال قناة السويس. ثار العراق بحماس منقطع النظير دعماً لمصر العربية ورفضاً للاعتداء. أذكت خطب الرئيس عبدالناصر الجماهير، وأصبح العراق فوهة بركان متفجر.

إن قيام ثورة في مصر عام ١٩٥٢ وقيام الجمهورية بدلاً من النظام الملكي كان حدثاً مهماً، أثر في نفوس الجماهير وقرب فكرة قيام أنظمة جديدة، فصار أمراً مرغوباً ومحبيباً لنفوس الجماهير.

تفاعل الشعب العراقي مع الأحداث، وتناغمت مطالب الجماهير مع أهداف الشعب المصري، حتى باتت الجماهير في الوطن العربي تهتف بلسان واحد يوحدتها الرغبة في الوحدة والحرية والاشتراكية.

أصبحت حرب السويس خنجراً في رقبة القوى الغازية الغاشمة، وأصبحت الجماهير العربية على امتداد الوطن العربي تمسك بمقبض السيف لإنهاء صورة الاستعمار في المنطقة العربية والتصدي للمطامع الإسرائيلية أملاً بإعادة الأرض المغتصبة لأهلها العرب. هذه الأهداف كانت أثنى ما تناضل من أجلها جماهير الأمة العربية، لذلك انسأقت وراء زعامة الرئيس عبدالناصر لشجاعته في تحقيق أمانيتها وأحلام أسلافها بالقدر المتيقن المخزون في ضمائر أبنائها. انتهت حرب السويس وكان الموقف الأمريكي صريح وخطير جداً حين أنذر الرئيس أيزنهاور الغازين وأمرهم بالانسحاب خلال ٢٤ ساعة. وقد أيد الاتحاد السوفيتي هذا الموقف، وتحركت أساطيل كلا الدولتين إلى البحر الأبيض المتوسط منذرة بحرب عالمية لا تبقى ولا تذر.

استجاب الحلف الثلاثي الغازي المعتدي لهذين الإنذارين الأمريكي والسوفيتي فانسحب مجللاً بعار الهزيمة، وانتصرت مصر العروية والقومية العربية بهذه الحرب. يومها كانت الجماهير العراقية مشدودة الأعصاب، مستنفرة، تتسقط الأخبار، ملتفة حول أجهزة الراديو تتناقل الحدث والحديث من شخص لآخر، وكنت واحداً ممن انفعل وتأثر بهذه الأجواء حتى النخاع.

أصبحتُ واحداً من مجموع الناس الثائرة، ولم تعد الوظيفة تقيدني بالضوابط العسكرية والقانونية، بل على العكس تماماً، تحررتُ من كل قيد، وأخذتُ أتصرف بحرية واندفاع معبراً عن مشاعري الوطنية والقومية بكل صراحة، ولم أحسب أي حساب للنتائج العقابية التي قد تأتيني من حيث لا أحتسب.

والدة تبكي:

عدت في يوم من الأيام إلى منزل والدتي مساءً لرؤية أخي الدكتور علي، فإذا بأمي تبكي وتتساقط دموعها بغزارة. أخذتني العاطفة وحنوت عليها وسألتها عن السبب الموجب للبكاء، ظننت أن حدثاً جليلاً أصاب أحد أفراد العائلة. أخذت أمسح دموعها بيد حانية عطوفة وقبلتها. قالت: يا بني، ماذا فعل هذا الشاب المسكين حتى يقتل ويمثل به يوم زفافه؟ قُتل أبوه، وسبي أهله، وأخيراً تطاولت يد الغدر فقتلت هذا الطفل البريء. قلت: من هذا الذي أدمع عينيك وحشرج صدرك؟ فردت علي: (ليش اتسوي نفسك غشيم)؟ تداركت الموقف وقلت: والله يا أمي أنت محقة، تقصدين الملك فيصل الثاني؟ قالت: نعم، ألا يستحق هذا الشاب البكاء والرحمة؟

نظرت إليّ بشزر وقالت بصوت عالٍ: أحمد، هذه أمانة برقبته، وعليك أن تلتزم بها وتعدني بأن لا تتعاون مع هؤلاء القتلة لأنهم أحتنوا اليمين الذي أقسموا بالولاء للملك، والزمن كشف خيانتهم وبأن ما كان يضمروه من حقد وتآمر.

كانت أمي طيبة القلب، متعبدة، لا تملك القدرة على الخوض في الأمور السياسية، وليس لها القدرة على تحليل الموقف كي تنقذ نفسها من خضم العواطف والأحاسيس البريئة، وترفض مفهوم الثورة ولا تقبل فكرة التغيير. هذه الصورة تكررت عند الكثير من العوائل العراقية المحافظة. طببت خاطرها وقلت لها ببساطة: اطمئني يا أمي ساكون عند حسن ظنك، ولن أتعاون مع هذه الزمرة.

أثرت بي هذه الحادثة، ولم أدرك قوة تأثيرها في حينها، واختزن عقلي الحدث، وانتهى اللقاء. وقد أجابت الأيام التالية وأوضحت موقفني من كل ما حدث وإذا بي أقف بصراحة وجرأة ضد الزعيم عبدالكريم قاسم وخاصمت نائبه العقيد الركن عبدالسلام عارف، وبدأت بتنظيم قوى الأمن الداخلي.

أنا وأخي:

كان أخي الدكتور علي من أعضاء حزب الاستقلال، يومها كان طالباً في كلية الطب، وكان رحمه الله ذو ميول قومية حادة مناوئة للأفكار الماركسية ومخاصم للحزب الشيوعي. كان يتمتع بذوق أدبي وله قلم مبدع، واختيراً عضواً في مجلة الأseau الطبية لسان حال رجال الطب القوميين.

ترأس الدكتور عبداللطيف البدرى تحرير المجلة، واستمر التيار القومي العربي يتدفق من أقلام الأساتذة ذوي الاتجاه الواحد. لم يكن الدكتور علي منزوياً ولا منطوياً على نفسه، بل كان على علاقات حسنة في منطقة سكناه مع زملائه في الكلية. هذه العلاقة مكنته من أن يكون منتخباً ثانوياً يوم كانت الانتخابات النيابية في العراق على درجتين. مثلاً الدكتور علي حزب الاستقلال في الانتخابات، وتعرض لضغوط شتى من قبل منافسي الحزب، ولكن إرادته كانت أقوى من الضغوط. كان فوزه مؤكداً في المنطقة الانتخابية السابعة في الكرخ بسبب تمركز التيار القومي المتنامي فيها.

عاضدت أخي وشددت من أزره، كانت هذه البذرة الأولى في بداية طريقي السياسي. ومن يومها شغل فكري الاتجاه القومي الوجودي العربي. تلبسني وجرى في دمي، حتى لم أعد أفكر إلا في وحدة الأمة العربية ومصيرها واستقلالها. كان حماسي هذا لا يقل عن حماس زملائي وأصدقائي في المدرسة والمنطقة، الكل تفاعل مع التيار القومي.

هذا هو حال طلاب متوسطة الكرخ وطلاب الإعدادية المركزية والشارع وأغلب الجماهير العمالية والفلاحية، ولم تتأثر بأيديولوجية أخرى.

أتت الثورة عام ١٩٥٨ بكل ما هو عجيب وجديد. امتلأت شوارع بغداد يوم الاحتفال بعيد الثورة الأول بناس لم يسبق للشارع العراقي أن تعرف على هذه الوجوه، ولم يألّفها. جاءت من كل حدب وصوب.

استعرضت الجماهير ثلاثة أيام بلياليها، وكان أضعاف عدد هذه الجماهير المستعرضة من المتفرجين، وكنت واحداً ممن شاهد هذا الاحتفال. رفعت شعارات

جديدة لم يسبق لي أن شاهدها، وانزوت شعارات الوحدة والحرية ولم يطرق سمعي هتاف واحد للعروبة. وللأسف الشديد هذا هو حال العراق الجديد، كل شيء يتبدل وبهذه السرعة، حقاً أنها أعجوبة من أعاجيب الزمن. لقد انقلب كل شيء، وأصبح الشارع يعج بأناس تنكروا لعروبتهم وقوميتهم.

الحزب الشيوعي والزعيم:

استغل الحزب الشيوعي -كعادته- في كل المناسبات هذا التيار الجارف، وضاعف من توسعه وتهديداته للقوى المناوئة والمنافسة له في الساحة السياسية. وامتدت حبال السحل تسحل الناس في الشوارع حتى طالت بعضاً من ضباط الجيش من ذوي الرتب الرفيعة. استمر الشيوعيون في اندفاعهم، وتستر المناهضون لهم بالصبر والوعيد.

جاءت الأيام، واتخذ الزعيم الأوحـد عبدالكريم قاسم موقفاً جديداً مناوئاً لهذا التيار وللحزب الشيوعي. بدأت أنياب القوى القومية تبرز ثانية، وطالت مخالـب السلطة أعناق قيادات الحزب الشيوعي. وتم تصفية الكثير منهم، في جميع أرجاء القطر، وقد شمل القتل قيادات الحزب الشيوعي في الكاظمية، وكنت مدير شرطة لها. هكذا طوت ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ صفحة الهياج الطفولي وأخرست صوت الغوغاء من شعوبيين ومتخلفين وانتهازيين من الأقليات الدينية المرتبطة بوشائج الرحم والمذهبية بقوى غير عراقية من خارج القطر.

أصبح التوازن بين قوة الشيوعيين والقوى القومية قائماً على عموم الساحة العراقية، حتى دقت ساعة العمل الثوري وسقط الزعيم الأوحـد عبدالكريم قاسم، وقد دفع رقبته ثمن ابتعاده عن الخط القومي الوطني.

انتمائي لحزب البعث:

لم تنطلق عنان التحزب في نفسي من الصفر ولم تأت من العدم، بل جاء تحزبي من خلال تجربتي وبيئتي، ومن دراستي وتحليلي للأشخاص وللأحداث. إن الظروف الموضوعية المحيطة بي كانت كفيلة لخلق الاندفاع والحماس في نفسي وتفكيري

لتكوين ذاتية اتجهت بي إلى التحزب. دخلت خضم السياسة، وكنت قبلها أقف على هامشها. رأيت في مبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي، وفي طروحاته، ما ينسجم تماماً مع ما أؤمن به وأرضاه، لذا تناديت للأحداث بعد أن ثارت في همم النخوة والالتزام العفوي.

لم يكن حزب البعث دخليلاً عليّ ولا على أخي الدكتور علي. كانت نشرات الحزب منذ تأسيسه تغزو بيتي حين حل عبدالرحمن منيف ضيفاً على العائلة يدرس في كلية الحقوق عام ١٩٥١ قادماً من الأردن.

في مساء أحد الأيام جلبت أمي رزمة مناشير وقالت بصوت مرتجف والخوف يرتسم على وجهها: (أحمد عبدالرحمن صاير شيوعي شوف هذه النشرات وجدتها تحت وسادته عند ترتيبتي فراش نومه). قرأت النشرة وإذا هي نشرة لحزب البعث العربي الاشتراكي. قرأتها جيداً وبإمعان، قلت لأمي: أعيدي النشرات إلى مكانها فإنها ليست نشرات الحزب الشيوعي بل لحزب يناهضه، فلا تخافي على ابن أختك. أردت بهذا القول إقناع أمي بلغة ترضيها وتبعث الرضا في نفسها. كان جوابي شافياً ومرضياً، وأعدت النشرات إلى مكانها واطمأنت على ولديها وعلى ابن أختها. كانت هذه الحادثة في مطلع الخمسينات منذ تشكيل حزب البعث في العراق.

كشفت دوائر الأمن وكر حزب البعث في الكاظمة، وكانت سكناً لعبدالرحمن منيف في الوقت ذاته. اعتقلت القيادة القطرية لحزب البعث، وكان الرفيق فؤاد الركابي يومها أمين سر القطر للحزب. كان فيصل حبيب الخيزران واحداً من القيادة التي أوقفت. كنت على معرفة به يوم كنا طالبين في صف واحد في الإعدادية المركزية وكان يكثر من التردد على عبدالرحمن منيف يوم كان نزيلاً في داري في الأعظمية. توثقت علاقتي بالحزب، ووقفت موقفاً أخلاقياً يوم أوقفوا، وقد جهزتهم بالطعام والحاجيات الضرورية. وكانت الحكومة رتيبة بهم لكونهم من الشباب القومي، بينما كانت واجبات وظيفتي تفرض عليّ عدم التحزب، بل تدعوني لمكافحة الأحزاب السرية بما فيهم حزب البعث، ولكنني انخرطت في هذا الحزب بكل إرادتي وحسب رغبتني.

أثارت نشأتي القومية الحماس والحمية والنخوة لمساعدتهم. كان اندفاعاً طبيعياً يتمشى مع تكويني النفسي والفكري. أنا ابن بغداد، من الكرخ، ابن الحارة

والشارع والمدرسة. في الإعدادية المركزية، عاصرت الانتخابات النيابية، وكنت منحازاً لحزب الاستقلال، الحزب الذي كانت قيادته من الوطنيين المعروفين في الحقل السياسي ولهم مواقفهم الواضحة والمشرفة. كان حزب الاستقلال حزباً معارضاً للسياسة وللأحزاب التي لا تتسجم مع خطهم الوطني، كان يرأسهم محمد مهدي كبة الشيخ كما يطلقون عليه رفاقه. يحف به رجال سياسيون عرفتهم وجربتهم سوح النضال أمثال فايق السامرائي وصديق شنشل وخليل كنة وعباس بغدادلي وآخرين. ترددت مع أخي الدكتور علي على مقر حزب الاستقلال في نهاية الأربعينات أستمع إلى محاضرات القادة في التوجيه القومي والتوعية الوطنية حتى بات أخي واحداً منهم وكنت لصيقاً به. إن هذه النشأة القومية الوطنية في نفسية شاب عمره لا يتجاوز الثلاثين سنة أينعت وأورقت حتى أثمرت، فكان حزب البعث العربي الاشتراكي مأوى لهذه الثمرة وابناً باراً لرفاقه الحزبيين.

عجلت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في اندفاعي القومي، وصعدت وتيرة مسيرتي نحو العمل السياسي يلفني جو ملتهب كله عاطفة وحماس. هذا التيار دفعني وأضرابي لمشيئة التحزب. لم أجد فكراً عقائدياً أقرب لنفسي وذهنني من حزب البعث العربي الاشتراكي.

كان حزب البعث مساهماً في الثورة -مع احترامي لحجم مساهمته-، فاستوزر أمين سر قطره في أول وزارة. كان الدكتور عبدالرحمن منيف وفيصل حبيب الخيزران ومدحت إبراهيم جمعة يترددون على دار أخي الدكتور علي باستمرار وغيرهم من البعثيين، وكنت أستمع لما يدور بينهم من حديث وأبدي رأيي في بعض الأحداث التي غرق فيها الشارع العراقي والساحة السياسية. كنت في بداية العقد الرابع من عمري وفي منصب وكيل مدير شركة السكن بعد أن أحيل المدير خضير عبدالجليل إلى التقاعد واستلمت أمر الوكالة لكوني أقدم ضابط شرطة في هذه المديرية. يقع مكتبي بجوار دار الإذاعة تماماً في الصالحية. شاهدت كل الأحداث التي وقعت في شارع الصالحية بما فيها برقيات أعضاء الحزب الشيوعي، حيث كانت مسيراتهم تحف بدار الإذاعة. لفت نظري برقيات الحزب الشيوعي كانت تكتب في سيارة الحزب وتقدم للإذاعة وتنصرف ثم تأتي ثانية وتقدم برقية أخرى تأييداً

لاعتقال عبدالسلام عارف وتعصيماً لزعامة عبدالكريم قاسم. واستمرت نفس السيارة ويدخلها نفس الأشخاص يكتبون برقيات متعددة بأسماء ومنظمات عديدة. وهكذا غطت إذاعة بغداد نشاط الحزب الشيوعي المحموم في أيام الثورة وأبان اعتقال عبدالسلام عارف نائب القائد العام للقوات المسلحة.

ساهمت محكمة الشعب المسماة بمحكمة المهداوي وهو اسم رئيسها العقيد فاضل عباس المهداوي كان قريب الزعيم عبدالكريم قاسم الذي قاد وفجر الثورة مع صاحبه العقيد الركن عبدالسلام عارف. ساهمت هذه المحكمة وعجلت في انتسابي لحزب البعث العربي الاشتراكي. وفي يوم من الأيام التقى رفاق البعث في دار أخي الدكتور علي، قال لي الأخ فيصل حبيب الخيزران: لماذا لا تشكلون تنظيماً حزبياً للشرطة على غرار ضباط الجيش؟ رحبت بالفكرة، بل فجرت في كل طاقات الاندفاع والحماس، ولم تمض أيام حتى فاتحني قحطان حمد العزاوي قائلاً أن الرفيق فيصل أشار عليه أن يلتقي بي، وفعلاً جاء لتنفيذ ما أشير عليه. كان قحطان متحمساً جداً للفكرة ومنذفعاً وهو لما يزل ضابط شرطة برتبة ملازم ثاني وأنا برتبة مدير شرطة. كان الاجتماع الأول على شكل خلية صغيرة أنا وقحطان يديرها عضو من حزب البعث، كان أحد طلاب كلية الهندسة. بدأت الخلية بالعمل والنشاط الحزبي بتحويل من قيادة الحزب.

استمر الاتصال بضباط الشرطة من الذين لديهم ميول قومية وأغلبهم من دورة واحدة وممن قبلوا في الكلية العسكرية على حساب الشرطة، وقد تعرضوا إلى الإهانة والإيذاء من قبل عناصر الحزب الشيوعي.

عملت الاعتقالات العشوائية والإيذاء والتعذيب دوراً مهماً في خلق تيار معادٍ للشيوعية، فانخرط كل ممن فاتحناهم بالانضمام إلى حزب البعث بسهولة ويسر حتى كاد الحزب لا يصدق بهذا الاندفاع والانفتاح والتوسع السريع. انضم إلينا معاون عزيز حميد السامرائي وتم تشكيل أول خلية لقوى الأمن الداخلي. بدأنا الثلاثة العمل بجدية وهمة لكسب من نراه نافعاً للحزب ولم تؤشر عليه أي سلبية أخلاقية أو فساد كالرشوة وغيرها. إن معرفة الرفيقيين قحطان وعزيز بأبناء دورتهم كانت جيدة ووثيقة، وأغلبهم تضرروا من سلوك الشيوعيين، وقد اكتنوا بنيران تعذيبهم، كما ساهمت

الأجواء الساخنة التي هيأتها محكمة المهداوي سيئة السيت العوامل النفسية لاندفاع الشباب القومي نحو الحزب وقبول التضحية برحابة صدر.

إن شجاعة قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي وتصديها لموكب الزعيم عبدالكريم قاسم والهجوم عليه بالسلاح الناري في شارع الرشيد حين أمطروه بوابل من النيران، جعل قيادة البعث والبعثيين بمصاف الأبطال، وبرزوا في الساحة السياسية كقوة متحدية كفوءة وقادرة على الوقوف بوجه الشيوعيين. كل هذه الأجواء السياسية الملتهبة الحادة واشتعال التيار القومي في نفوس القوميين يغذيها خطب ومواقف الرئيس عبدالناصر ساعد على انتشار الحزب في صفوف ضباط الشرطة.

وزعت قيادة الشرطة الواجبات الحزبية على النحو التالي: أخذت على عاتقي تنظيم ضباط الشرطة، واستلم الرفيق قحطان تنظيم كلية الشرطة، وتكفل الرفيق عزيز السامرائي تنظيم المفوضين والمراتب تمشياً مع التوسع السريع بين مراتب الشرطة. وعلى ضوء هذا التقسيم شكلت أول خلية لضباط الشرطة الذي كنت أنا أمين سر هذا التنظيم وعضوية المعاون عامر المختار وجمال الدين الطائي وكل منهما نسب إليه عدة خلايا، تتألف كل خلية من ضابطين أو ثلاثة. وأما تنظيمات كلية الشرطة، فقد تمكن الرفيق قحطان العزاوي من توسيع التنظيم بمعاونة عدنان إبراهيم طالب في نفس الكلية وأوكل له مسؤولية التنظيم، وأشرف الرفيق قحطان العزاوي على التنظيم. أما الرفيق عزيز السامرائي فقد نشط في صفوف المفوضين بحذر وبطء شديدين.

لم يكن أمامي -وأنا أمين سر مكتب الشرطة- إلا أن أفتح الأخ فاضل حميد السامرائي مدير شرطة النجدة للتعاون مع التنظيم إذا ما اقتضت الضرورة الاستعانة به. كانت مديرية شرطة النجدة تمتلك سلاحاً كافياً وحديثاً ومجهزة بسيارات روسية حديثة وزوارق نهريّة. حقاً كانت صفقة رابحة مع فاضل السامرائي. أوعزنا لأخيه الرفيق عزيز حميد السامرائي عضو المكتب أن يديم علاقته بمديرية النجدة، وأن يكسب من تتوفر فيه القيم القومية والنخوة العربية. وفعلاً تمكن من تمتين علاقته بأخيه فاضل حتى باتت مشاجب سلاح النجدة في جيب التنظيم.

كسبت مدير الشرطة يونس السامرائي لاهتمامه بمناوئة الشيوعيين ولحماسه القومي واندفاعه لمقاومة النظام القاسمي. أبدى استعداداه للتضحية عندما أنشئ جسراً جديداً في الكوت. فاتحني يونس فيما إذا كان بإمكان الحزب اغتيال الزعيم عبدالكريم قاسم أثناء حضوره احتفال افتتاح الجسر. فاتحت الحزب بذلك، وطلبوا مني عدم القيام بأي عمل فدائي، لأن مثل هذا العمل يحتاج لإعداد مسبق وتخطيط دقيقين. بلغت يونس برأي الحزب وافتتح المشروع ولم يحضر الزعيم عبدالكريم قاسم. علمت من يونس -مدير شرطة الكوت- من أن المحافظ أسر إليه بأن الزعيم عبدالكريم قاسم توجس خيفة من مجيئه، وأن تأمرأ قد يحقق به. إن استخبارات الزعيم أكدت له وجود مؤامره، ونصحوه بعدم الحضور.

استمر التنظيم بالتوسع مع المعارف والأصدقاء ممن هم ثقة وله قابلية على التضحية والفداء. تصاعدت وتيرة التيار القومي بسبب تجاوز العقيد المهداوي مهام مهمته وتماديه بشتم الرئيس عبدالناصر حتى أخذه الاندفاع والاستهتار تدنيس شرف هذا الزعيم العربي رائد القومية العربية. لا أجد ما يشجيني على كتابة ما قاله هذا الوغد، فمحاضر المحكمة حافلة بشتائم وبذاءة لسانه وتكره للقومية العربية وأمانيتها الوحودية.

التنظيم المدني وتنظيمات قوى الأمن الداخلي:

توسع التنظيم، ونشط، وزاد اهتمام حزب البعث بتنظيمات قوى الأمن الداخلي. تناوب على قيادة التنظيم كل من الرفيق أحمد الشاوي، كان رفيقاً طيب القلب، مناضلاً، أميناً، متواضعاً رغم علو مكانته الحزبية. تلاه الرفيق ناظم جواد، كان قريباً من القيادة القطرية، وهو أخ الرفيق حازم جواد عضو القيادة القطرية. بعد مرور فترة وجيزة على استلام الرفيق ناظم جواد مسؤولية تنظيم قوى الأمن الداخلي فاتحنا في أحد الاجتماعات الأسبوعية طالباً تقديم أسماء التنظيم كلاً حسب مسؤولياته بحجة أن الحزب مقبل على القيام بثورة يقودها عبدالسلام عارف، وسيتم توزيع المهام على الرفاق البعثيين كلاً حسب واجبه وحسب متطلبات الثورة. انطلت عليّ الحجة، وقدمت بخط يدي أسماء كل التنظيم وكل خلية ومسؤولها ظناً مني أن

الثورة قادمة فعلاً وما علينا إلا أن نتقبل التضحية بروح ثورية.

إن هذا الإجراء -طلب أسماء التنظيم- كان خلاف لما اتفق عليه مع الرفاق. كانت الأمانة الحزبية والروح الرفاقية تقتضيان الاستجابة لطلب الحزب، لذا، قدمت أسماء التنظيم حسب طلب المسؤول.

بعد أشهر بلغت بأن دائرة الأمن العامة تحرت دار الرفيق ناظم جواد وتحرت وكر فرع بغداد الواقع في بغداد الجديدة، وعثرت على أسماء تنظيم قوى الأمن الداخلي. قبل أن أُبلِّغ بفاجعة التحري وسقوط التنظيم بيد الأمن العامة أودع الرفيق ناظم جواد عندي محفظة جلدية كبيرة، وأوصاني خيراً بأمانتها لأنها تحتوي على التنظيمات الحزبية مع كثير من النشرات. كنت أميناً على سلامتها، ولم أقم بفتحها، ولا علم لي بما فيها.

سلمت الوديعة إلى شاكر العكلي لعلاقتي الشخصية به، وكان يزورني بين فترة وأخرى الأخ إسماعيل الكاطع وأخيه إبراهيم الكاطع، وأعلمتهم بما حدث، وأني سأساق إلى التوقيف قريباً. رد علي إبراهيم قائلاً: يا أبو ليث، أنا مستعد أن أهربك إلى سوريا، ولي معارف وأصدقاء قادرين على إيصالك بسلام، ولي علاقات تجارية وثيقة معهم (تجارة الأغنام والماشية). شكرته على العرض وقلت له: واللّه أريد أن أواجه مصيري كما كتبه الله لي، فأنا مؤمن بالقدر وبعظمة الله، والخير فيما اختاره الله، وشكرته على عرضه ومعاونته ووفائه.

بلغني الأخ علي صالح السعدي -وكان يقود سيارته وبجواره على ما أظن الرفيق طالب شبيب كما تبين لي من سماته ليلاً- بسقوط أسماء التنظيم بيد قوى الأمن، وقال لي إذا كان من الممكن تلافي الموضوع. أبلغت فاضل السامرائي بالأمر، وقد أشار علي أن نذهب إلى مدير الجنسية شاكر نعمان فهو أقرب لمدير الأمن العام. وفعلاً ذهبنا إليه، وفاتحناه بالأمر. رافقنا إلى مديرية الأمن العامة، وإذا الأمر صدر من الزعيم عبدالكريم قاسم باعتقالنا جميعاً.

في اليوم التالي، ذهبنا إلى دائرتي كما جرت العادة وأنا عالم بأمر اعتقالني. جاءت مفرزة الأمن وفقاً للأوامر وما تقتضيه القوانين، وفُتشت، واعتُقلت، وكان رجال الأمن

متأسفين لما حدث واعتذروا مني وقالوا: والله لولا الوظيفة لساعدناك على الهروب. أتذكر صورة هذا الضابط، وكانت لي معرفة مسبقة به، ولكن الأيام أنستني اسمه، فكان رجلاً رقيقاً بكل ما في الكلمة من معنى. وبعد ساعات كان أغلب التنظيم في دائرة الأمن العامة، وعند منتصف الليل شحنا جميعاً في سيارات عسكرية يقودها ضابط من أمرية الانضباط العسكري مع حماية عسكرية متجهين إلى المجهول. وبعد ساعة، وإذا أنا بالسجن العسكري الموسوم برقم واحد.

طمأنت رفاقي بأن يكونوا أوفياء للحزب، وإن إطلاق سراحنا قريباً جداً، فلا خوف عليكم ولا تحزنوا، حيث بدت ملامح الخوف على وجوه بعضهم، وأما البعض الآخر أخذ ينظر إليّ ويستمد العزيمة والقوة ويتظاهر بعدم المبالاة، وكانوا فعلاً عند حسن ظن الحزب.

أودعنا السجن العسكري وكل واحد منا بغرفة منفردة، فكان نصيبي الغرفة الأولى من المجموعة الرابعة. قرأت اسمي الرفيقي أحمد طه العزوز وأياد سعيد ثابت محفورين على جدار الغرفة. كانت ساعات مرهقة ومضنية، إذ يعز عليّ أن أرى رفاقي مكبلين مسجونين وهم في ريعان الشباب يؤمنون بالله وبالوطن وبالأمّة العربية يقادون في بلد عربي إلى السجن بسبب عقيدتهم وإخلاصهم. حقاً كانت الواقعة مؤلمة، بل مأساة رجال عاهدوا الله والوطن على التضحية، لكن القدر كان لهم بالمرصاد.

كانت خطيئة التنظيم المدني -سواء كان الخطأ عفويّاً أو متعمداً- خطأ قاتلاً ومؤلماً. هذا هو طريق النضال، شاقاً ومرهقاً وليس من السهل خوض غماره إلا من أتاه الله القوة والإيمان رغم أنني لست مقتنعاً بأسلوب كشف التنظيم وفي ذهني علامة استفهام كبيرة على ما حدث.

السجن رقم واحد العسكري:

عزل كل عنصر من عناصر التنظيم في غرفة منفردة خلف أبواب حديدية وجدران صماء لا نافذة فيها إلا شبك صغير لا تطاله الأيدي. افترشت الأرض الصماء وتوسدت حدائي بعد أن غلفته بسترتي ونمت على أرضية باردة، ويبدو أن الإرهاق

النفسي أتعب كل عضو في جسمي فاسترحمت ونمت نوماً هادئاً رغم شجوني وأحزاني وحراجة موقفي إزاء رفاقي أعضاء التنظيم. كانت مواساتي الوحيدة أن الحزب هو الذي يتحمل مسؤولية كشف التنظيم ولم أكن سبباً في التجني وإيلاء رفاقي. لم يشغل بالي مصير أولادي وزوجتي بقدر ما شغلني هموم رفاقي باستثناء ولدي (سيف)، كان متعلقاً بي وهو أصغر أولادي وصلتي به شديدة. تركت البيت ولم يكن في جيبني من المال إلا سبعة دنانير وهو رصيدي الوحيد، أودعت المبلغ لزوجتي وكانت يد الله في حمايتهم. بدأت أفكر جدياً لإيجاد صيغة مقبولة أواجه بها اللجنة التحقيقية أدفع بها الحيف عن رفاقي وهذه أمانة عاهدتهم عليها بعد أن عاهدت الله على أن أصون الأمانة.

سبق لي أن كتبت تقريراً للحزب رسمت فيه خطة لاغتيال الزعيم عبدالكريم قاسم، يعتمد التقرير على تواجدي في كل احتفال يقيمه الزعيم الأوحده - كما أطلق عليه الحزب الشيوعي -. كان الحفل ينقل على الهواء مباشرة بالتلفاز والراديو. إن تأمين حماية الاحتفال يقع على عاتقي، كما يقع على عاتق حماية الزعيم ودوائر الأمن. كانت إمكانية الحماية متواضعة جداً يومها، وكنت مسلحاً - بحكم وظيفتي - ولي حرية اختيار المكان المناسب لوقوفي. إن كل أعضاء المكتب - مكتب قوى الأمن - كانوا مستعدين لتنفيذ واجب الاغتيال ثأراً للضباط الأحرار الذين أعدمهم عبدالكريم قاسم. لم يعد الرضوخ للأمر الواقع أمراً معقولاً، وقد تضمن التقرير سيطرة النجدة على الشارع لمواجهة الحزب الشيوعي أثناء الاغتيال. لم يكن الحزب الشيوعي يمتلك قوة جماهيرية قبل الثورة، بل كل ما يمتلكه عدد من القياديين يعاونهم نفر قليل وطابعة تغذي الجماهير بنشراته تدلل على تواجده ونشر أفكاره. كان الحزب نشيطاً وذكياً في تحركاته مستغلاً المواقف وانتهاز الفرص، كل هذا ساعده على الانتشار والتوسع في ظل النظام الجديد تحت يافطة الثورة. لم أبالغ أو أصطنع القول حين أدين الحزب الشيوعي، لكنني كضابط شرطة وأصبحت مديراً كنت على اطلاع بإمكانية الحزب الشيوعي ومراكز نفوذه.

استكمالاً للخطة التي طرحتها، يقوم الجيش الموالي لحزب البعث بالسيطرة على مراكز نفوذه في أبي غريب ومعسكر الرشيد ومعسكر التاجي، وهي المواقع القريبة

لبغداد، وأن ساعة الصفر مقتل عبدالكريم قاسم. إن عملية الاغتيال ستكون مشهودة في التلفاز والراديو. إن تفاصيل الخطة كانت بنظري صحيحة وسهلة التطبيق والتنفيذ ولا تحتاج إلى قطعات عسكرية ضخمة للسيطرة على بغداد، وأن النيّة الصادقة والحماس كافيان لقتل الزعيم عبدالكريم لنجاح المهمة.

هذا التقرير كان المستمسك الخطر الذي يؤدي بي إلى حبل المشنقة، وبعد التحقيق لم يكن التقرير تحت يد اللجنة التحقيقية، لذا انصب هم اللجنة على الحالة التنظيمية، وكفى الله شر القتال.

في اليوم الأول من ثورة ١٤ رمضان عام ١٩٦٣ عشر ضباط الثورة -ممن دخلوا وزارة الدفاع ومكتب الزعيم- على تقرير تحت مصباح المنضدة كتب أحد ضباط الجيش -وكان محسوباً على حزب البعث- وعلى ما أتذكر كان هذا الضابط برتبة مقدم ركن. شرح هذا الضابط في تقريره بأن تنظيماً قوى الأمن الداخلي بقيادة مدير الشرطة أحمد أمين عازمة على القيام باغتيالك. عكست الأيام التالية بعد هذا التقرير تصرفات الزعيم عند حضوره الاحتفالات. كان يقف وظهره إلى السيارة يدقق في وجوه المستقبلين ويلتفت يمناً ويسرة ليتأكد من وجودي. استغربت من تصرفه عندما كان يحييني وأنا برتبة متواضعة ومسؤول أمنه. رفعت تقريراً للحزب (حزب البعث) بهذه الظاهرة، وأشارت إلى قناعتي بأن الزعيم على علم بنوايا تنظيماً قوى الأمن الداخلي وشكّه بي. لم أجد استجابة لتقريرتي، واستمرت الأمور على حالها دون تغيير. هذا هو حال العمل السري، فيه من الخفايا والزوايا ما يعجز العاقل عن الوصول إلى مخابئ مستودعات السر.

خيانة أخرى:

بعد أن حكم المجلس العرفي العسكري على تنظيماً قوى الأمن الداخلي وحكم بالسجن من حكم وبرا ممن ارتأت السلطة والمجلس العرفي براءته، كان نصيبي من الحكم سبعة سنوات من السجن، وأنا الوحيد الذي طالته أكبر عقوبة، أما الآخرين فكانت عقوبة سجنهم تتراوح بين ثلاث سنوات فما دون، وآخرين برأت ساحتهم. هتفت بسقوط عبدالكريم قاسم وأنا في قفص الاتهام وأمام أعضاء المحكمة وأمام

جمهرة محامي الدفاع وعلى رأسهم المحامي أسعد فريخ.

أصبحت الاتصالات بين المحكومين مسموح بها، وكان الرفيق ضياء العلكاوي يسألني عما إذا استلمت معونة الحزب مادياً، فأجبتة بكلا، فترتسم على وجهه علامات الاستغراب، وسألني مرة أخرى بعد فترة وكررت الإجابة عليه وقال: علمت من أخي زياب العلكاوي أن الحزب (حزب البعث) خصص لك مبلغ أربعين ديناراً شهرياً. ولما زارتنى زوجتي سألتها عن المبلغ فقالت: استلمت مبلغ عشرين ديناراً طيلة هذه المدة التي قاربت على السنة.

نقل الرفيق ضياء العلكاوي الأمر لأخيه زياب لاستجلاء الحقيقة، وفتح قيادة الحزب بالأمر. أرسلت القيادة الرفيق حازم جواد مع الوسيط الذي يسلم الراتب إلى زوجتي وذهب إليها وقالت لهم الحقيقة أنها لم تستلم سوى عشرين ديناراً كل شهرين، فخرجا بعد أن عرفا الحقيقة.

ثار الرفيق أحمد حسن البكر وكاد أن يبكي عندما سمع الخبر - كما روى لي ذلك هو بنفسه-، علم الرفيق زياب العلكاوي بذلك. بعد أسبوع من المكاشفة المخزية قامت ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ وخرجت من السجن بمعاونة دبابات الثورة، وسيطر الحزب على مفاصل الجيش، واستلمت وظيفتي الجديدة، وقضى قرار مجلس قيادة الثورة تعييني مدير الشرطة العام. قلت في نفسي عفى الله عما سلف، استعملها عبدالكريم قاسم ودفع رقبته ثمناً لهذه المقولة.

سكت عن فضيحة سرقة راتبي، ولم أثر الموضوع لا في الحزب ولا قضائياً، وهكذا طويت صفحة الخيانة بحسن نية وطيب قلب. أعطتني التجربة هذه درساً جديداً في الحياة، وأصبحت أؤمن بأن القصاص هو الخط الفاصل بين الحق والباطل، وأن مقولة (عفا الله عما سلف) لا محل لها من الإعراب.

تسلم هذا الخائن مناصب رفيعة تحت مظلة حزب البعث العربي الاشتراكي وكان محسوباً على الحزب والنضال وبعد عمر طويل أثرى هذا الرجل وأصبح من أثرياء البعث والله أعلم من كان يحميه ومن كان في عونه ولم لا يحاسبه أحد.

في إحدى الليالي، وبعد مرور سنين طويلة على ثورة ١٤ رمضان ١٩٦٣، أسر لي

الرفيق مدحت إبراهيم جمعة بعد حديث شجي ونقاش أخوي، قال: أبو ليث، إن كشف تنظيمات قوى الأمن الداخلي كان في صالح الحزب، وتهيئة للثورة، وإن كنتم الضحية التي ابتلعت المصيبة.

تواردت في ذهني الأفكار، وحللت المواقف منذ أن كشف الرفيق ناظم جواد تنظيمات قوى الأمن الداخلي بحجة واهية. قال: إن التنظيمات وأسماء الرفاق كانت بجيب الروب وتوصل الأمن إليه بسهولة. والمعلومة الأخرى أن معاون الأمن فوزي شهاب أبلغ بتحري دار ناظم جواد وسيجد وثائق تنظيمات قوى الأمن الداخلي مكتوبة بخط يدي. أجرى التحري حسب الأصول ووفق المعلومات، وجاءت الأخبار صحيحة وعلى ضوء الإخبار.

استمرت الأفكار تتلاطم في خاطري، ولم تؤرقني بقدر خوفاً على ضياع ثورة الحزب حزب الوحدة والحرية والاشتراكية. فعلاً كانت شعارات براءة تأخذ بتلابيب كل من يؤمن بالقوموية العربية ويناضل من أجل الاستقلال والحرية. نعم، إنها أهداف نبيلة وعظيمة، ولكن طرق تحقيقها وعرة وشائكة، ملغمة بالأغام متنوعة، تتفجر متى ما اقتضت الضرورة لتفجيرها.

إن العمل السري السياسي محاط بألف عين وعين من قبل الأعداء والمناوئين والحاquدين والمنافسين على حد سواء. إن تجنب المزالق ليس سهلاً ولا أمراً يسيراً لأن طرق المخططات المعادية والمنافسة لن تقف عند حد ولا تنتهي مادامت المصالح العليا أمراً مطلوب تحقيقه تدعمه قوى دولية عظمى ودوائر أمنية كفوءة.

كان الرفاق جميعهم عند حسن ظن الحزب (حزب البعث) وعند حسن ظن العراق. كان الصمود والتحدي من شمائل المناضلين. التفوا جميعاً تحت راية قيادة التنظيم ولم يعكر صفو هذه العلاقة رغم مرارة المحنة إلا انقطاع العمل الثوري. أشاع جمال الدين الطائي بين الرفاق وامتدت الإشاعة إلى السجنانيين من أن أحمد أمين كشف التنظيم للسلطة مقابل خمسة آلاف دينار.

إن هذه الفرية لم يصدقها ولا مناضل واحد، كما لم أعر لها أي اهتمام، وأدركت أبعادها وسبب انتشارها. تجنبت الاصطدام بمن وراءها، وفعلاً فوّت الفرصة على أبطالها، بل على العكس تماماً، توددت لجمال الدين الطائي ولكن دون جدوى.

اقترح عليّ عزيز السامرائي وبعضاً من الرفاق إسكات هذا الصوت بالقوة، وأنهم على استعداد لعمل كل ما يمكن عمله تحدياً وتأييماً. رفضت كل الاقتراحات وقلت: إن السجن قد يدفع البعض إلى أعمال مستفزة بسبب الضغط النفسي، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، وأن الأيام القادمة ستكشف لعبة الخيانة.

جاءت نتائج الحكم ببراءة جمال الدين الطائي، وأصدرت الأحكام بالسجن على الرفاق الآخرين. إن كشف تنظيمات كلية الشرطة عاونت التنظيم والتحقيق معاً على تبسيط الأمور وتسهيلها، كما انعكس ذلك على مجريات التحقيق وسلوك مسؤولي السجن وسير المحاكمة ونتائج الأحكام. كان ٧٥٪ من طلاب كلية الشرطة منضوين في صفوف الحزب، ولم يبق إلا القليل على مقاعد الدراسة. هذا العدد الكبير من الطلاب البعثيين أقنع القيادة العليا لثورة تموز ١٩٥٨ بمعاونتهم، وأن الظروف الشاذة التي خلقها الحزب الشيوعي من تكتيل وقسوة دفعت هذا العدد الكبير من الشباب للحزب، فأفجر عن كل طلاب الكلية بعد أربعين يوماً من التحقيق. أشارت نتائج التحقيق إلى هذه الحقائق في تقريرها النهائي، وكان القرار مقنعاً لرأس النظام، وأثمرت النتائج، وأطلق سراح الطلاب، وعادوا إلى صفوف الدراسة.

استمر العمل الحزبي، وأضفنا إلى قيادة تنظيم قوى الأمن الداخلي الرفيق عدنان إبراهيم الذي قاد تنظيم طلاب كلية الشرطة عندما كان طالباً. كان تنظيم الطلاب يعتمد على مسؤول كل صف من صفوف الكلية الثلاث، ويرأس التنظيم الرفيق عدنان إبراهيم، وقد انضم لقيادة التنظيم بعد تخرجه من الكلية وفاءً لنشاطه وصموده.

التاريخ مليء بحوادث الخيانة، وقد غيرت كثير من الحيوانات مسيرة التاريخ وأخفت كثير من الحقائق. أتذكر ما كتبه المؤرخ الإنكليزي أي. أل. فيشر عن الثورة الفرنسية وبالأخص محاكمة لويس كابيه (لويس السادس عشر) وزوجته (ماري انطوانيت) بنت ملك النمسا الشابة الحسناء.

قدم فلاح القصر الذي اعتلى منبر النيابة العامة في الجمعية العمومية أفذر شهادة مملوءة بالكذب والافتراء، مملوءة بالحقد والكراهية للعائلة المالكة. زادت وصيفة الملكة الإيطالية الأصل الطين بلة، إذ اتهمت ماري انطوانيت بممارسة الجنس مع ابنها ولي العهد، كما اتهمت أختها بنفس التهمة. اشترت هذه الخادمة الإيطالية أكبر وأفخر

مزرعة في إيطاليا من هبات الملكة ماري انطوانيت. (اتق شر من أحسنت إليه) أهذا هو جزاء الإحسان؟

تربص عضو المحكمة فوكيه برئيس المحكمة وزميله العضو الآخر وصب عليهما جام غضبه لإجبارهما على إصدار أحكام الإعدام بعد تهديد ووعيد. هذا الفلاح السارق -كما يقول فيشر- نفش ريشه وانتفخت أوداجه وصور نفسه أمراً وناهيماً وحاكماً وقاضياً.

لم تنته فضول الخيانة بعد، أودع ولي العهد ابن الملكة إلى سيمون (يرثق أحذية) كي يعطيه دروساً في الثورة الفرنسية حتى غسل دماغه تماماً، تقدم هذا الطفل المغرر به إلى المحكمة فقدم شهادته الكاذبة الجارحة حيث اتهم أمه بمزاولة الجنس معه. نهرتة ماري انطوانيت مراراً ليقول الحق وهي في موقف تاريخي صعب، ولم يرعوي.

حكمت المحكمة بإعدامها وزوجها بعد أن ابيض شعر رأسها من هول الفاجعة ومن التهم الباطلة المخزية وهي لما تزل في ريعان الشباب بنت السابعة والثلاثين سنة. بكت عيناها دماً وقطعت المقصلة رأس فتاة جميلة بنت الملوك والأدب والأصول. هذا ما قرأته في كتاب المؤرخ الإنكليزي أي. أل. فيشر.

وحادثة أخرى غيرت مسيرة التاريخ، إعدام المسيح عيسى الناصري بعد أن وشى به يهوذا -وهو من حواربيه- مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. أصدر بلاطيس الروماني حكم الإعدام وأمر بإعدامه. وعلق النبي المسيح بن مريم على صليبه الذي أجبروه على حمله ليعلق عليه، وكان مصيره المأساوي جريمة تاريخية أخزت التاريخ والعدالة والإنسانية.

نجى عيسى عليه السلام من الموت بعد أن هربت أمه به إلى مصر خوفاً من الملك هيرودوس ليلقى حتفه على يد بلاطيس حاكم فلسطين.

إدارة السجن:

قامت إدارة السجن بمصادرة كافة ملابسها الداخلية وغيرها من الطعام وكل ما جاءت به زوجتي في كل محاولة لزيارتي. لقد منعت عني الزيارات إلى أن حكم علينا

المجلس العرفي. هذه هي العقوبة الوحيدة التي اتخذتها سلطات السجن. كانت كرامتنا مصانة، ولم أسمع أي كلمة تائب أو إهانة من أولئك الذين أشرفوا على إدارة السجن أو من أعضاء لجنة التحقيق. قام الملازم خالد الكرخي بزيارتنا جميعاً وطمأننا بأن ليس لدى اللجنة دليل إدانة، وشجعنا على الصمود والصبر. كان متعاطفاً مع حزب البعث -على ما يبدو- وهو من الضباط المسؤولين عن حماية السجن.

تظاهرة الطلاب والجماهير:

قاد حزب البعث أكبر مظاهرة ضد نظام الحكم القاسمي، ولعب اتحاد الطلبة دوراً كبيراً وفعالاً لإلهاب حماس الطلاب، ودفعهم لمقاومة السلطة وتحدي رجال الشرطة والأمن. وفعالاً نجح نجاحاً موفقاً حيث أضربت الجامعة، كما أضربت بقية المعاهد بشكل لم يسبق له مثيل. تصاعد التيار القومي الوحدوي بشكل ملفت للنظر، والتهب الشارع والمدرسة والجامعة تحدياً للحزب الشيوعي وجماهيره، حيث انحسر المد الأحمر -كما كان يسمى-. هزّت الإضرابات المتواصلة نظام الحكم، وأصبح الحزب قوياً في مواقعه في الجيش وبين صفوف الشعب. قامت السلطة بإجراء اعتقالات واسعة بين الطلبة. كان العنف والإيذاء مظهراً من مظاهر غضب السلطة وفشلها وبداية يأسها. استقبل السجن العسكري رقم واحد بعضاً من الطلاب المضربين، حيث امتلأت بهم مواقف الشرطة. حشرتنا إدارة السجن على شكل مجاميع بغرف السجن بعد أن كان كل واحد منا منزوياً في غرفته. كان هذا الإجراء لغرض استقبال أبطال الإضراب من الطلبة وغيرهم. حفل السجن بأعداد غفيرة من الشباب القومي الوحدوي، وباتت شعارات الحزب الشيوعي لا تعبر إلا عن آراء قيادته، مستغلين الحالة الاجتماعية البائسة لهذه الجماهير وطيبة قلوبهم وحسن نواياهم.

بات الشارع في بغداد وبعض المحافظات معبراً عن الاتجاه الجديد القديم، الاتجاه الوحدوي القومي. هذا هو حال الوضع السياسي المتحدي لنظام الحكم العسكري الدكتاتوري الذي لا يعبر عن الثورة وأهدافها وخروجه على الدستور المؤقت الذي أعلنته الثورة، كما تنكر الحكم للبيان الأول الذي جاءت به قيادة الثورة.

هكذا بدا الانحراف واضحاً على الصعيد الوطني، أما على الصعيد العربي، فقد شن العقيد المهدي حملة شعواء على رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبدالناصر. وفي ذات يوم صرح الزعيم عبدالكريم قاسم بأنه يؤيد كل حرف نطق به رئيس محكمة الشعب.

أصبح موقف النظام الجديد واضحاً لا غبار عليه، مستبدلاً في حكمه، معادياً لعبدالناصر الزعيم الذي ألهب حماس الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج. كان رائداً للقومية العربية. هذا ما كانت تؤمن به جماهير الشعب العربي في عموم الوطن. إن معاداة عبدالناصر من قبل النظام الجديد أثر كثيراً في النضال القومي الموحد وصعد من وتأثر النضال الجماهيري المتطلعة للوحدة والحرية. كان الوضع النفسي للجماهير في العراق متوتراً، وزاد في توتره قيام الحزب الشيوعي بتسيير قطار الشعب من بغداد إلى الموصل باسم أنصار السلام. أثار هذا التحدي ضباط الثورة ممن يعارض الأيديولوجية الشيوعية. أصبح الاصطدام محققاً بين الاتجاهين في الموصل، اتجه يقوده الشيوعيون ويدعمه عبدالكريم قاسم، وآخر مناوئاً له تيار قومي وحدوي وعلى رأسه من الضباط الأحرار العقيد الركن عبدالوهاب الشواف ورفاقه. حدث الاصطدام، أصابت شظايا المعركة الاتجاه القومي الموحد حتى الموت، فقتل من قتل، كما علقت جثث الشهداء على أعمدة الكهرباء، حتى النساء شملهم القتل والسحل، وأن جثة حفصة العمري المعلقة على أحد أعمدة الكهرباء كانت علماً ونبراساً للنضال القومي الموحد وشاهداً على وحشية مسيري قطار الموت (قطار السلام).

نصب الشيوعيون محكمة باسم محكمة الشعب في الموصل. لا علاقة لهذه المحكمة بالقضاء ولا بالجيش، ولا علاقة لأعضائها بثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨. أصدرت أحكاماً عشوائية بإعدام الأبرياء، كانت محكمة صورية عاجلة مجحفة، ونفذت الحكم بمن أرادوا إعدامه في الدملماجه بنفس اليوم، واستمر السحل والاعتداء على المواطنين حتى شمل قادة الجيش، فأرهبوا بحبال السحل المشرعة في الشوارع والدوائر والجيش. هذه الأجواء سعدت من حقد ونضال الجماهير، وأصبح الحكم والحزب الشيوعي في زاوية الاتهام وهدف رئيس من أهداف التيار القومي لإسقاطه.

كل هذه الأحداث تقاطرت على خاطري كشريط للأخبار، وأخذت أحلل وأستعرض وأنا متوسد حذائي الملفوف بسترتي في السجن الانفرادي. كانت أيام حادة تشتعل فيها نيران الصراع السياسي المغلف بيافاطة الاضطراع الأيديولوجي. إنها محنة الشعب العراقي، بل محنة الشعب العربي. وضاع موقف العراق في خضم الصراع المصطنع، هذا قدر العراق والأمة العربية، انقلب العراق العربي الودوي إلى عراق ممزق تنهش في قواه الوطنية ذئاب السوء والمزايدات.

لم يكن حكمي على الأحداث من خلال فكري القومي الوطني -وإن كنت مؤمناً بالتيار القومي-، بل أكتب هذه الصحائف بوحي وحرية وأمانة وصدق لأجنب الحركات السياسية مغبة الخطأ والانزلاق في دروب قاتلة تؤدي إلى نفق الضياع.

باتت أهداف العراق وأهداف الأمة العربية في خطر كبير، فضياع العراق يكمن باحتراب الشعب الواحد، إنها جريمة لا تغتفر، نحصد اليوم نتاج تلك المأسى. أحداث لها تاريخ كتب بنضال وعرق ودماء المناضلين الشرفاء. تاريخ مشرف، وستظل رايته شرف للأمة العربية وللعراق.

قصص وعضات:

منحني السجن فرصة، بل فرص ثمينة استذكرت بها أحداث تاريخية فيها كثير من العضات والعبر، ولما كانت المصالح تجمع المنتفعين، إلا أن الأناية والحقد والغيرة من طبائع البشر وإن اختلفت حدتها من شخص لآخر. تجارب الشعوب أعطت كثيراً من الحكم والأقوال العظيمة، كانت متشابهة عند الصين وعند العرب والإنكليز وغيرهم. نعم، الإنسان كيان متشابه، والفرق بين واحد وآخر تكوينه النفسي، وهذا التركيب تتفاعل فيه الجينات والبيئة، وكلاهما يعملان على خلق شخصية الإنسان ونفسيته.

تذكرت قصة قمبيز ملك الفرس وفعلته مع بروكراتيس ملك جزيرة أموز اليونانية وفرعون مصر أمازيز. عقد أمازيز معاهدة عدم اعتداء وصدقة ودفاع مشترك مع بروكراتيس ضد أطماع قمبيز، إن هذا الأخير أقنع بروكراتيس بالتعاون معه سراً وتأمراً على أمازيز. طلب اليوناني من أمازيز معاونته بحجة تعرضه لاعتداء من

قمبيز، فأرسل فرعون مصر أسطوله لمعاونة حليفه، فوقع في فخ التأمير، إذ نصب قمبيز كميناً لأسطوله وسيطر عليه بسهولة، ثم تابع انتصاره حتى قتل أماريز في قرية مصرية. بعد هذا الانتصار دعى قمبيز بروكراتيس إلى مقر قيادته. فاستجاب اليوناني للدعوة مع زوجته لإستلام هدية خيانتة من قمبيز ظناً منه أن هذا الأخير سيكرمه رداً لجميله. جاءت النتائج مخيبة لليوناني، فاعتقل، وعلق هو وزوجته على صارية باخرة قمبيز الراسية في بحر إيجه. وهكذا نال بروكراتيس جائزة خيانتة لأماريز. التاريخ يحفل بالكثير من الخيانات، ولكن سعيد من يتعظ بتجارب الآخرين.

قصة الخليفة العباسي المستعصم مع وزيره الأول مؤيد الدين ابن العلقمي، هذا الخائن الحاقد اللئيم سمح للتتر بقيادة هولالكو أن يدمروا حضارة وادي الرافدين وأذن بتعاونه قتل البغداديين بلا رحمة ودون شفقة... أتساءل وأنا أتوسد حذائي المغلف بسترتي في غرفة السجن جحود العلقمي وغدره. هذا الرجل الذي اعتمد عليه الخليفة تسبب في قتل الخليفة حتى داسته سنايك الخيل وسوي بالتراب بعد أن سمع الخليفة نصيحة وزيره ابن العلقمي وخرج مع وجهاء القوم لاستقبال الخان عسي أن يجنب بغداد وأهلها الدمار، وإذا الوقعة كانت فاجعة، فقتل الجميع، ودمرت حضارة وادي الرافدين بقسوة يذكرها التاريخ باشمئزاز ومرارة وألم. كان الله بالمرصاد لابن العلقمي، لقد حصد ما جنته يده، وذاق مرارة الموت دون أن ينتفع من خيانتة. صلبه الخان التتري وهو يعلم أن من يخون أهله وخليفته لابد أن تدفعه الخيانة إلى أكبر منها أو مثلها، لذلك التف حبل المشنقة حول رقبته. هكذا تداعت الصور في خاطري كلما مرّ حدث فيه لؤم وخيانة.

يقول الوردى: أن الخواجة نصير الدين الطوسي عاضد على سبي أهل بغداد، وسفكت دماء الشيعة والسنة. إن الطوسي أستاذ النشر وسلطان المحققين وأستاذ الحكماء والمتكلمين. أصله من طوس، وهي من توابع مدينة قم. أفتى الطوسي بأنه لا توجد موانع شرعية تحول دون إقامة الغزو.

مواقف وصراع:

الرفيق علي صالح السعدي رحمه الله أمين سر قيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الاشتراكي كان واضحاً في مواقفه وآرائه، يعبر عنها برجولة التأثر وعزيمة الشجعان. كان محبوباً جداً من قواعد الحزب ومن الجماهير بصورة عامة. اتصلت به مخبراً إياه بما واجهته بدعوة عشاء عند عم زوجتي بعيد ثورة ١٤ رمضان ١٩٦٣ قصصت عليه حكاية هذا الرجل معي، وكيف كان متحمساً عندما طالبني بإعدام أكبر عدد من الشيوعيين مادامت الثورة في بدايتها. كان يضرب بيده على ساقه كما تنوح النساء في ماتم. أثارني تصرف هذا الرجل واندحشت لحديثه وقلت في نفسي كل هذا النواح حرصاً على الثورة وخوفاً على الحزب وهو أبعد ما يكون عن الحزب وعقيدته وسياسته. ضحك الرفيق علي صالح السعدي وقال: أصدقني القول من هذا الرجل، وأين تضعه في التصنيف السياسي؟ قلت له: إنه من المحسوبين على النظام قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وأنه مدير مكتب الإعلام في لبنان. قال صدقت، لقد تدارسنا الموضوع في القيادة لأن الحديث وقع معي ومع بعض القياديين وهذه مؤامرة على الحزب لتثويبه سمعته وإسقاطه في الخطأ حتى يسهل الإجهاز عليه. قال: شكلنا لجنة من الرفيق هاني الفكيكي والرفيق محسن الشيخ راضي وبرئاستي (رئاسة الرفيق علي صالح السعدي) لدراسة ومسح موقف المعتقلين الشيوعيين وإطلاق سراح ممن لم تثبت عليه جرائم القتل والسحل، ويبقى العدد الآخر ممن ارتكب أفعالاً إجرامية في السجن. وفعلاً صدرت قائمة بإطلاق سراح خمسة آلاف معتقل. وهنا قامت قائمة اليمين المتطرف في قيادة الثورة والحزب واعتبر هذا الإجراء خروج عن أهداف الثورة، وفجر صراعاً داخل صفوف الحزب.

وموقف آخر مشهود للرفيق علي صالح السعدي حينما زرته ليلاً في مكتبه بوزارة الداخلية، قال: اتخذنا قراراً بإعادة كافة المبعدين الأكراد إلى ديارهم إن لم يكن أحدهم مطلوب بقضية جنائية.

عدت إلى دائرتي "الشرطة العامة" وأصدرت برقية بهذا المعنى نيابة عن وزير الداخلية. اتصل بي متصرف الديوانية فوزي جميل صائب وهو كردي ولي معرفة

شخصية به. قال لي إن البرقية صادرة عن الشرطة العامة ونحن مرتبطون بوزارة الداخلية ويصعب علينا تنفيذ ما جاء بها، فأرجو أن تؤكد وزارة الداخلية برقيتكم هذه. وفي نفس الليلة اتصلت بالرفيق علي صالح السعدي وأصدر برقية من وزارته لإطلاق سراح المبعدين الأكراد. قامت قيامة الخط اليميني المتشدد من العسكريين ثانية، وعلى رأسهم عبدالسلام محمد عارف رئيس الجمهورية، وطالب هو وبعض من أعضاء مجلس قيادة الثورة وقف هذه الإجراءات، واعتبروا هذا التصرف خارج عن حدود صلاحيات الحزب وهي من صلاحيات مجلس قيادة الثورة. زاد العداء للرفيق علي، وبدأ مناهضي سياسته يبرزون داخل الحزب والسلطة معاً.

وموقف ثالث للرفيق علي صالح السعدي، قرر رئيس الجمهورية عبدالسلام محمد عارف وبعضاً من المقربين معه في مجلس قيادة الثورة نقل السجناء والقياديين من الشيوعيين إلى سجن نكرة السلطان. أعد لنقلهم قطار شحن بضائع شاحناته من الحديد، كان ذلك في تموز عام ١٩٦٣ علم أمين سر القطر الرفيق علي صالح السعدي بهذا الإجراء -وعلى ما يبدو أن الأمر اتخذ دون علمه- فأسرع إلى محطة القطار محاولاً منع هذا الإجراء وطلب من عبدالسلام محمد عارف العزوف عنه، لكن الأمر نُفذ، وسار القطار رغماً عن الرفيق علي صالح السعدي إلى هدفه، وكاد السجناء يموتون من قسوة الحر لانعدام الهواء، وتناوبوا على استنشاق الهواء من فتحة صغيرة من باب الشاحنة.

وموقف رابع للرفيق علي صالح السعدي بعد ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ في العراق، حدثت في سوريا العروبة ثورة يقودها حزب البعث في ٨ آذار. أبرق الرفيق علي صالح السعدي لقيادة الثورة في سوريا جاء فيها: (اسحق حتى العظم). قامت الدنيا ولم تقعد بسبب ما ورد بالبرقية، واعتبر علي صالح السعدي رجل متطرف ومن اليسار المعادي لقوى اليمين، وادعى أعداؤه ومناوئيه أن ما جاء بالبرقية يعني تدميراً لاقتصاد البلد ويدفع بالجماهير إلى التطرف وأنها بداية تأجيج للصراع بين فئات المجتمع الواحد. كنت أسمع هذا من الرفاق وقد تأثر البعض بهذه الآراء المعادية للرفيق علي صالح السعدي.

بدأت ثورة الصراع تكبر، كما بدأ التكتل ضد الرفيق علي صالح السعدي يظهر

بوضوح، وقد شاهدت عبدالسلام عارف لا يعر أي اهتمام عند حضور الرفيق علي صالح السعدي في المناسبات الرسمية. أخذ عبدالسلام عارف تمتين علاقته مع حازم جواد وطالب شبيب.

ورد في مذكرات طالب شبيب عزل الرفيق علي صالح السعدي عن أمانة سر القطر، وأبعد عن وزارة الداخلية، وبقي عضواً في القيادة القطرية يجلس ساكناً لا يبدي رأياً وكأنه تلميذ في الابتدائية -على حد قول طالب شبيب-

استلم حازم جواد القيادة، وأصبحت العلاقات الحزبية شكلية وضعيفة تأخذ طابعاً تنظيمياً مهلهلاً. هكذا بدأت بدايات ضرب حزب البعث العربي الاشتراكي وتصفية قياداته والانفراد بالحكم من قبل زمرة اليمين المتطرف يقودهم رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف حتى ضاعت عروس الثورات في خضم التآمر، وانفرد عبدالسلام بالحكم، وكان عمله هذا جزءاً ما تفضل به عليه حزب البعث العربي الاشتراكي حين نصبوه رئيساً للجمهورية في ثورة قام بها الحزب وليس لعبدالسلام أي دور في هذه الأحداث.

أكتب هذه السطور للأجيال القادمة ليتبينوا الحقائق ويسيروا على صراط مستقيم تجنباً لمئات الألغام المزروعة في طريق النضال حتى يتعرفوا كيف ينقلب الصديق إلى عدو لدود في السياسة ويتمسكوا بالقول (اتق شر من أحسنت إليه).

الحرب العقائدية:

عام ١٩٥٨ وتلتها الأعوام ١٩٥٩، ١٩٦٠، ١٩٦١ و١٩٦٢ أعوام كان لها تاريخ بأحداثها وطروحاتها ونضالاتها وصداماتها. اتصفت هذه السنين بالحدة والتعصب الأعمى والتشنج العقائدي. أغرقت الشارع العراقي والجامعات العراقية ومدارسه وفلاحيه وعماله بصراع أفقد الناس والجماهير لقمة عيشهم. استعاض العاملون بالهتافات والشعارات والمظاهرات والحفلات والاستعراضات بدلاً من الإنتاج والعمل الجاد المطلوب. كنت يوم ذاك معاون شرطة الشالجية برتبة نقيب، وأثناء زيارة مدير السكك الحديدية العام صالح زكي قرأت عدة لوحات في مقدمة كل ورشة عليها زيادة نسبة الإنتاج ٩٩٪ زيادة عن العام الماضي، وكلما أمر على ورشة بصحبة المدير

العام أجد اللوحات تشير إلى نفس النسبة. ذهبت إلى مدراء الأقسام في اليوم التالي وتحدثت معهم عن صحة ارتفاع نسب الإنتاج وأنا على علم مؤكد أنها كذبة، بل العكس هو الصحيح. تدنى الإنتاج ٩٩٪ وليس هناك أي زيادة. وبعد الحديث أفصح مديرو الأقسام كلا على انفراد بأن النسب المذكورة خطها مسؤول الحزب الشيوعي قبل مجيء المدير العام بيوم واحد. حدث هذا عام ١٩٥٨

وعلى ذكر وظيفتي في الشالجية، كان الصراع الحزبي متشعباً بالعقائدية، وكان حاداً ومدمراً. تسارعت الأنباء بأن الشيوعيين سيهجمون على الكرخ لتأديب المواطنين غلاة الوحدة والعروبة على اعتبار سكان الكرخ في بغداد وسكان الأعظمية يؤر تأمرية ضد الثورة. استقرت الأخبار مشاعري القومية وانتمائي للكرخ محل ولادتي، ونشوء شبابي وتواجد أهلي وأقاربي. خططت وبلا حساب للمسؤولية بأن أهب لنجدة رجال ونساء وشباب الكرخ. اختطفت ثلاث رشاشات من مشجب المعاونة مع العتاد، واتفقت مع الأخ هاشم توفيق المختار بالتواجد يومياً في مقهى جامع عطا (مقهى عكيل) معنا الأسلحة موضوعة في صندوق سيارتي الخاصة. استمرت العملية يومياً، وكان عدنان الخلف وقلّة من الأصدقاء يقفون على مقربة من المقهى. كنت أرى مجاميع من النساء يتبرقعن بالعباءات السوداوات ويخفين سلاحاً تحتها.

بدأت أول ظاهرة احتكاك بين الفئتين يوم لطح الشباب الكرخي صورة الزعيم عبدالكريم بالقانزورات. هجم بعض ممن يحسب على التيار الشيوعي على منطقة سوق الجديد في الكرخ وإذا هم يصطدمون بجدار حديدي مع شبابه. وصلت إلينا المعلومات عندما كنت أجلس في المقهى، تهيأنا جميعاً لمواجهةهم، لكن هرب الشيوعيين دفع الله ما كان أعظم.

مرّت الأزمة بسلام، واختفت معها الأنباء الحادة المتشنجة واستعيض عنها بأنباء جديدة بأن المد الشيوعي أخذ بالانحسار وأنهم لن يخاطروا بالهجوم على الكرخ ثانية.

أرجعت السلاح للمشجب، وبدأت الأيام تسير بهدوء وروية، يومها كانت مشاعري الملتهبة تدعوني للدفاع عن عاصمة الدنيا الكرخ دون أي تفكير وبلا حساب للنتائج وأنا ضابط شرطة مسؤول عن الأمن. كان تعصباً أعمى، فالكرخ جزء من بغداد،

وبغداد عاصمة العراق، والدفاع عن هذه المنطقة تخيلتها في حينه دفاعاً عن العراق. هذا هو تفكير أغلبية من عرفتهم من جماهير الكرخ وأنا واحد منهم، إنه تعصب قومي لا إرادي. وعلى كل حال، كانت الحرب بين الطرفين القومي والشيوعي أقل حدة من الصراع العقائدي بين الكاثوليك والبروتستانت عام ١٧٠٢ يوم أصر الملك لويس الرابع عشر على أن لا يبقى ولا بروتستانتياً على أرض فرنسا حين قتل الهاكونوت القس الكاثوليكي الذي اختطف أربع رجال وامرأتين من الهاكونوت، واستمر تدفق دماء الأبرياء نتيجة هذا الصراع أعواماً طويلة، فالأمثلة كثيرة عن التعصب القومي والمذهبي، فالتاريخ يحفل بكثير من هذه الأمثلة.

أنا أشك أنها حرب عقائدية بالمعنى العقائدي، أنها حرب سياسية بين اتجاهين، الأول يقوده الاتجاه القومي العربي متجهاً نحو الوحدة العربية من خلال التقارب بين سوريا والجمهورية العربية المتحدة، والاتجاه الثاني كان مضاداً لهذا الاتجاه فاتشع بالعقائدية تستراً على هذه الحقيقة. على كل حال، انتهت الحرب، وخف الصراع بعد أن أصبح العراق تحت حكم فردي دكتاتوري ببزة عسكرية وقد تفرقت وحدة الأمة وانتفع أعداؤها حتى النخاع.

وللأسف الشديد لم يقرأ القادة العقائدين ما كتبه (باروخ سينوز)، قال: إن الغاية القصوى للدولة لا تتمثل في الهيمنة على الناس ولا في كبح جماحهم بالتخويف وإنما تتمثل في تحرير كل شخص من الخوف بحيث يعيش ويعمل في أمن تام دون أن يلحق بنفسه أو بجاره ضرراً.

إن الغاية القصوى للدولة هي الحرية. مثل هذه الأقوال غرزت في نفسي تفكيراً جامعاً نحو حرية الإنسان وضمان حقوقه. كنت أتمنى أن يكون للقياديين من القوة ما يكفي لحماية حقوق الشعب دون أن يكون لهم من القوة ما يهدد هذه الحقوق. فالأمة لا تعد متحضرة إلا إذا راعت الانسجام بين التقدم والسعادة. إن التطور اليوم تجاوز إدراك عقلية سواد الناس حتى تجاوز عقلية المتعلمين. إن محاربة الحرية باسم الغيرة عليها مأساة لا يقع فيها قائد حصيف. كانت القيادات تؤول هفوات المناضلين وتتجاوز وتتستر على جرائم الانتهازيين وهذا ما دأبت عليه الأحزاب المتصارعة. لا تصلح الحكمة والنصيحة مع حبال السحل والسيوف. لمن أقول؟ ومن يسمع؟ والله لم

أجد لصوتي صدى. كان أرسطو محققاً تماماً حيث قال الشيوخ أصلح للقيادات والشباب أصلح للطاعة. هنا في العراق، وفي هذه السنين قلبنا المعادلة رأساً على عقب. بسكوتنا سهلنا سيطرة الهياج الطفولي حتى سحلنا وسجنا عقلاء وأشرف القوم. هكذا كان العراق، هذا ما حدث أيام الحكم القاسمي ينشئ العنف السياسي إذا ما توفرت له شرطان: الأول، يتعلق بفشل الوسائل السلمية العقلانية لحل المشاكل الأساسية. والثاني، إذا ما اقتنع أحد الأطراف أو كليهما بقوته المفرطة سواء كانت هذه القوة حقيقية أو مجرد انفعالات صادرة عن غرور. إن كل طرف مقتنع بما يعتقد. هذه هي مأساة العراق، تربع على عرشها طغاة، ومأساة الشعب يحرق مصالحه وقيمة هذا النوع من الطغاة.

ذكريات السجن شريط طويل ضرب تفكيري حتى غلب عليه. تذكرت المرحوم طه الراوي أستاذي في كلية الشرطة وقصصه الممتعة عن الفلسفة الإغريقية وأمثله المبسطة. أعجبتني واستهوتني تعاليمه. كانت هذه بدايات قراعتي واطلاعي على بعض هذه الفلسفة. تذكرت أفلاطون وفلسفته، كانت تنصب على عمل الخير حيث قال: (إن الأصل ثابت لا يتغير وكل ما يتغير يتعلق بالجزئيات)، ولكننا أضعنا الأصل والجزئيات معاً.

إعدام الضباط الأحرار:

غطت سماء العراق غيمة سوداء قاتمة تنذر بالشؤم والويل والثبور. بعد مقتل المرحوم العقيد الركن عبدالوهاب الشواف، ويعيد غزو قطار السلام المزعوم والمشحون بكل من هب ودب ممن لا يحكم عقله ولا يستمع لضميره. هذا التحدي لأم الربيعين هز أهلها رجالاً ونساءً أربع الأطفال والنساء دون استثناء. وإذا الغمامة السوداء تأتي باعتقال الضباط الأحرار الذين قاموا وساهموا بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وإذا هم أمام محكمة المهداوي المسماة بمحكمة الشعب. انتقلت صور المحاكمة من رجال العهد الملكي إلى رجال الثورة. مثل أمام المحكمة العقيد رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي ومحمود شيت خطاب وعشرات آخرين اتهموا جميعاً بالتآمر. لا أريد أن أقتنع أو أقنع الآخرين بصحة وجود مؤامرة أو عدم وجودها، بل ما

كان يدعو للاستغراب والعجب أولئك النفر الكثير الذين رقصوا فرحاً بصدور أحكام الموت على الأشراف وكأنها حفلة عرس أقامها الزعيم عبدالكريم قاسم. كثير من العراقيين بكوا دماً على مأساة العراق وعلى فقد نخبة طموحة وكوكبة شجاعة دفنت تحت التراب والثورة لا تزال في بداية المسيرة وقريبة من خط الشروع. استمرت العاصفة تتلاطم في صدور العراقيين وتثير فيهم النخوة والشهامة للثأر. واستمر الإعصار الشعوبي يمعن في الإيذاء والسحل والقتل والاعتقال، وامتألت السجون والمعتقلات بالمناضلين الأبرياء المؤمنين بالأمة العربية ويقوميتها. كان سجن الدبابات الرهيب في معسكر الرشيد يشهد ليلياً حفلات التعذيب، تعذيب الضباط الأحرار بقسوة وانتزاع اعترافات كاذبة. كانت أياماً قاسية تقض مضاجع المجتمع العراقي وتؤرق نفوس الأمنين.

إن ملفات محكمة المهداوي تزخر بالعديد من المآسي والتزييف والشعوذة والخسة. ضم تراب أم الطبول رفات الشهداء جميعاً، أرواحهم تحوم حول سماء بغداد تنشد للوحدة الوطنية والقومية العربية نشيد الخلود. وبقي على الأرض من يتغنى بقصائد المديح تشيد بالزعيم عبدالكريم قاسم، حتى الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري أنشد قصيدة أذيعت من على تلفاز العراق جرح بها كرامة العراق عندما قال:

وضيقَ الحبل واشدد من خناقهم فربما كان في إرخائه ضررٌ

حتى هذا الشاعر الكبير دعى للموت والسحل والقتل.

كنت ممن يعجب بالشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، وحفظت بعضاً من شعره الجزل المبدع، كان حري بهذا الرجل أن يرتفع عن هرج الفوغاء وأن ينأى بنفسه عن الحماس المفتعل والهيّاج الطفولي.

ذرت قرون الخلاف بين الأطراف المتنافسة حتى وصلت حد الموت، وزاد الطين بلة أولئك المتعاشون على مأساة الأمة والشعب، لم يعد العراق كما كنت أراه قبل الثورة حيث الاتجاه القومي الوحدوي التائر الملتهب. كان معبراً عن إرادة الأمة وطموحاتها، لكن النتائج جاءت بما يخدم الأعداء ويحقق أهدافهم.

هذه المواقف الملتهية الشاذة والدخيلة على المجتمع العراقي دفعت عبدالكريم قاسم

إلى الانحراف حتى الهاوية. وأتت أكل هذه المواقف في الموصل الحذباء يوم سير الحزب الشيوعي بمعاونة النظام الجديد قطار أنصار السلام. عبئ القطار شباباً وشابات ليخرسوا الصوت الوطني القومي باعتبار الموصل مركزاً للتيار القومي الوجودي. نصبت المحكمة القضاية نفسها حاكماً مستبداً تحكم بالإعدام من تشاء وتسحل بحبال الرذيلة الأحياء من المواطنين الشرفاء يعلقون على أعمدة الكهرباء. كان كل من عبدالرحمن أمين وعدنان جلمران وساطع إسماعيل (أرجو أن لا تخونني الذاكرة بأسمائهم) أعضاء المحكمة القضاية عمقوا جراحي ونزف دمي حين عاونتني الذاكرة على تسجيل حدث جلل مرعب أدار دفة السفينة نحو الهاوية.

علقت المحكمة القضاية جثث أشرف الناس على أعمدة الكهرباء وفي سوق الدملماجة. سحل الشيخ نوري من شيوخ شمر عند زيارته الموصل من قبل عناصر الشر دون ذنب وبلا خطيئة. ساقته المنية لحتفه لكونه شيخاً من شيوخ شمر، هذا كل ما عنده. قُتل لأنه عربي يرتدي العباة والعقال. دفع الحزب الشيوعي ثمناً باهظاً بعد أن انحسر مدهم الأحمر وانكشفت الغمة عن بصر وبصيرة عبدالكريم قاسم وإذا قيادات الحزب الشيوعي تتساقط الواحدة تلو الأخرى مضرجين بدمائهم تلعنهم الجماهير بسبب الدمار الاجتماعي والنفسي والاقتصادي الذي خلفوه أيام حكمهم الأسود، فألى مزبلة التاريخ. بدأت تختفي شعاراتهم بعد أن غطت واجهات الدوائر ويافطات المظاهرات، ومن هذه الشعارات (الزعيم الأوحده) (ماكو زعيم إلا كريم) (حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي)، واختفت شعارات الثورة، شعارات العروبة والوحدة وغير ذلك. أخذ النظام الجديد منحاً سياسياً واضحاً وصريحاً معادٍ لعبدالناصر ويشتم من على منصة محكمة الشعب (محكمة المهداوي) كل مساء.

ذهبت في يوم من الأيام إلى مطعم تاجران ومعني زوجتي وأولادي لشراء ما أحجاجة، وإذا بثلاثة شباب بلباس عسكري وكل واحد منهم يحمل بيده سدارته. سحب أحدهم كرسي من مطعم تاجران واعتلاه وأخذ يشتم العروبة وكل من ينادي بالعروبة. أخذتني الحمية والشيمة، وأخذت أن أهجم عليه، لكن توسلات زوجتي أوقفنتي وتريثت وقالت: يا أبو ليث، والله يسطوك، يكفي هؤلاء المتشحين كذباً بلباس عسكري أن يتهموك بالبعثية، أرجوك أن تبتلع الشتيمة ل خاطر هؤلاء الأولاد. قبلت

النصيحة وابتلعت الإهانة، وخلا الجو لأعداء الأمة العربية وأعداء العراق في زمن الزعيم الأوحّد عبدالكريم قاسم، وفعلاً أصبح الأوحّد لأنه أعدم كل رفاقه ممن ساهم بالثورة أو ممن لم يساهم قبل الثورة. هذا هو هدف الثورة (هدف النظام الجديد). كانت شوارع بغداد قبل الثورة لا تعرف شعاراً إلا شعارات الوحدة والحرية، وكانت الجماهير تهتف للوحدة والحرية ولعبدالناصر.

في احتفالات الذكرى الأولى للثورة سارت الجماهير يمين بلياليها بدءاً من ساحة التحرير وانتهاءً بوزارة الدفاع قرب باب المعظم، وكان المتفرجون أضعاف المستعرضين. انقلبت الدنيا وانقلب العراق رأساً على عقب، صور جديدة معبرة عن مصير أسود ينتظر العراق. حصد أعداء الأمة ثمرة هذا التغيير، وضاعت أحلام الجماهير العربية في هوس رجال النظام الجديد والجماهير المغرر بها، وعمت الفوضى مرافق الدولة ومفاصل الإنتاج الزراعي والصناعي، وانهارت الحياة السياسية والاجتماعية (أيام جديدة تشرق على العراق).

هدوء الإعصار الأحمر:

خفت حدة غليان الأيام الحمراء، وهدأت نسبياً ثورة الغضب، وبدأ الناس يتنفسون الصعداء، وبدأ كبار ضباط الجيش يمارسون صلاحياتهم وسيطروا على مراكز نفوذهم، وأخذ القانون ينفذ بشكل تدريجي، ولم يعد لرجل الشارع القدرة على الاعتداء وسحل المواطنين، وأخذ القانون مجراه في المجتمع العراقي شيئاً فشيئاً.

في ظل الأجواء الجديدة أخذت تنظيمات قوى الأمن الداخلي بالتوسع حتى تجرأت على توزيع مناشير حزب البعث العربي الاشتراكي على المواطنين دون خوف وبلا تحفظ. أخذت تنقش ليالي الظلم والسحل والاعتداء والسباب الرخيص، وكان رد الفعل قوياً وعنيفاً في بعض المدن الرئيسية ويتصدون للقتلة والمجرمين، وبدأت الحياة تدور مع عقرب الساعة، وأخذت الاغتيالات تنهال على رؤوس شيوخ الشر والإيذاء، وبدأت ساحات الموصل وبغداد تشهد تلك الرؤوس تتدحرج على أرضية الشوارع وفي الساحات العامة. هذا جزء ما جنت أيديهم الآثمة. وشهدت الكاظمية قياديي الحزب الشيوعي يخرون صرعى على أرضها. أراد الزعيم عبدالكريم قاسم بسياسته

الجديدة الموازنة بين الخطين القومي والاقومي، وهذه الموازنة فسحت المجال أمام الاتجاه القومي الوحدوي أن يثأر لشهدهائه ومناضليه.

وفي سني ممارسة وظيفتي كمدير شرطة الكاظمية قتل البارزين من القيادات الشيوعية في الكاظمية. عملت جاداً لمعرفة القاتل، وكنت مخلصاً في تحرياتي، ولكني لم أوفق لأن حاكم التحقيق حسين مرزة لم يتعاون مع جهاز الشرطة فضاعت قضايا القتل بسبب انعدام الثقة ومناخ الشك والريبة بين جهازي التحقيق والشرطة والحاكم. اتهمني الحزب الشيوعي في إحدى نشراته بأحداث الاغتيالات. أقسم أنني لا علم لي بالفاعل الحقيقي ولم يكن لي ضلع بالحوادث هذه، وقد يكون اتجاهي الحزبي البعثي قاد الحزب الشيوعي لهذا الاستنتاج الخاطئ.

وعلى ذكر وجودي في الكاظمية كمدير شرطة، كانت قائممقامية المحمودية وناحية أبو غريب وناحية الطارمية تابعة للمديرية ذاتها. زار متصرف بغداد اللواء الركن عبدالوهاب شاكر القائممقامية في الكاظمية مبعوثاً من عبدالكريم قاسم كي يدرس إمكانية عودة المواكب الحسينية إلى ما كانت عليه سابقاً قبل منعها. وأرسل المتصرف في طلبي وقال: إن الزعيم عبدالكريم يستطلع رأيكما أنت والقائم مقام في إمكانية عودة المواكب الحسينية مع الحفاظ على الأمن. اعتذر القائممقام طاهر الحيدري مدعياً صعوبة السيطرة على الأمن بسبب الحشود الكبيرة المحتفلة بهذه المناسبة، وستكون المواكب الحسينية قوية وكبيرة وحاشدة كرد فعل للأيام الغابرة التي منعت بها المواكب وكرد فعل على الحزب الشيوعي. وتخوف القائممقام من استغلال الحزب الشيوعي هذه الحشود، لذلك اعتذر.

التفت المتصرف إليّ وقال: ما رأيك يا مدير الشرطة؟ فأجبت: أنا على أتم استعداد للمحافظة على الأمن، ولا مانع لدي من تنظيم المواكب الحسينية. استغرب المتصرف من رأيي لتناقضه مع رأي القائممقام، فرد عليّ بعصية قال: إن الزعيم عبدالكريم سيوقع عقوبة الإعدام إذا ما جاءت النتائج على غير ما تدعي، وهل عندك استعداد للتوقيع على التزامك؟ فقلت له وبدون تردد: نعم، إن رقبتي سداة، وإني أتعهد بالمحافظة على الأمن.

حمل المتصرف رأيي ورأي السيد طاهر الحيدري إلى الزعيم عبدالكريم قاسم،

وجاءت الموافقة على تسيير المواكب. أرسلت في طلب رؤساء المواكب حسب التنظيم القديم قبل المنع وأبلغتهم بما جرى من حديث مع المتصرف وقلت: والله قبل أن أُعَدَم سأعدمكم جميعاً إذا فلت زمام الأمن. أخذت من الجميع تعهداً بالمحافظة على الأمن والالتزام التام بنظام المواكب وأن لا يسمح لأي فئة بالاندساس والإساءة إلى حرمة المناسبة وشرف العزاء.

بدأت المواكب تسيير سيراً حسناً، وألزمتُ نفسي ليل نهار بالحفاظ على استتباب الأمن وسارت الأمور على مجراها الطبيعي إلا في اليوم السابع من محرم، فقد استغل الحزب الشيوعي أحد المواكب واندس بينهم ودفع بعضاً من أتباعه مرددين شعارات سياسية لا علاقة لها بالعزاء. كنت ملازماً الحرم الشريف في صحن الكاظمية، ولم يكن لديّ إلا مئة شرطي احتياط لمعاونتي يقودهم معاون ثابت المختار. هجمت كوكبة من الشرطة بقيادتي، وتمكنت من هزيمة أعوان الحزب الشيوعي بالقوة، وباعوا بالفشل. عادت المواكب إلى وضعها الطبيعي، وبها كسبتُ رضا المسؤولين بما فيهم الزعيم عبدالكريم قاسم. كانت العودة إلى مواكب التعازي في أيام عاشوراء ترمي إلى موقف سياسي، هذا ما قصده النظام رداً على شعارات الحزب الشيوعي العراقي المتطرفة، وأن الدين في العراق لازال يلعب دوراً حاسماً في قناعة العراقيين وأصولهم المذهبية. ولم يكن أمام الزعيم عبدالكريم قاسم إلا إنكفاء المشاعر الدينية ليطمئن له الموازنة بين القوى السياسية الفاعلة في الساحة العراقية والتصدي لأفكار الحزب الشيوعي وإجهاض طروحاته الوافدة.

عروس الثورات:

٨ شباط عام ١٩٦٣، أيقظني رفاقي في السجن وعلامات الاضطراب باقية على وجوههم باستثناء الرفاق عزيز السامرائي وفؤاد طه الأحمد وداود الطبقجلي، وأنبتت بالخبر. المعلومات الأولية تشير إلى هتافات القاعة المجاورة لغرفتنا المخصصة للشيوعيين، ظن الرفاق أنها ثورة معادية لحزب البعث. لمست جدية في حديثهم، نهضت ولبست ملابسني وقلت لهم: احزموا عفشكم وأموركم فإنها والله ثورة حزب البعث العربي الاشتراكي. مضت ساعة أو أكثر، فإذا بثلاث دبابات تدخل السجن،

ونزل منها الرفيق محي مرهون يصرخ بأعلى صوته منادياً الرفيق علي صالح السعدي، الرفيق صالح مهدي عماش، الرفيق أحمد أمين. ظل ينادي ونحن نجيبه، وتابع الصوت، وكسر باب غرفة السجن، وخرجنا جميعاً. ساد السجن هرجاً وفوضى، وخرج جميع السجناء البعثيين ومن حُسب على التيار القومي الوجودي. اتجهت منفرداً إلى مديرية شرطة الكرادة الشرقية، قابلت المدير محمود السامرائي وكان مهتماً وفرحاً بالثورة وقال لي: إن سيارة الدورية ستخرج الآن لحماية الأمن ومراقبة المنطقة، وستأخذك الدورية إلى باب المعظم، ومن هناك رتب بقية الطريق وصولاً لدارك.

وصلت بسيارة ثانية إلى الأعظمية حيث كان سكن عائلتي في محلة السفينة بؤرة التيار القومي الوجودي. سمعت أمر تعييني مديراً للشرطة العامة من الراديو. بعد صدور النبأ زارني الرفيق قحطان حمد العزاوي فرحاً ومهلهلاً وقال: توكل يا أبو ليث على الله لاستلام وظيفتك الجديدة. دفعني وشجعني حماس الرفيق قحطان حمد العزاوي، ولبست ملابس العسكري، وركبنا سيارة صغيرة متواضعة عائدة للرفيق قحطان العزاوي. اتجهنا إلى مديرية الشرطة العامة، وكانت القوات المسلحة تطبق على وزارة الدفاع، وأغلقت جميع الشوارع الجانبية والرئيسية، ومنع التجوال فيها. اتجهنا إلى ساحة الميدان من شارع الكفاح لنجد منفذاً إلى مديرية الشرطة العامة، وفعلاً نجحنا بعد أن عرّفت قواتنا المسلحة بهويتي.

دخلت مديرية الشرطة العامة دون أي مقاومة، فوجدت مدير الشرطة العام ناظم رشيد ومعه العقيد نشث البكري. استقبلني الرجل بالترحاب، وبارك لي نجاح الثورة. وبعد دقائق، استأذن بالانصراف إلى داره وطلب السيارة الرسمية المخصصة لإيصاله إلى داره سليماً معافى. وبعد مدة من الزمن علمت باعتقاله من قبل الحرس القومي المتواجد بكثافة في النادي الأولي في الأعظمية، ولم يكن لي أي دخل في اعتقاله لأن مواقفه كانت معاكسة للحزب الشيوعي.

أصدرت أوامري بتعيين ضباط الشرطة الكفوئين إلى المناصب الأساسية، وأذيعت يومها من الراديو، ونفذ الجميع الأوامر. أصدرت أمراً آخر لمقاومة المظاهرات التي أمر بها الحزب الشيوعي.

قامت النجدة بدور بارز، حيث سيطر رفاق الحزب على هذه المديرية. قبل حدوث ثورة ٨ شباط كانت شرطة النجدة مغلقة لحزب البعث العربي الاشتراكي بفضل الرفيق عزيز حميد السامرائي. سارت الأمور على ما يرام رغم صعوبة الموقف إلاّ حادثة واحدة أزعجتني. تلك الحادثة اعتقل فيها الرفيق عامر المختار من قبل مظاهرة مؤيدة للحزب الشيوعي كانت متجهة إلى بغداد من الكاظمية من جانب الكرخ. اتصلت بشرطة النجدة، وكان المجيب جمال الطائي، وطلبت منه إنقاذ الرفيق عامر المختار. اعتذر لعدم وجود قوة احتياطية لديه، وأن جميع السيارات في الواجب، ورفض توجيه السيارات العاملة لإنقاذ رفيقه. اتصلت بالإذاعة، ورد عليّ الرفيق ذياب العلكاوي وأخبرته بالخبر، وأضفت بأن قائممقامية الكاظمية سقطت بيد الشيوعيين، ووعدني خيراً. أرسلت قوة عسكرية كبيرة من الدبابات يقودها العقيد الركن خالد الهاشمي، وهو رفيق بعثي بارز. سيطرت القوة على الموقف تماماً وأنقذ الرفيق عامر المختار وأكمل رحلته إلى الشرطة العامة كما بدأها أولاً قبل اعتقاله. تم لي اعتقال العناصر النشطة في المظاهرة، كما اعتقل السيد طاهر الحيدري قائممقام الكاظمية، وكان يومها يتعاطف مع المتظاهرين. وفي اليوم الثاني وما تلاه، استمرت الأوامر الصادرة من الشرطة العامة باعتقال مدراء الشرطة المشكوك في ولائهم وممن لا قدرة لهم للسيطرة على الموقف. ففي كربلاء خرجت مظاهرات معادية للثورة، وكذلك في الكوت. تمكنت المظاهرة في الكوت من كسر باب السجن، وخرج السجناء إلى الشارع تأييداً للمظاهرات، وبات الموقف خطراً. أصدرت أمراً باعتقال مدير شرطة كربلاء ومدير شرطة الكوت، وطلبت من نائبيهما استلام المديرية والضرب بيد من حديد على كل من يسيء للأمن ويقلق راحة المواطنين.

سيطرنا على الموقف تماماً، وكذلك في بغداد، بعد أن طلبت من قائد الكتيبة الرفيق سعدون غيدان مكافحة الشغب والمظاهرات في باب الشيخ. وفعلاً نفذ الرجل ما اتفقنا عليه. كما اعتقل بعض الضباط الموالين للحزب الشيوعي وكان منهم العقيد الركن مجيد الحصان، كما تم اعتقال وزراء عبدالكريم قاسم، وكان دور الشرطة بارزاً ونشطاً في تنفيذ أوامر الاعتقال والسيطرة على الشارع بعد أن زج الحزب

الشيوعي بجماهيره لمقاومة الثورة. حدثت بعض الأعمال التخريبية كحرق مضخة بنزين أو الاعتداء على دوائر الدولة وغير ذلك من أعمال التخريب الشائنة.

كانت الأيام الأولى من الثورة عام ١٩٦٣ عروس الثورات - كما سماها الرئيس أحمد حسن البكر - أياماً خالدة لها تاريخ مشرف، إذ أعادت للعراق وشعبه وجهه القومي الوحدوي العربي، وعاد الشارع العراقي يتغنى بأناشيد قومية وحدوية بعد أن حرم منها ما يقارب الخمس سنوات.

في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ شارك حزب البعث العربي الاشتراكي مع بقية الأحزاب بتشكيل الوزارة الأولى للثورة بإستثناء الحزب الشيوعي. كانت تشكيلة الوزارة الأولى معبرة عن البيان الأول للثورة روحاً ومعناً، لكن انفراد عبدالكريم قاسم واستحواذه على السلطة تدريجياً بمعونة الحزب الشيوعي والخارجين على قيادة الحزب الوطني الديمقراطي مثل السيد محمد حديد واهديب الحاج احمود عقّد الموقف كثيراً وشجع الصراع السياسي بدلاً من وحدته.

قبرت ثورة تموز عام ١٩٥٨ بيد رجال ثورة شباط عام ١٩٦٣ إلى الأبد. واعتقل قادة الحزب الشيوعي جميعهم وكذلك كوادرهم الوسطية وبعض القواعد الناشطة. استتب الأمر للثورة تماماً بعد أن اعتقل الجيش الزعيم عبدالكريم قاسم والعقيد فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب (الشغب) والعميد طه الشيخ أحمد مدير الخطط العسكرية وكان ممثلاً للحزب الشيوعي في وزارة الدفاع، وصدر حكم الإعدام بحقهم جميعاً ونفذ في نفس اليوم وفي دار الإذاعة العراقية في بغداد. وبعد أيام قُتل المقدم محمد أمين المدعي العام لمحكمة الشعب بعد مقاومة في الصويرة - وهو من أبنائها-.

مقابلة الرئيس أحمد حسن البكر:

استدعاني رئيس وزراء الثورة أحمد حسن البكر إلى مكتبه بعد أسبوع من قيام ثورة ٨ شباط عام ١٩٦٣، قدمت له التحية العسكرية وتعانقنا بحرارة شديدة، وبعد دقائق قال ضاحكاً: (هاجمت بغداد ثلاث فرق عسكرية حتى تمت السيطرة على الموقف، وكيف أنتم الشرطة تريدون السيطرة على بغداد بمفردكم). أجبتته ضاحكاً:

سيدي، أنتم هجمتم على الزعيم عبدالكريم قاسم وهو حي، بينما خطة قوى الأمن الداخلي تقوم أولاً باغتيال الزعيم عبدالكريم، وهذا فرق شاسع وبون كبير بين الخطتين. حمدنا الله على نجاح الثورة، واستمرت علاقتي بالرئيس أحمد حسن البكر تقوى وتحسن. قوي عودها وتوثق حين كشفت مؤامرة يقودها بعض الضباط لصالح عبدالسلام عارف رئيس الجمهورية وبمعاونة طاهر يحيى. اتصل بي أحد ضباط خلية التآمر وقدم لي تقريراً مفصلاً عن الاجتماعات وأسماء الضباط ورئيس خليتهم حاتم الياسين. أبلغت الرئيس بالأمر وطلب مني كتابة (تقريراً مختصراً) وأنا في غرفة استراحتي في ديوان الرئاسة في باب المعظم (الديوان الملكي سابقاً).

سمع الرئيس صوت عبدالسلام عارف وهو يصرخ (وينك يا أحمد)، خرج عليهما وقال لي: أبو ليث، ضع التقرير تحت وسادتي وأنا سأجلبهم إلى مكنتي واذهب إلى حيث تشاء. أبلغني الضابط الذي وشى لي بالتآمر بأنه لم يبلغ بالاجتماع ثانية، وإن عقد الحلقة قد انفرد، وبعد الاتصال برفاقه علم بأن الاجتماعات كانت مستمرة، وأبلغت الرئيس البكر بذلك. بقيت حلقة التآمر تكبر وتتطور إلى أن جاء ١٨ تشرين عام ١٩٦٣ حيث اعتقلت قيادة حزب البعث (جماعة علي صالح السعدي) وسفروا خارج القطر بقوة السلاح.

المؤتمر الاستثنائي:

عقد مؤتمر استثنائي باسم الحزب، وكان الرفيق هاني الفكيكي يقود المؤتمر، وجلس على يمينه الرفيق علي صالح السعدي والرفيق حازم جواد على يساره. اقتحم بعض الضباط قاعة المؤتمر منهم حميد عبل وعلي عريم وصلاح الطبقجلي ومحي محمود وأنزلوا قادة المؤتمر، واعتلى المنصة السيد طاهر يحيى وبعض البعثيين المتواطئين معه. أصدروا قراراً بتشكيل قيادة قطرية جديدة للحزب. ثارت قواعد الحزب ونزلت مسلحة إلى الشارع تهتف بحياة علي صالح السعدي ورفاقه ونددوا بالقيادة الجديدة المتآمرة رافضة تنفيذ أي قرار يصدر عنها. أمسكت بزمام الأمور، وسيطرت على مبنى الإذاعة وعلى بعض الدوائر المهمة ومراكز الشرطة.

عرض مهم جداً:

زارني عباس بغدادي في مكنتي بمديرية الشرطة العامة، فاتحني بعرض مهم وحساس يمس مصلحة العراق والثورة -كما يدعي-، فتحت له قلبي صاغياً لأستمع لهذا الأمر المهم. قال: لقد فشل الزعيم عبدالكريم قاسم بمباحثاته مع شركات النفط رغم طول المباحثات بين الطرفين. واستطرد قائلاً: اتصل بي السيد نديم الباجه جي وهو رجل معروف في الوسط النفطي الدولي كخبير له باع طويل في هذا المضمار. أراد أن يخدم وطنه العراق. يعمل الآن في ليبيا وهو موضع ثقة شركات النفط العاملة في العراق. أردف عباس بغدادي قائلاً: على الثورة أن تستثمر هذه العلاقة وتستفيد من الباجه جي وتفتح حواراً جديداً مع الشركات النفطية، ولديها من العروض ما يحقق مصلحة العراق والثورة معاً. وسألني: هل لديك الإمكانيّة والقدرة لمفاتيح السيد رئيس الوزراء البكر لقبول فكرة العرض هذه؟ وافقت على هذا الطرح، ووعدته خيراً. وفي اليوم التالي وجدت عباس بغدادي قد سبقني بالحضور إلى مكنتي مبكراً، دخل عليّ وقال: ماذا فعلت؟ وأين وصلت مهمتك؟ أجبتة: أعطني فرصة، ونحن الآن في بداية الدوام الرسمي، ومثل هذا العرض يحتاج إلى عناية ووقت كافٍ حتى نصل إلى نتيجة مرضية. رد عليّ قائلاً: لا داعي للاستمرار بالمهمة، وأرجو اعتبار الموضوع منتهياً لأن عبدالرحمن عارف أخذ المهمة على عاتقه وفتح أخيه رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف وعلي ما يبدو أخذت الأمور مجرى آخر. شكرني وانصرف.

لم أبلغ السيد أحمد حسن البكر بالموضوع لحساسيته، وفضلت أن تجري الأمور كما رسم لها من قبل الآخرين كي أجنب القيادة شر الصراع. فسرت مفاتيح عباس بغدادي لي رداً للجميل الذي قمت به عندما طلبت من رئيس الوزراء تعيينه.

التأمر على قيادة الحزب:

قبل انعقاد المؤتمر القطري الاستثنائي لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي جاء بقيادة جديدة يرأسها طاهر يحيى بعد أن طرد بعض أعضاء القيادة القطرية السابقة وبصورة خاصة الرفيق المناضل علي صالح السعدي ورفاقه. علمت من مصادر ثقة

أن تعديلاً وزارياً جديداً سيصدر يستهدف الرفيق علي صالح السعدي عند انتهاء الدوام الرسمي في طريقي للبيت. زرت الرفيق علي وأخبرته بالأمر وقال: نعم، أنا أعلم، وليس الأمر يتعلق بي، وأن التعديل سيشمل أشخاصاً آخرين. وبعد يوم صدر تعديلاً وزارياً شمل الرفيق علي صالح السعدي وأخرج من وزارة الداخلية إلى وزارة الإرشاد، ونصب الرفيق حازم جواد وزيراً للداخلية بدلاً عنه.

أرسل رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف طالباً مقابلتي، ذهبت إليه، وكان الرفيق حازم جواد في الغرفة المجاورة لرئيس الجمهورية. أدخلني الرفيق حازم جواد على رئيس الجمهورية. وبعد التحية العسكرية، فاتحني الرئيس عبدالسلام عارف بأن الأمور مع قادة حزب البعث الحالية لا يمكن الاستمرار معها، وأن الموقف العربي والدولي لا يسمح بذلك، وانتقد تصرفات القيادة وهبوطها لمستوى رجل الشارع وخص بالذكر الرفيق علي صالح السعدي بالذات. قال لي: إن أخوك الدكتور علي أمين صديقي، وأبوك صديق أبويه، ونحن من محلة واحدة، وما عليك إلا أن تكون معنا، فنحن قررنا نفي علي صالح السعدي وبعضاً من قيادة الحزب إلى خارج العراق. أحبته باسماء: والله يا أبو أحمد كما ترى، أنا بعثي وملتزم بقيادة الحزب، وخلقى وقيمي لا تسمح بالانقلاب على الحزب وقيادته بحجة (منصب أعلى)، وكما تعلم أنا لا أستحق هذه الرتبة التي أحملها (فريق ومدير عام) إلا بسبب كوني حزبياً ملتزماً، فأرجو المعذرة. ضحك عبدالسلام عارف وقال: والله أريد أمتحن حزبيتك والتزامك. بارك الله فيك. كن عند حسن ظن الحزب وقيادته.

خرجت من عنده وأنا مقتنع تماماً وبشكل مؤكد أن هناك مؤامرة تستهدف الرفيق علي صالح السعدي ورفاقه. وبنفس اليوم ومن لحظة خروجي من الاجتماع مع عبدالسلام عارف ذهبت ظهراً إلى علي صالح السعدي في بيته في المنصور وأخبرته بتفاصيل ما جرى من حديث بيني وبين رئيس الجمهورية.

سكت الرفيق علي دون أن أقرأ في ملامح وجهه رد فعل للخبر، قلت: أنا مستعد لوضع خطة ناجحة لمواجهة التآمر إذا كان لك رغبة في ذلك. لم يوافق الرفيق علي صالح السعدي على اقتراحي، ورجاني أن أذهب وأترك معالجة الأمر له.

قامت الدنيا ولم تقعد عندما أثار الرفيق علي صالح السعدي الموضوع في مجلس

قيادة الثورة، هاجع عبدالسلام عارف غاضباً وقال: هناك مؤامرة يحيكها أحمد أمين وعلي صالح السعدي وهذه استقالتي وأنا ذاهب إلى البيت ولن أزال عملي كرئيس للجمهورية. هداً من روعه طاهر يحيى ولكن دون جدوى.

ذهب عبدالسلام عارف إلى داره غاضباً منفعلاً، وبعد عدة أيام اتصلت تلفونياً بالرئيس أحمد حسن البكر وكان يومها رئيس وزراء وقال لي: يا أبو ليث (هاي اشسويت). فاجأني بهذا القول دون أن يدور بخليدي استقالة عبدالسلام عارف وغضبه وانزعاجه. قص علي أحمد حسن البكر ما جرى وقال لي: أنت السبب في كل هذا.

زارني الرفيقان هاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي صباحاً في منزلي وقالوا: (شكو عندك وية عبدالسلام عارف). فأجبت بسخرية: والله ما أريد أصير رئيس جمهورية. وضحكت، وتواصلت بالحديث، وعرضت عليهما ما سمعته من عبدالسلام عارف مؤكداً صحة المؤامرة، وحذرتة ورفيقه من مغبة السكوت، لأن الانفجار قادم وأكد. وفعلاً انفجر الموقف في المؤتمر القطري الاستثنائي، ودفع الرفيقان هاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي ثمناً للتراخي والسكوت، ونفياً مع قائد الحزب وأمين سره الرفيق المناضل علي صالح السعدي -رحمة الله عليه وأسكنه فسيح جناته- إلى خارج العراق (أسبانيا).

اعتبرت هذه المواقف التي وقفتها بصلاية وإخلاص ووفاء للحزب جعلني من أنصار خط الرفيق علي صالح السعدي، وهذا ليس بمستغرب، فالأمر طبيعي، لأنني ملتزم بالحزب وبقيادته الشرعية، وأن الخروج عن القيادة الشرعية يعني التآمر على الحزب ويترتب على ذلك عقوبة جزائية وفقاً للنظام الداخلي لحزب البعث. ولكن الغريب في الأمر، أصبح الاستثناء هو الصحيح، والخروج على القيادة أمراً لا يعاقب عليه وأمرًا مطلوباً.

في سوريا:

قررت الحكومة العراقية إرسال وفد من وزارة الداخلية إلى سوريا. تكون الوفد من علاء البكري مدير الداخلية ويحيى ياسين محافظ بغداد وحسين الصافي محافظ

الديوانية وأنور ثامر معاون مدير الأمن العام ومحمود الطو من الأمن العامة ودرع السعد من الداخلية وآخرون. كان بودي أن أسافر إلى سوريا مع الوفد. قابلت وزير الداخلية حازم جواد وأعربت له عن رغبتني بالسفر مع الوفد. طلب مني البقاء، وأنه مستعد لإرسالني إلى أي مكان أرغب فيه للراحة والاستجمام، وهو العذر الذي قدمته له. وكان إصراري على السفر مثار تساؤل حازم جواد واستغرابه. لست أدري لم هذا الإصرار والعزم على السفر. تأتيني كثيراً من الإلهامات في أمور خطيرة وجادة، أتخذ فيها قراراً حازماً دون تفكير أو تحليل. أخيراً، اضطر الوزير على الموافقة، شكرته وهيأت نفسي للسفر. قبل السفر بيوم واحد اتصل بي مدير الشرطة يونس السامرائي ورجاني أن لا أسافر، وقال لي بالحرف الواحد: أن الحاكم العسكري العام رشيد مصلح يفضل بقاءك، وإلا ستفصل من الوظيفة. نهرته بشدة -لأنه كان مساعدي في مديرية الشرطة العامة- وقلت له: والله سأسافر وليكن ما يكن.

اصطحبت معي عامر المختار مدير المكتب وسافرت. عبرت بنا الطائرة الأجواء العراقية ودخلت الأجواء السورية وحطت في مطار دمشق الدولي. اعتلى سلم الطائرة مقدم وقال: سيادة الفريق أحمد أمين يتفضل لتفتيش الحرس. حشر علاء البكري نفسه معي عنوة وانتهت مراسيم الاستقبال وذهبت بنا السيارة إلى الفندق المعد للضيوف. رافقنا الأستاذ نور الدين الأتاسي نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية وتحدث معنا بأمر شخصية وعامة.

وبعد يومين، وفي الساعة الواحدة ليلاً، دق باب غرفتي علاء البكري وكان معه حسين الصافي. قال لي: إن السيد نور الدين الأتاسي في بهو الفندق أرسل في طلبك. نزلت معهم وسلمت على السيد الأتاسي وقال: إن القيادة العامة تحب أن تجتمع معك. ركبت السيارة وإذا بعلاء البكري وحسين الصافي يدخلون السيارة فضولياً وذهبنا جميعاً إلى القيادة العامة. استقبلنا اللواء محمد عمران في مكتبه في القيادة العامة وسألني عن الأوضاع في بغداد. شرحت له الموقف وقلت له: أن مؤامرة تحاك ضد الحزب، وأن حدثاً مهماً سيقع قريباً جداً. استمع لأقوالي بعمق وتفكير، وكانت عيناه تلمعان حادثان. أسكت يحيى ياسين عندما أراد التحدث بشيء خلاف ما كنت أعتقد به. قال اللواء عمران: نعم، وصلت من بغداد برفقة تشير إلى

اعتقال بعضاً من قيادة حزب البعث ونفوا خارج القطر وشكلت قيادة جديدة وكان طاهر يحيى بطل العملية. وأكمل قوله: استلمنا برقية ثانية تشير إلى نزول الحرس القومي بسلاحه إلى الشوارع وسيطر على الإذاعة وانسحبت القيادة القطرية الجديدة إلى وزارة الدفاع في بغداد، وقال: لقد صدقت نبوءتك عندما أفتيت للرفيق ميشيل عفلق برأيك. قلت للرفيق ميشيل عفلق -بحضور كامل الوفد ومرافقنا نور الدين الأتاسي بعدما تحدث بعض أعضاء الوفد- بأن الأمور في بغداد طبيعية، وأن الحزب مسيطر تماماً على الموقف. تحدثت بصراحة، وقلت للرفيق عفلق: أن بغداد ستشهد مؤامرة خطيرة على الحزب، وسوف نسمع خبر الانقلاب ونحن في دمشق -لا سامح الله-. رد عليّ عفلق قائلاً: يبدو أنك متشائم، وأن الأخبار تصلنا يوماً بيوم، وأن الأمور تسير في صالح حزب البعث العربي الاشتراكي.

خرجنا من عند الرفيق عفلق وقلت للأتاسي: أستاذ هذا الرجل يجب أن يكرم - وأعني بالأستاذ ميشيل عفلق-. قال: كيف؟ قلت: نضعه في مكتبة كبيرة، ونسمح له بإطالة لحيته ونطلق عليه فيلسوف الحزب، هذا أفضل تكريم له. ضحك الأتاسي وقال لي: لماذا جئت بهذا التصور؟ قلت: إن قيادة الأمة العربية بحاجة إلى رجل قوي ممارس قادر على إدارة دفة الحكم لأن آراءه عن بغداد رغم وجود التآمر الذي أشرت إليه يعتقد أن الأمور تسير سيراً حسناً، ولست أدري فعلاً كان يعني أن التغيير قادم في صالح تفكير الأستاذ ميشيل عفلق.

هذا الحديث أعجب اللواء محمد عمران والأستاذ نور الدين الأتاسي، لذا أرسلت القيادة بطلبي لأن كل ما قلته تحقق وأنا في دمشق العروبة وقلبيها النابض. قال اللواء عمران: ما رأيك بعد أن سمعت الأخبار على حقيقتها؟ قلت: لن أبقى هنا، وعليّ أن أعود إلى بغداد لأشارك رفاقي محنتهم وأعاون ما أمكن تقديمه حتى تستتب الأمور وينجلي الموقف. رد قائلاً: أخاف عليك من الاعتقال. كان الرفيق حسين الصافي يفضل بقاء الوفد ونستكمل الضيافة. رفضت الاقتراح بشدة وقلت للجميع: أنا مصر على العودة ولكم خيار البقاء.

اقترحت إرسال الرفيق درع السعد إلى بغداد لوحده لاستطلاع الأمر، وطلبنا منه الإبراق بتفاصيل الأحداث. كان الرفيق السعد مناظلاً صلب العود، ثابت الجنان،

متمسك برأيه، وقد تجاوب معي تماماً.

توجه الرفيق السعد إلى بغداد، واستلمنا برقية تشير إلى سيطرة حزب البعث على الشارع وعلى الإذاعة، وأن علي صالح السعدي وهاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي سفروا إلى خارج القطر نفيًا، وأن القيادة القطرية الجديدة انسحبت إلى وزارة الدفاع.

بعد يومين، قابلت اللواء عمران بحضور نور الدين الأتاسي، وأوصاني بالاتفاق مع من أعتد عليهم من الرفاق البعثيين باعتقال عبدالسلام عارف وحردان التكريتي وظاهر يحيى ورشيد مصلح وإرسالهم بنفس الطائرة التي ستقلني والوفد المرافق إلى بغداد.

وصية القيادة السورية:

بعد وصولي إلى بغداد، حاولت الاتصال بالسيد رئيس الوزراء أحمد حسن البكر في مكتبه، فلم أجد جواباً. اتصلت بالرفيق صالح مهدي عمّاش بوزارة الدفاع وقلت له: لا بد من مقابلتك. اعتذر مني. وكررت الاتصال به ثانية ورجاني أن لا أقوم بأي عمل. واتصلت به الثالثة، ورد السيد طاهر يحيى، ورابعة، جاعني الرد من السيد حردان التكريتي، وقلت للثنتين: إن الأمور مستتبة، وطلبت منهم العودة إلى مكاتبهم لتغطية ما أنوي عمله، ولا مانع من انسحاب الحرس القومي كحل أولي.

لم أجد سبباً أفضل مما أفضيت به لهم لأن توصية الرفاق القادة السوريين غير ذلك ويعني الاتصال بالسيد رئيس الوزراء أحمد حسن البكر أو الرفيق وزير الدفاع صالح مهدي عمّاش وأمر باعتقال الآخرين ممن ناهضوا قيادة الحزب الشرعية. اتصلت بخالد مكي الهاشمي وقلت له بصراحة: كانت ثقتي به منذ أن كلفني السيد أحمد حسن البكر بالتنسيق معه يوم اكتشفت تنظيمًا لبعض الضباط ضد الحزب. قلت للرفيق الهاشمي: يجب أن أتصل بالرفيق صالح مهدي عمّاش ولدي رسالة شفهوية أريد إبلاغه بها لأهميتها. قال: سأتصل بك. وبعد قليل اتصل بي الرفيق خالد الهاشمي وقال: سيأتيك مبعوث من الرفيق صالح مهدي عمّاش وأبلغه بمضمون الرسالة. وبعد هنيهة، وإذا بالرفيق علي عريم بملابسه العسكرية يطلب مقابلتي.

أدخله الرفيق قحطان العزاوي وطلب مني إبلاغه بالرسالة. كانت المعلومات عندي تشير إلى اضطلاع الرائد علي عريم بالهجوم على المؤتمر القطري واعتقال القيادة الشرعية.

لم أجد حرجاً بصياغة رسالة غير الرسالة التي أرسلت معي من القيادة العسكرية في دمشق، حيث قلت له: أبلغني الرفيق اللواء محمد عمران بأن الاتصال الرسمي يجب أن يكون عن طريق الملحق العسكري السوري في بغداد لأن لديه شفرة مؤتمنة، ولم أذكر له اعتقال الضباط المناوئين. وخرج الرجل وهو يحمل شيئاً آخر غير الذي اتفقنا عليه.

ظهر لي أن الرفيق صالح مهدي عماش معتقل في مكتبه، وجرّد من سلاحه من قبل علي عريم سكرتيره الخاص. رائد وضابط إعاشة يعتقل فريق أول ركن ووزير الجيش العراقي والسوري وعضو قيادة قومية وقطرية.

نزل الجيش العراقي بقيادة العقيد الركن حسن النقيب لاحتلال المواقع المهمة والحساسة في جانب الرصافة ومفارق الطرق، وكلف العميد الركن محمود عريم بالسيطرة على جانب الكرخ مع قطعات ضاربة، وتم سيطرة القيادة القطرية الجديدة على الموقف، وأصدر عبدالسلام عارف بيان الانقلاب، وطبعاً أذيع البيان باسم الشعب، هذا الشعب المغلوب على أمره واعتقل من اعتقل بعد أن قاوم الحرس القومي بأسلحته الخفيفة ليوم واحد ولكن دون جدوى فاستسلم للأمر الواقع مفضلاً حقن الدماء والانتظار لظروف قادمة بدلاً من مقاومة فاشلة لقوة عسكرية ضاربة.

محاولة اغتيال:

في صباح يوم ١٨ تشرين الثاني دق جرس البيت، وكنت يقظاً أسمع أخبار الانقلاب الجديد ومتابعة بياناته. خرجت لمواجهة الطارق، وإذا بأربعة رجال مسلحين ثلاثة من الأمن بملابس مدنية والآخر بملابس رسمية وهو معاون شرطة المنصور هشام عبدالرزاق. قال الأخير: تفضل معنا إلى المركز. صرخت بصوت عالٍ شاتماً الانقلاب ورجاله وطردتهم. ناديت حرسى الخاص وسائق السيارة الحكومية طالباً منهم الانصراف والالتحاق بدوائرهم. وبعد أن ذهب الجميع ذهبت إلى دار ابن عمي

عبدالجبار شاكر الأمين. افترشت غرفة الضيوف ونمت نوماً هادئاً وعميقاً.

مرت ثلاثة أيام وأنا في دار الاختباء، ولما وجدت في نفسي من الشجاعة ما يكفي لمواجهة الموقف، اتصلت بوزارة الدفاع، وطلبت العقيد الركن حسن النقيب، وقلت له: يا أبو فلح، لي فضل كبير عليك وأريد منك أن ترد الفضل (الفضل الذي قدمته له إنقاذه من الاعتقال والمحاكمة عندما قررت ثورة ١٩٦٢ اعتقاله، واصطحبته معي لمقابلة رئيس الوزراء أحمد حسن البكر ورجوت السيد الرئيس أن يتقبل عذر العقيد حسن النقيب ويعفو عنه. امتعض الرئيس واعتبرني متجاوزاً الحدود لأن قيادة الثورة قررت اعتقاله وإجراء التحقيق معه. وبعد حديث ذو شجون وافق البكر على إبقائه في داره إلى أن يسوى أمره مع أعضاء مجلس قيادة الثورة. وفعلاً نجحت وساطتي وسارت الأمور كما رسمتها). رد عليّ العقيد الركن حسن النقيب قائلاً: أنا تحت أمرك، فأرجو أن تكون في دارك غداً صباحاً وسأكون عندك. شكرته وقلت له: واللّه إذا لم تأت فسأسلم نفسي للشرطة.

نفذ الرجل وعده واصطحبني لوزارة الدفاع وقابل السيد طاهر يحيى ولم يجد جواباً شافياً وقال له بالحرف الواحد: إن رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف يأمر بإعدامه.

عاد الأخ حسن خالي الوفاض بعد أن اتصل بالحاكم العسكري العام رشيد مصلح لمعاونتي. ذهبت معه لوزارة الداخلية لمقابلة الحاكم العسكري العام حيث كان يشغل منصب وزير الداخلية بالإضافة لوظيفته، وبعد ساعة من الانتظار بذل الأخ حسن النقيب مجهوداً غير عادي لإيجاد صيغه لمعاونتي رداً للجميع.

دخل رشيد مصلح يرافقه حسن النقيب وأنا في غرفة مدير الداخلية العام وقال: يا أحمد، إن رئيس الجمهورية ممتعض كثيراً منك، والأمور ليس في صالحك، ومع هذا سأطلق سراحك بكفالة ضامن، وأصدر أمراً بالحجز سنتين إقامة إجبارية في البيت. جرت الأمور على هذه الشاكلة وياتفاق الآراء. شددت الرقابة عليّ، وكان اثنين ممن لي علاقة جيدة بهم يدخلون عليّ متى ما أرادوا، الأول عم زوجتي عباس بغدادي، وكانت مهمته مراقبتي صباحاً ومساءً، والآخر أحمد الشخيلي، يستلم مهمته ليلاً إلى ما بعد منتصف الليل، لم أشك بأي منهما لأنني صاحب فضل كبير على الأول

والثاني. إن بعض تصرفاتهم خلقت عندي بعض الشك في مهمتهما لكني خالي الوفاض لا علاقة لي بأي تأمر أو عمل حزبي باستثناء زيارة واحدة شهرياً ولا حديث بيننا إلا حديث الأيام الخوالي ومآسي الأمم.

الوفد القومي في العراق:

محنة العراق أيام تشرين حينما انقلب بعض القياديين العسكريين وبعض من البعثيين على قيادة الحزب الشرعية أشغلت هذه المحنة بالقيادة القومية وبالقيادة حزب البعث في سوريا. قررت القيادة القومية إرسال وفد قومي برئاسة الرفيق ميشيل عفلق وأمين الحافظ وعبدالقادر النقشبندي، وهذا الأخير حشر نفسه حشراً كما أعلمني نور الدين الأتاسي، وأشار عليّ أن أخذ الحذر منه لأن تفكيره ينسجم مع الانقلابيين. استقبلت الرفيق نور الدين الأتاسي في بغداد أنا وعدد من الرفاق في ١٦ تشرين ١٩٦٣ وأخبرته بالموقف، وأكدت على ضرورة تشكيل حكومة لقيادة البلد، وإن بقاء العراق بدون وزارة وبلا رئيس يشجع المغامرين العسكريين على القيام بعمل عسكري وبسهولة يتم السيطرة على الموقف ويصبح الوضع معقداً، فالظروف الشاذة تخلق وضعاً شاذاً. وافق على رأيي وقال: هذه قناعة القيادة في سوريا وجئت لإبلاغ الرفيق ميشيل عفلق بذلك لتدارك الأمور استباقاً.

صاحبته إلى فندق بغداد، ودس علاء البكري أنفه وركب معنا السيارة، ومن هناك اتصل نور الدين الأتاسي بقصر الزهور حيث مقر أمين سر القيادة القومية وذهب إلى هناك فوراً.

وفي اليوم التالي زارني الأتاسي وقال بأن كل الضباط البعثيين اعتذروا عن فعلتهم التأميرية وأنهم نادمون ولا يحملون أي نوايا عدوانية ضد الحزب، والجميع أفادوا بهذا أمام الوفد القومي وقد أجمعوا على هذه الإفادة. ضحكت وقلت له: يا رفيقي هذا أكبر دليل على وجود التأمير، وإن التستر عليه ليس في صالح العراق ولا في صالح الحزب، هؤلاء انتفضوا على الحزب واعتقلوا القيادة ونفوها خارج القطر، فلا بد أن كل واحد منهم له مبررات انتفاضته. تدخل بعض الرفاق من الملائمين للرفيق نور الدين الأتاسي ملازمة الظل لصاحبه يدافعون عن وجهة نظر القيادة

القومية وعلى رأسهم الدكتور فؤاد شاكر.

استسلمت للأمر الواقع ولا فائدة من قناعاتي، وقلت في نفسي إن التآمر امتدت جذوره لعروق الحزب وشعيراته. جاءت الأمور بما توقعت، وقام الانقلاب، وصدر البيان الأول، واعتقل من قاوم الردة ومن لم يقاوم. بعد اتفاق حازم جواد وطالب شبيب مع عبدالسلام عارف على إبعاد القيادة الشرعية، تغدى عبدالسلام عارف بالجنح المعتدل كما كان يطلق عليه ودفع رفاقه خارج القطر نفيًا وإبعاداً. بعد فترة زمنية قصيرة قرر حازم جواد وطالب شبيب العودة إلى بغداد لإحراج القيادة الجديدة، وفعلاً وصلاً إلى مطار بغداد وأجبراً على العودة إلى خارج القطر، وعادا من حيث أتيا. وبهذا ضاع الحزب وضاعت قيادته بالكامل، يمينه ويساره، وضاعت عروس الثورات في خضم تآمر بعض من قياديي حزب البعث المتفقين مع عبدالسلام عارف.

الاعتقال الثانية:

أحاط رجال الأمن والنجدة داري مساء إحدى الليالي عام ١٩٦٤ ، جلب انتباهي هذا العدد من قوى الأمن، خرجت لمواجهة طارق الباب وإذا بضابط الأمن رشيد الطرفة يقول لي: سيدي، مدير الأمن العام أرسل في طلبك. ضحكت، وقلت: اسمح لي أن أهيبُ أشياءي وفراشي لأن الإجراءات المتشددة تؤشر على طول مدة الاعتقال. جاملني معاون رشيد قائلاً: لا سامح الله، إن الأمر بسيط على ما أعتقد. قلت له: الأفضل أن أتخذ الحيلة للأمر.

اتجهت بي سيارة الأمن بعد أن حزمت عفشتي، وعلى بعد مسافة كيلو متر تقريباً اتصل ضابط الأمن بمدير الأمن العام وقال: (لقد ألقينا القبض على الفريق أحمد أمين). ضحكت وقلت له: (يا به شنو ألقيت القبض علي ليش أني مهزوم؟). على كل حال، جاء رد مدير الأمن العام: اتجه به إلى السجن العسكري رقم واحد.

وصلنا السجن في منتصف الليل، استقبلني مدير السجن غازي الجنابي بالترحاب والاحترام التامين، وقال لي: والله أسف لاعتقالك سيدي، إن مواقفك الوطنية لا تنسى. قدم لي ما يقدم للضيف ورجوته أن يسمح لي أن أذهب لأنام. اصطحبني إلى

غرفة فارغة، فرشت فراشي ونمت نوماً عميقاً. في الساعة الحادية عشر صباحاً شاهدت بعض المسجونين يطلون عليّ من زجاجة الشباك، وهي بقدر كف اليد الواحدة. صحت: من هذا فأجابني الصوت: من أنت؟ وما بك؟ ومن عذبك؟ وهل تشكو من شيء؟ أجبتهم: بالحقيقة بأن لا أحد قام بتعذيبي ولا أشكو من شيء والحمد لله. فتح الباب من قبل السجان، وعند خروجي وجدت فاتك الصافي في الغرفة المجاورة منفرداً. تبادلنا معه التحية من خلف القضبان، كان الرفيق وليد محمود سيرت في الغرفة المجاورة لفاتك، وكان الباب مفتوحاً. جلست في غرفته على أرض مفروشة بالبطانيات وأخذت عنده الفطور. تقاطر عليّ سجناء المجموعة مرحبين ومتأسفين، وقالوا: خامرنا شك بأن دوائر الأمن قامت بتعذيبك لأنك لم تستيقظ إلا متأخراً خلاف عادة المساجين، فهم يستيقظون للصلاة وقراءة القرآن فجراً.

بعد مدة، زارني الضابط غازي الجنابي مدير السجن إلى غرفتي وأخرج ورقة، قال لي: هذه رسالة أرجو الاطلاع عليها. كانت الرسالة موجهة لي من الضابط الشهم والأخ عامر الحمدان وهما جاري في الكرخ. سبق وأن قدمت له ولأخيه مساعدة عندما أوقفنا في الأيام الأولى لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، الرسالة تؤكد لي بإطلاق سراحي قريباً جداً، وسوف أعين بمنصب يليق بي وبنضالي. طلب مني الأخ غازي الجنابي التوقيع على الرسالة، ورفضت، وألح عليّ، وقلت له: إن توقيعك يعني إعدامي. قال: اطمئن، لأن الرفيق عامر ألح على توقيعك حتى يطمئن من وصول الرسالة. وقعت غير توقيعك حتى يسهل عليّ نكرانه إذا كان في الأمر فرية.

أطلق سراحي بعد ثلاثة أشهر، ونقلت من السجن إلى مديرية الأمن العامة. استقبلني مديرها العام السيد أنور ثامر وكان فعلاً رجلاً شهماً وفيماً. قال لي: يا أبو ليث، أقسم لك بالله لم يكن لي يد في توقيعك، وأنا أعرف ليس لديك ما يدعو للاعتقال، لكن نسيتك عباس بغدادي وشي بك عند رئيس الوزراء طاهر يحيى، وفي المرة الأولى دافعت عنك ولم أوافق على اعتقالك، وبعد أسبوع ألح عليّ ثانية باعتقالك وقال لي: إن نسيتك يؤكد تأمره، وله علاقة حزبية. أكدت للأخ أنور ثامر أنه على حق وصادق في موقفه، وليس لي أي نشاط تأمري، كما لم يكن لي نشاط حزبي. أجاب: أنا أعرف ذلك حقاً وصدقاً، ومن قوله فهمت أن الرقابة ستكون مشددة عليّ.

ذهبت إلى داري وإذا أفاجأ بوفاة أُمِّي وقد دفنت، ولم أشارك في مراسيم التشييع، وعلمت أن توقيفي كان سبباً في موتها. هنا استذكرت زيارة عباس بغدادي وزوجته لي قبل التوقيف. طلبت زوجته أن أكتب أي شيء لصحيفة عراقية تصدر باللغة الإنكليزية وهي (بغداد أوبزيرفر) على ما أعتقد. قالت: ستحصل على مورد رزق. فهمت ماذا تعنيه، وقلت لها: زوجك صحفي معروف وكتابات مرغوبة، فهو أقدر على معاونتك. أجابت أنها تريد مساعدتي. كتبت لها عن الديمقراطية في زمن الأستاذ عبدالرحمن البزاز الرجل القومي النزيه، وكان رئيس وزراء يومذاك. أردت أن أثبت براعتي لزوجة عباس وللأمن، وحققت ما أردوه.

أخيراً، وصلت الرسالة إلى دائرة الأمن العام، وفهمت من مدير أمن بغداد أن الرسالة التي كتبتها بخط يدي أرسلت إلى التحريات الجنائية لمطابقتها مع الرسائل الواردة من سوريا. بعد التدقيق والتحري لم يثبت مطابقة خطي مع تلك الرسائل. هكذا أراد الله أن يقبح وجه الواشين ويخزيهم.

ظل عباس بغدادي يتردد عليّ رغم كل هذه الإساءات ورغم استمراره بنفس الدور الذي أوكل له. لا أحب هنا أن أسرد جميلي وأفضالي على هذا الرجل وعائلته وأبناء إخوته، ولكنني أقول كعبارة للقاري (اتق شر من أحسنت إليه). حاول إثارتي واستفزازي مراراً كي أرد عليه لعله يكتشف ما بدواخلي، لكنه فشل بسبب برودة أعصابي وصبري وإيماني. قتله صمتي كل تلك السنين دون عتاب. كان الله له بالمرصاد، فقد ابتلاه بمرض أقعده وأشل نصفه الأسفل حتى بات عاجزاً عن خدمة نفسه.

بداية جديدة:

بعد أن انتهت مدة الإقامة الإجبارية توثقت علاقتي بالحزب. زارني بعض الرفاق وتبادلنا الأحاديث واستعرضنا مساوئ المرحلة السابقة حتى أخذ الحديث طابعاً تنظيمياً. ظهر اتجاهان في الحزب في هذه المرحلة، مرحلة ١٩٦٤-١٩٦٥ ترأس أحد هذين الاتجاهين لجنة تنظيم القطر، وتزعم الاتجاه الثاني أحمد حسن البكر. غلبت المسحة اليسارية على التنظيم الأول، وسبغ الاعتدال على الطرف الآخر. كلا

الاتجاهان اتصالاً بي، وفضلت الجناح اليساري المتمثل بلجنة تنظيم القطر لأنه أكثر ثورية وأكثر اندفاعاً.

ساعت الظروف، وحلت لجنة تنظيم القطر نفسها بعد الاتفاق مع بعض الرفاق القادمين من خارج القطر ومع الرفاق الآخرين داخل القطر حتى أصبح الحزب تنظيمياً واحداً.

ترأس المرحوم أحمد حسن البكر قيادة الحزب، وكانت علاقتي معه حسنة جداً. وأخذت أتردد على داره دون وجل. نشط الحزب سياسياً وتنظيمياً حتى تجرأ على قيادة مظاهرة عام ١٩٦٧ بعد نكسة حزيران تأييداً للشقيقة مصر وللرئيس عبدالناصر. حمى رجال الانضباط العسكري المظاهرة، وحالوا دون تطور الموقف، وانفضت بسلام دون اعتداء وبلا تخريب.

الجبهة الوطنية:

صداقتي للأخ طاهر الحيدري قائممقام الكاظمية وموقفي منه ومن زميله العميد الركن مصطفى عزيز - كلاهما من الكرد اعتقلا في بداية الثورة وأخرجتهما - جعلت الأخ طاهر يكرر زيارته لي بين الفينة والأخرى. شجعته بحديثي نحو تمتين العلاقة بين حزب البعث والوطني الكردستاني. نضجت العلاقة وتطورت حتى تمكن الأخ طاهر الحيدري أن يدفع بقيادة الحزب الكردستاني إلى الاجتماع بي لتبادل الآراء ووضع تصور لمستقبل العراق. كان الأخ صالح اليوسفي ممثل الحزب الوطني الكردستاني على اتصال دائم بي عندما وافق حزب البعث على إجراء مباحثات رسمية مع الكرد.

شكل حزب البعث مكتبه السياسي، قاده أول الأمر الرفيق مرتضى الحديثي وعضوية الرفاق أحمد عبدالستار الجواربي وشفيق الكمالي وعزت مصطفى. وبعد اجتماعات متعددة - وكانت أسبوعية - استبدل الرفيقان أحمد عبدالستار الجواربي وشفيق الكمالي، كما استبدلت قيادة المكتب بالرفيق عبدالله سلوم، وأدخل كل من الرفيقيين منذر عريم ومحمد المشاط المكتب. توسع نشاط المكتب السياسي بعد أن رفعت تقريراً لأمين سر القطر أشرت فيه بعلاقتي الوثيقة ببعض من قيادة الحزب

الشيوعي. كان أحدهم وسيطاً بيني وبين الحزب الشيوعي، وفعلاً قوت بيننا العلاقة وتعرفت على معظم القياديين. زارني كل واحد منهم لوحده.

جاءت موافقة حزب البعث على إقامة علاقة رسمية مع الحزب الشيوعي، وبدأت الاتصالات والاجتماعات الرسمية بين الطرفين. كان الأخ مكرم الطالباني ممثلاً للحزب الشيوعي، وكان رجلاً أميناً. تمتنت العلاقة شيئاً فشيئاً حتى أخذت شكلاً رسمياً وأسبوعياً. جرت الاجتماعات كلها في داري سواء مع الحزب الكردي أو مع الحزب الشيوعي. انفتح حزب البعث على القوميين العرب والناصريين، واتصلت أنا والرفيق المشاط ببعض العناصر القومية. كانت حصيلة اللقاءات لا وجود لهذه الأحزاب على الساحة السياسية.

اتصلنا بالأخ هشام الشاوي ورشح لنا أحد أنصاره، ذهبنا لمقابلته واعتذر قائلاً: ليس لي علاقة بأي تنظيم حالياً، وقال: كانت لي علاقة مع تنظيم الشاوي وقد انتهت العلاقة منذ مدة، فأرجو المعذرة.

اتجهنا إلى العربي الاشتراكي، ووجدنا الانقسامات تنخر في قيادته، وجدنا المحامي عبدالرزاق شبيب رئيس الحزب في وادٍ وبقيّة القيادة المتشردمة في وادٍ آخر. لم نجد ما يدعونا للاتصال بهذين الحزبين لعدم وجود قاعدة لهما، كما لا توجد فيه قيادة متماسكة موحدة.

اقتصر المكتب السياسي لحزب البعث على العلاقة مع الحزب الشيوعي والحزب الوطني الكردي. كانت هذه هي الخطوة الأولى لبناء الجبهة الوطنية والقومية التقدمية. كان للأخ جلال الطالباني صلة مسبقة بالمكتب السياسي البعثي هو ورفاقه عمر دبابة ومحمد أمين وعبدالقادر ورئيس حزبه السيد إبراهيم أحمد. كان التنظيم الكردي هذا قد أدام العلاقة مع الحزب، ودخل الجبهة.

استمرت الاجتماعات في داري مع كل حزب على انفراد. خصص لكل حزب يوم للاجتماع، ولم تنكشف سرية الاجتماعات على كبر حجمها وخطورة أهدافها. كانت تعمل لتقويض نظام الرئيس عبدالرحمن عارف وإقامة نظام جديد تقوده الجبهة الوطنية بزعامة حزب البعث العربي الاشتراكي. ظلت الجبهة حتى قيام حركة ١٧ تموز عام ١٩٦٨ وما بعدها.

بذل الكرد جهوداً كبيرة لتطوير وتقوية الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، واندفعوا للمشاركة بالثورة الجديدة. قدم الملا مصطفى البارزاني عرضاً جدياً لمعاونة التغيير القادم بزج أكثر من خمسمائة مقاتل إلى بغداد يعملون تحت تصرف قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي لتغيير النظام.

أما الحزب الشيوعي، فقد كان حذراً بعلاقاته واتصالاته. تردد عليّ كل القياديين الشيوعيين لإستقراء الموقف برفقة الوسيط. دعتني قيادة الحزب الشيوعي لعشاء خاص بعدما توثقت علاقتي بكثير من القياديين. كانت لي معرفة مسبقة مع بعضهم. تعرفت على كل واحد منهم. توالى عليّ الأسئلة من الجميع وكلها تتعلق بالجبهة وضمان نجاحها دون الإشارة إلى سلبيات الحزبين الشيوعي والبعثي والمآسي المريرة التي اكتوت بنيرانها القيادتين وقواعد الطرفين.

تمكنت من إيقاف حملات الحزب الشيوعي المضادة لحزب البعث، واستبدلتها بلغة إيجابية بناءة لتطوير فكر ونفسية الجماهير ذات المصلحة الواحدة. استجاب الحزب الشيوعي مشكوراً لطلبي، وبدأت الخطوة الأولى في بناء صرح الجبهة الوطنية، وأثمرت جهودي، وأنت أكلها بدءاً بإقناع حزب البعث العربي الاشتراكي وانتهاجاً بقبول الحزب الشيوعي. استمرت اللقاءات منذ عام ١٩٦٥ حتى قيام حركة تموز عام ١٩٦٨، وظلت يافطة الجبهة الوطنية والقومية ترفرف على العراق.

الفكر الماركسي:

بقائي في داري تنفيذاً للإقامة الجبرية المفروضة عليّ من قبل الحاكم العسكري منحنتني فرصة ثمينة للمطالعة الجادة اليومية. ولما كنت بعثياً، دفعني الفضول للاطلاع على الماركسية وإجراء مقارنة بينها وبين ما كتب عن اشتراكية حزب البعث. فهمت من أفكار الحزب أن اشتراكيته خاصة تنبع من محيط الأمة العربية وتصب في مصالح الجماهير العربية. كانت أفكار عامة واضحة دون الدخول في التفاصيل. جاءت الفرصة، وبدأت أقرأ أصول الفلسفة الماركسية بجزأيه، وقرأت ما كتبه لينين وماركس في الاشتراكية وما يدور حولها. أخذني التسلسل التاريخي للصراع الطبقي بدءاً من المجتمعات الأولية المشاعة وانتهاءً بالمجتمع الشيوعي. عرفت المسألة

التي يقاسيها المجتمع العراقي وهي عدم مشاركته في صنع القرار السياسي، بالإضافة إلى جفاف الفكر وضمور الخيال. الفكر أداة المراجعة والنقد والتغيير. إن الروح الوطنية والقومية تتواجد في أعماق كل مواطن سوي، ولكن سواد الناس ابتعدت عن الثقافة لأسباب كثيرة، كما خلقت الثقافة الجديدة عند المثقفين صراعاً حاداً بين الذات والموضوع. مع كل المبررات التي يدافع بها المثقفون، أجد الإحساس بالمواطنة أصبح ضعيفاً حسب القياسات التي عشتها في الأربعينيات وما تلاه من السنين حتى الستينيات من القرن العشرين، كان تسلط الحكام سبباً في مسخ الشخصية، فقد سلبت شجاعتهم وقدراتهم على العمل الجماعي فتعلموا الخضوع للإرادة الغاشمة والرضا بالقدر. هذا الواقع المرير دفعني لتوسيع معارفي والاطلاع على فكر الآخرين غربيين وشرقيين، لذا بدأت بما كتبه أنجلز وماركس ولينين، وتتابع حلقاء القراءة حتى أدركت بأن العقل العربي عند معظم الناس يتقبل ثنائية الكون كالأبيض والأسود، الروح والمادة، الأصالة والمعاصرة، الحب والكراهية وغير ذلك، فالثنائية في الحياة على سعتها يتخللها أمور كثيرة وهي في الحقيقة أعقد من ذلك بكثير. من هذا القبول المطلق بمنطق الثنائية وأحكامها الصارمة، ومن قناعاتي، وجدت بأن لا ننظر إلى الماركسية على إنها نظرية جامدة أو دين أو عقيدة توضح بصورة نهائية الحقيقة الأزلية كما تفعل الأديان.

إنها فلسفة التاريخ وإنها أسلوب لتفسير التاريخ وجعله شيئاً منطقياً متسلسلاً، كما أنها طريق للوصول إلى الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية. إن المحسن قومياً وثقافياً لا يخشى دراسة الماركسية بل على العكس تزيد من قدراته وفهمه للحقيقة خاصة أولئك الذين يعملون في الحقول العامة السياسية وغيرها، فالثقافة المتنوعة توصل الإنسان إلى الحقيقة وإلى المنطق العلمي السليم. إن أساتذة البعث كتبوا في الاشتراكية ونقدوا الماركسية منطلقين من الفكر العربي ومن عدائهم للشيوعية.

عرض ومنصب:

زارني على غير موعد الأخ حميد مرعي في مكتبي في مديرية الأموال المجمدة قادماً من سوريا. عرض عليّ التعاون مع رئيس الوزراء طاهر يحيى وأطرى عليه

بكلمات المديح وأردف قائلاً: إن وزارته بحاجة إلى وزير داخلية -وكان الدكتور شامل السامرائي يشغل تلك الوزارة-. بعد هذا الشرح ومن باب المداعبة قلت له: "يا حميد، من كبر كرشه صغر عقله"، ضحك الأخ حميد وقال معقّباً: إن ونستن تشرشل بدين ولكنه قائد سياسي عظيم وذكي جداً، فالمعادلة التي اعتمدت عليها لا تنطبق على الواقع. أجبته: نعم، تشرشل عظيم ولكنه شذ عن القاعدة ولكل قاعدة شواذ.

بعد المجاملة والمداعبة طلبت منه إمهالي فرصة يوم واحد حتى أتخذ القرار المناسب. أكدت له بأن لي التزامات حزبية واسعة ويصعب عليّ التفريط بها، واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي. لم يأت الأخ حميد ثانية لزيارتي حسب الاتفاق بل اكتفى بمهافتي تلفونياً. سألتني عما قررته، أجبته بأنني على غير استعداد بالتفريط بعلاقتي الحزبية، لذا أفضل البقاء على ما أنا عليه وأترك المستقبل إلى ما يأمر به رب العباد، ودعني مأسوفاً ولم أره ثانية.

عرض جديد:

اتصل بي صالح مصطفى -وهو صديق قديم لي ولبعض القياديين البعثيين أيضاً- وهو صاحب بستان في الكاظمية ولا علاقة له بالسياسة. أخرج صالح لفافة صغيرة من جيبه وقال: الرئيس البكر يسلم عليك وهي كلمة السر بيني وبين الرفيق البكر وسلمني اللفافة (ورقة صغيرة جداً). فتحت الورقة وإذا بها رقم تلفون دار طاهر يحيى رئيس الوزراء. طلب الأخ صالح أن أتصل تلفونياً بطاهر يحيى في الساعة السابعة صباحاً على أمل إسناد منصب جديد لي.

أثارني العرض وكنت مقهوراً في حينه فمزقت الورقة. سارع صالح لإنقاذ الورقة من التمزيق ولم يفلح. قلت له بعصبية: كيف أتعاون مع طاهر يحيى ورفاقي البعثيين في السجن؟ أرجوك سلم على الرئيس البكر وأنقل له رأيي بصراحة.

استطرد الأخ صالح حديثه وقال: إن الرفيق البكر يقول لنا مصلحة بهذا التعيين - ويعني مصلحة الحزب-. أجبته دون تردد: لا أريد أن أكون كيش فداء فرفاق الحزب لن يغفروا لي هذه الهفوة. ظننت في حينه أن قبول التعاون مع طاهر يحيى يسيء لمسيرتي النضالية ويثير غضب رفاقي البعثيين وسيتقول الآخرون بأنني فضلت

الوظيفة على الحزب، وللحقيقة لم أستوعب نوايا البكر في تلك اللحظة، ولعل حالتي النفسية المضطربة كانت سبباً في اتخاذ هذا القرار العاجل.

زرت الرفيق البكر في داره بعد أيام من هذه الحادثة وعتب عليّ بشدة قائلاً: لقد فوّت على الحزب فرصة ثمينة (يا أبو شهاب). لم أعرف ماهية الفرصة، وقال: إن قبولك العرض يعني أن للحزب هدفاً يريد تحقيقه وأن رفضك فوّت ما اتفقنا عليه. وظل الرفيق البكر ممتعضاً وأسفت لإغضابه.

عرض آخر:

اتصل السيد عدنان الجبوري مدير مكتب السيد رئيس الوزراء عبدالرحمن البزاز تلفونياً بداري وأبلغ من في الدار بأن رئيس الوزراء يرغب بمواجهتي يوم الأربعاء الساعة العاشرة. استقبلني مدير المكتب في الموعد المقرر وأدخلني على الأستاذ رئيس الوزراء. وبعد مراسيم التحية والضيافة قال: أنا مستغرب جداً من موقف حزب البعث مني ولا أعرف أسباب مهاجمته لي علماً بأنني أعدت معظم البعثيين وأنا بصدد إعادة الآخرين، بينما فصل طاهر يحيى كافة البعثيين إلا ما رحم ربي، وأردف قائلاً: أنا عازم ومُصر على معاونة الشباب القومي وأنا واحد منهم، ولذا أحيي فيهم الروح القومية ونضالهم البطولي، بينما سجن طاهر يحيى الكثير من البعثيين والحزب لم يقل كلمة واحدة نقداً لمواقفه تلك. أجبته مبتسماً بأنني لست صاحب القرار وأبديت استعدادي لنقل آرائه لقيادة حزب البعث.

طلب مني التعاون كي يعيدني إلى الوظيفة. قلت له بصراحة: يا أستاذ أنا ملتزم بحزب البعث، ولي علاقة حزبية متينة بالحزب، ولازلت محتفظاً بتلك العلاقة. شكرته على عرضه وهو أستاذي. قلت له: أمامي أمرين إما أن أترك الحزب وأقبل الوظيفة وإما أن أبقى على علاقتي الحزبية وأستغني عن الوظيفة لأنني غير قادر على اللعب على الحبلين ولربما سينقطع الحبل وسأخسر الاثنين معاً، وهذا هو حال السياسة في العراق.

شكرني السيد رئيس الوزراء على هذه الصراحة وودعني إلى باب مكتبه بكل أدب وخلق رفيعين وأنا من الحزب الذي يشتم البزاز ويهاجمه. لم أجد مثل هذه الروح

السامية والديمقراطية الحقبة في كثير من السياسيين الذين حكموا العراق ممن تعرفت عليهم باستثناء المرحوم البكر وعلي صالح السعدي وكلاهما يتمتعان بروح طيبة وسماحة خلق رفيع.

الساحة السياسية قبل عام ١٩٦٨:

بعد أن نجحت مساعي في إقناع حزب البعث بفكرة الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، شكّل حزب البعث المكتب السياسي ليتولى أمر قيادة الجبهة الوطنية. قاد الرفيق عبدالله سلوم المكتب السياسي وبدأت أعماله بشكل منتظم أسبوعياً. تقرر جرد القوى السياسية الفاعلة في العراق بغية الاتصال بقياداتها، وفعلاً تم الاتصال ببعض القياديين.

وافق الحزب الوطني الديمقراطي الكردستاني رسمياً على إجراء الحوار مع حزب البعث وتبعه الاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الشيوعي العراقي، واستمرت جهود المكتب السياسي ومساعدته حتى شملت الأحزاب القومية التقدمية. جاء قبول الأحزاب هذا معززاً لما فكرت به واقترحت على الحزب وكان نصراً موفقاً لترميم البيت العراقي السياسي المنهار. أثمرت الاتصالات وتطور العمل الجبهوي بسهولة أكبر حيث كانت الرغبة متوفرة عند كل القوى السياسية للنهوض بالواقع العراقي إلى واجهة جديدة مقبولة عربياً ودولياً بعد أن تميع وتشوه واقعه السياسي المأساوي. كنت حريصاً على إنجاح العمل الجبهوي حتى أعطيته جهداً يومياً وعملاً متواصلًا دون كلل وبلا تعب. أعانني رفاقي بهذه الجهود وكانوا خير نصير وأفضل معين بالإضافة إلى التجاوب السريع من قبل القوى السياسية الأخرى، حيث عملت هي الأخرى جهوداً مضاعفة لإنجاح الجبهة. وهكذا قوت العلاقة وأثمرت الجهود.

إن هذه العملية حمت حزب البعث من ضربة قوية قد تسحق قيادتها لأن نشرات الحزب الشيوعي تصلني بانتظام عن طريق بعض الأصدقاء. كانت النشرات تشير إلى وجود تحالف مع رئيس الوزراء طاهر يحيى وتهاجم حزب البعث. سحبت البساط من تحت أقدام هذا التحالف وظل طاهر يحيى معزولاً عن أي قوى سياسية، وبذلك تم للحزب السيطرة على الساحة السياسية وأخذ زمام المبادرة والقيادة معاً.

أبلغني الأخ صالح اليوسفي أن لحزب البعث اتصالات مع بعض القادة العسكريين المتنفذين، وطلب مني توضيح ذلك. لم يكن لدي أي تعليمات بشأن هذه العلاقة، استفسرت أثناء الاجتماع الأسبوعي من الرفيق المسؤول عن المكتب فأجابني بأن العلاقة موجودة مع عبدالرزاق النايف وبعض الضباط المحسويين على الخط القومي وهي ذات المعلومة التي أشار إليها الأخ صالح اليوسفي. أشار مسؤول المكتب أن أوضح لليوسفي بصورة مختصرة ودون تفصيل لأن الحزب يخشى من أي قوة فاعلة في الساحة السياسية وخاصة العسكر منهم لئلا يباغت بحركة انقلابية.

في عام ١٩٦٨ أخذت سيطرة الحزب تشتد وتقوى وأصبحت علاقاته واسعة وزادت الجبهة من وزنه السياسي بحيث أصبح سيد الموقف. شجع هذا الوضع الضباط المتحالفين مع الحزب وزاد في حماسهم واندفاعهم لتغيير الوضع القائم.

قبل عام ١٩٦٨ اتصل بي السيد أحمد حسن البكر وقال لي: هيئ نفسك وجماعتك، سنستلم السلطة إن شاء الله وعلى بركة الله. انتظرت بفارغ الصبر وصول المندوب الحزبي، ولم يأت. وبعد أيام ذهبت لمقابلة البكر وقال لي: تأجل كل شيء ونحن مستمرون بالزحف المتواصل إلى القصر الجمهوري. قبل ذلك، التقيت بالضابط حاتم الياسين وكان أمر كتيبة الدبابات في أبي غريب وجرى حديث ذو شجون بما يتعلق بثورة ١٩٦٣، وارتأيت أن أفاتحه بمقابلة الرفيق أحمد حسن البكر وشجعتة على القيام بهذه الخطوة وفي صالحه. أبدى موافقته بدون حماس، كما امتدح السيد البكر. وفي اليوم التالي زرت الرفيق البكر وأخبرته بالأمر وقال: حسناً فعلت وأفضل أن ترافقه وأن تهمس بأذني شيئاً غير مفهوم بحضوره إذا ما قام بزيارتي.

يبدو لي أن الصورة انقلبت وكسر إطارها حيث أبلغ حاتم الياسين رفيقه العقيد سعيد صليبي أمر الانضباط العسكري، وهذا الأخير عاتب الرفيق البكر على ما قمت به متهماً البكر بهذه المبادرة وقال له: هذا خلاف ما اتفقنا عليه. لم أذهب ثانية إلى أمر الكتيبة حاتم الياسين حيث لا جدوى من ذلك بعد افتضاح الأمر وإفشاء سر العلاقة إلى الآخرين.

أنا وعبدالستار عبداللطيف:

استلم وزارة الداخلية الأخ والرفيق القديم عبدالستار عبداللطيف في وزارة طاهر يحيى. زار السيد الوزير المديرية العامة للأموال المجمدة وأمر بتوقيف مديرها العام يونس السامرائي، وطلب من معاونه تقديم أسماء الموظفين حسب درجاتهم. وعند الاطلاع وجد اسمي ضمن كبار الموظفين. أصدر أمراً بتعييني مديراً لهذه المؤسسة. قابلته وشكرته على حسن صنيعه وقال: اطمئن، سوف تستلم وظيفتك القديمة وسوف تعاد لك كافة الحقوق لأنك مناضل بعثي. أشرت عليه أن يقابل الرفيق أحمد حسن البكر إذا ما أراد أن يستعيد مكانته الحزبية. اتفقنا على موعد لزيارة البكر كل على حدة دون إعلام الرفيق البكر بالاتفاق. مهدت لزيارة الوزير والتقيت بالرفيق البكر وكنت مبكراً قبل وصول السيد الوزير. وعند وصوله، تمت التحية بينهما وباركت لهما هذا اللقاء بكلمات مشجعة واستأذنت بالانصراف.

أعفي السيد عبدالستار من منصبه. لماذا؟ الله أعلم ببواطن الأمور، كانت خطوة اللقاء بين السيد البكر والسيد الوزير عبدالستار عبداللطيف غير محببة من قبل القيادة القطرية للحزب. وعلى ما يبدو أن للأخ عبدالستار مناوئين داخل قيادة الحزب وخارجه، وقد اتهمني البعض بأن لي علاقة جدية مع الوزير، وهذا غير صحيح أبداً والله على ما أقول شهيد.

١٥ تموز ١٩٦٨:

زارني الرفيق صدام حسين يرافقه حاتم العزاوي في مكثبي في الأموال المجمدة يوم ١٥/٧/١٩٦٨، ومن الصدف كان في مكثبي عدد من المتقاعدين من ضباط الشرطة البعثيين المحسوبين على اليسار ولم يشملهم تنظيمات الحزب بقيادة أمين سر القطر أحمد حسن البكر. على ما يبدو لم تكن الزيارة عن طريق الصدفة، استنتجت ذلك من أسئلتهم العديدة وكلها انصبحت على علاقة الحزب بنظام عبدالرحمن عارف القائم. فاجأت الرفيق صدام حسين بطلب الإخوة المجتمعين في غرفتي وقلت: جاءكم من يقدر الإجابة على أسئلتكم. خرج الرفيق صدام حسين دون كلام وقال: جئت أتوسط بتعيين حاتم العزاوي في دائرتكم. أدركت أن في الأمر سرّاً

وفعلًا جاءت عملية ١٧ تموز بالوقت المحدد لها وفي اليوم التالي. وعلى ما يبدو لي أن مجيء صدام حسين لمكتبي كان لغرض إبلاغي بواجب معين في عملية التغيير. شكلت الوزارة وأسندت وزارة الداخلية لصالح مهدي عماش، وبهذا التنسيب فقدت فرصة استيزاري كما كنت أتوقع وحسب ما أشار به علي السيد الرئيس البكر في مقابلاتي العديدة له. إن عملي الحزبي المحوري في المكتب السياسي ولكوني أمين سر مكتب قوى الأمن الداخلي يؤهلني للاستيزار ولكن الخير فيما اختاره الله.

تعيين مدير أمن عام:

اتصل بي تلفونياً وزير الداخلية صالح مهدي عماش طالباً البحث عن درجة شاغرة في مديرية الأمن العامة بغية تعيين أحد الرفاق البعثيين. عند عودة الوزير لمكتبه عرضت عليه الدرجات الشاغرة. قال: في النية تعيين ناظم كزار بوظيفة في مديرية الأمن العامة لحاجتنا الماسة لخدماته. أثارني هذا العرض وانتفضت وقلت بدون تروي: إن سمعة هذا الرجل سيئة جداً، وإن الجبهة الوطنية قائمة، وقد يثير هذا التعيين حفيظة أطراف الجبهة لمواقفه الدموية عام ١٩٦٣ عندما كان محققاً في إحدى الهيئات التحقيقية الخاصة. رجوت الوزير إعفائي من منصبه كوكيل لوزارة الداخلية إذا تم تعيين هذا الرجل، لأن الأمن العامة مرتبطة بوزارة الداخلية وأنا مسؤول عن سمعة وأداء الوزارة.

نقل الوزير رأبي إلى مجلس قيادة الثورة فاتخذ المجلس قراراً بنقلي إلى وزارة الخارجية وتنسيب مدير الأمن العام حامد العاني وكيلاً لوزارة الداخلية وتعيين ناظم كزار مدير أمن عام بدرجة لواء.

استلم السيد سعدون غيدان وزارة الداخلية، وعند مقابلي له سألتني عن صحة ما طرحه صالح مهدي عماش في مجلس قيادة الثورة حول رأبي بتعيين ناظم كزار. أكدت له صحة الخبر وأكدت على رأبي بناظم كزار وحذرت من مغبة هذا التعيين وقلت له: سجل رأبي إذا رغبت في ذلك، وفعلًا كان يسجل رأبي سرًا دون علمي. في إحدى زياراتي لوزير الداخلية سعدون غيدان أخذ يقص عليّ رحلة العذاب التي مشاها بخطى دامية مع هذا الرجل والدموع تنهمر من عينيه (قضية اعتقاله).

زرت ناظم كزار بمكتبه في الأمن العامة عندما كنت سفيراً وكان رفيق البشدري يرافقني. عرضت عليه حال أحد الموقوفين راجياً مساعدته، سألتني عن صحة ما قلته لصالح عماش. وبدون تردد أكدت له صحة الخبر وقلت له: هذا رأيي فيك وأرجو أن لا يغضبك قول الحق. قلت له: عندي نصيحة لك وأنت تستلم أدق وأخطر منصب فإياك أن تستعمل الشدة والقسوة مع من يعترف بدون ضرب. وقلت له: قد يأتي الاعتراف تحت التعذيب كذباً وفيه اتهام لأبرياء تخلصاً من التعذيب وعندها تضيع عليك الحقيقة ويكتوي الأبرياء بنيران الإيذاء والتعذيب.

أعطي لهذا الرجل صلاحيات أكثر بكثير مما لوزير الداخلية، لذا أمعن وتغنى بوسائل التعذيب حتى غرق إلى أذنيه. أخيراً دفع رقبتة ثمناً لما جنته يداه وذهب لمزبلة التاريخ غير مأسوفاً عليه.

صفى ناظم كزار المرحوم حماد شهاب ونجا سعدون غيدان من القتل بعد أن أصاب الشلل يده اليمنى بطلق ناري من ناظم.

كان لتعيين ناظم كزار هدفاً لتصفية القياديين وبعض الوجوه السياسية ليصفى الجو لمن هبى له مستقبل قيادة العراق.

الصراع على قيادة الحركة عام ١٩٦٨:

صدر قرار مجلس قيادة الثورة بتشكيل هيئة تحقيقية لمحاكمة رجال الحكم السابق (وزراء الرئيس عبدالرحمن عارف). نُسبتُ رئيساً للهيئة التحقيقية ونسب كل من الحاكم الأستاذ خضر عبدالقادر واللواء عبدالوهاب القرغولي لعضوية الهيئة. بدأت الهيئة بإجراءاتها القانونية وبدأ التحقيق مع كل متهم على حدة، وكان المتهم جاويد عمر دارز من ضمن المتهمين المحالين على الهيئة التحقيقية.

طلبني وزير الداخلية صالح مهدي عماش ويومها كنت وكيل وزارة الداخلية بالإضافة إلى رئاسة الهيئة التحقيقية وأمرني باستعمال العنف والشدة مع المتهم جاويد عمر وإرغامه على الاعتراف بوجود علاقة وثيقة مع حردان عبدالغفار التكريتي وكان صديقاً له وكلاهما متواطئان ويخططان مع إسرائيل ضد العراق، وبهذه الطريقة نتخلص من الاثنين معاً.

كان حردان التكريتي يوماً نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع.

استغربت من طلب الوزير غير القانوني وقلت له بأنني لم أستعمل الشدة مع المتهمين يوم كنت ضابط شرطة ولم أسمح لنفسني أن ألق وألصق التهم بالآخرين. رجوته إعفائي من رئاسة الهيئة التحقيقية، ولما رأى جدية موقفي وامتعاضي من هذا التكليف سكت ونظر إليّ باستغراب. خرجت منه مهموماً، بعد فترة نسب المقدم الركن سامي خليل - وهو قريب الوزير صالح مهدي عماش - رئيساً جديداً للهيئة التحقيقية بدلاً مني. سلمته كافة الأوراق التحقيقية وحذرت من مغبة استعمال التعذيب والعنف أثناء التحقيق أو تليف الاعترافات. قلت له هذا يسيء لسمعتك وسمعة النظام ويسيء لشرف وأمانة المهنة.

قبل تسليم مهام رئاسة الهيئة التحقيقية إلى خلفي، أبرقت إلى وزير الدفاع حردان التكريتي طلبت منه إطلاق سراح المتهم جاويد عمر دراز. وفعلاً أطلق سراح المتهم، وكانت الهيئة التحقيقية مرتبطة به حسب قرار مجلس قيادة الثورة. بعد فترة وجيزة وبنفس يوم إطلاق سراح المتهم المذكور أعيد إلى التوقيف ثانية في قصر النهاية، ولم أعرف الجهة التي ألغت قرار إطلاق سراحه.

وضعت الهيئة التحقيقية تحت رئاسة جديدة، وجرى التحقيق مع الموقوفين بأسلوب جديد وبتوجيه من ناظم كزار كونه مسؤول عن قصر النهاية يعاونه عدد من زملائه وقد أمعنوا جميعاً بتعذيب المعتقلين.

خلق موقفي هذا بداية صراع بيني وبين تيارين متضارين، شعرت بحراجه موقفي حين اتصل بي وزير الدفاع حردان التكريتي تلفونياً قائلاً: (ليش يا أبو ليث تشتمني وتنش أبوية في مجالسك يومياً؟) أثارني هذا العتاب المر الصادر عن رجل قائد وأنا أكن له كل احترام لمواقفه الوطنية، رجل جمعتني به روح أخوية في ثورة ١٩٦٣ وفي حركة ١٩٦٨. قلت له: يا أخي يا أبو سعد أنا لن أنسى مواقفك الأخوية يوم الشدائد، وكان صوتك أول صوت يكلمني تلفونياً صبيحة ١٤ تموز ١٩٦٨، ولعلمك أنني مواظب ليل نهار في وزارة الداخلية ولم أترك الدائرة قبل الساعة الثانية عشر عند منتصف الليل، فليس لي مجالس ليلية ولا أصحاب حتى أشتك وأنال منك ومن أبيك. والله إنها تهمة باطلة، مروجوها أعداء لك ولي، وأرجوك أن تحضر الشخص

الذي نقل لك هذه الفرية أمامي وفي مكتبك حتى يسود وجهه وتبان لك الحقيقة. رد عليّ قائلاً: واللّه يا أبو ليث يبدو هناك من يريد الإيقاع بيني وبينك، ويبدو هناك من يخطط لهذه الخصومة. كان موقفني الصريح مع عماش يوم رفضت طلبه تعذيب جاويد واتهام رجل الثورة حردان بالعمالة مع إسرائيل، استدعى هذا الموقف زرع الخصومة مع من دافعت عنه وحميته.

شظايا الاضطراع:

كان موقفني في ثورة رمضان عام ١٩٦٣ عروس الثورات واضحاً ومميزاً من قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي. يومها كان الرفيق علي صالح السعدي أمين سر القيادة القطرية، كنت موالياً ومناصرراً للقيادة، ووقفت سنداُ لرئيس الوزراء السيد أحمد حسن البكر لكونه رجل أمين وصادق وله حس وطني مرهف، واتسمت مواقفني بالالتزام الشديد للشرعية، وبهذا الموقف كسبت ثقة ورضا الرئيس أحمد حسن البكر منذ عام ١٩٦٣ وتوطدت وتعمقت الثقة بيننا عام ١٩٦٨. كلفني الرجل بكثير من المهام، وكنت عند حسن ظنه، واستمرت العلاقة تتوطد بيننا رغم شغب وفساد الآخرين ولم يعكروا صفو هذه العلاقة تعدد الوشايات والافتراءات.

دعاني الأخ شفيق الدراجي رئيس ديوان القصر الجمهوري في داره على عشاء، وكان مدعواً معي كل من صالح مهدي عماش والرفيق حماد شهاب والرفيق المرحوم نعمة النعمة. فاجأني الرفيق حماد شهاب بمعلومة، قال لي: كل يوم تصلني مجموعة رسائل عليها شعار الحزب أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، وجميع الرسائل تحمل معلومات تشين لسمعتك وظيفياً وتمس علاقاتك الشخصية، وفيها كل ما يسيء لك. ضحكت وقلت له: يا أبو رعد، الحزب حزبي والرفاق أهلي ولا أصدق أن يتجرأوا ويكتبوا ويلفقوا على رفيق خدم الحزب والدولة بكل إخلاص وصدق. قلت: أنا أعتبر نفسي بعثياً مناضلاً. ورد عليّ: واللّه هؤلاء ربيعك، والعتب عليهم واللّه يساعذك، على ما يبدو يريدون إحراقك. وقلت في نفسي: (واللّه جاعتك أول شظية) بسبب رفض طلب الوزير عماش وبسبب عدم تليفيق التهم لضرب الرفيق حردان النكريتي، وتوقعت شظايا أخرى مادمت ثابتاً وجاداً بموقفني.

وأخرى يوم كنت أصطف مع كبار رجال الدولة لإستقبال أمير الكويت، كان العقيد محمد علي سعيد يقف إلى جانبي، وإذا باللواء الركن حميد السراج يوجه خطابه لي، يقول: اتصلت بي إحدى النسوة ودعتني للحضور إلى جلسة ليلية حمراء يحضرها أحمد أمين، ورجته أن يحضر إلى منزلها لتكمل السهرة سوية. استفزني قول هذا اللواء وأجبتته: أنت مدير شرطة عام، وبرتبة عسكرية عالية، كيف تسمح لنفسك أن تهزأ بك ساقطة؟ لماذا لم تذهب إليها كي تتحقق من قولها وأنت تعلم أن دوامي ليل نهار في وزارة الداخلية؟ وليالي الحمراء مع شؤون الدولة وحماية المواطنين وليس مع الساقطات. قلت: لولا حراجة الموقف لكان ردي عليك أكثر ملائمة لهذه الشتيمة، وأقسمت وقلت: والله هؤلاء الساقطات ربعك، ولو لم يكونوا كذلك لما اتصلت بك هذه الساقطة. وأشاح بوجهه عني دون أن ينبس ببنت شفة وقلت في نفسي: والله يا أبو ليث هذه شظية أخرى.

وواحدة أخرى، اتصل بي الأخ اللواء الركن ناجي طالب رجاني أن أرتب لقاء مع الوزير عماش. أخبرت الوزير بطلب السيد ناجي طالب وقال لي: أنا سأتصل به، ونقلت رأي الوزير للأخ ناجي طالب. وبعد ثلاثة أيام عاود ناجي طالب الاتصال ثانية وطلب مني نفس طلبه الأول. أبقيت سماعه الهاتف مفتوحة وأبلغت الوزير بطلبه. رد علي الوزير قائلاً: سأتصل به ولا داعي للتكرار. نقلت رأي الوزير إلى الطرف الآخر -وكان ينتظر مني جواباً- وانتهت المكالمة.

في مساء أحد الأيام صادفني الأخ ناجي طالب وكان برفقة الأخ رجب عبدالمجيد في مدخل نادي المنصور، سلمت عليهما بحرارة، فأجاب الأخ رجب عبدالمجيد بمثلها ولكن أشاح الأخ ناجي طالب بوجهه عني. استغربت من موقفه هذا وكنت حسن الظن به وأكن له كل احترام وتقدير. تلافى الموقف السيد رجب عبدالمجيد وعصر يد ناجي طالب فرد علي بعد هذه اللمسة بسلام فاتر فيه شيء من العتب. قلت للأخ ناجي طالب: يبدو أنك زعلان علي. قال: نعم، طلبت منك تنظيم موعد مع الوزير عماش وإذا بك تنتقل الخبر إلى أحمد حسن البكر وتضع علامة استفهام على طلب المواجهة. ضحكت وقلت له: من أفضى لك بهذه المعلومة الكاذبة؟ رد علي قائلاً: الوزير نفسه صالح مهدي عماش. سكتُ وفوضت أمري إلى الله وقلت: (رجل بهذه الرتبة

العسكرية الرفيعة واستلم منصب رئيس وزراء العراق تنطلي عليه هذه الفرية ويعتبر الأمر حقيقة). كان عليه أن يفاتحني في حينه، وتركته وذهبت ولم أسلم عليه ثانية كلما صادفته. وهذه شظية أخرى أدمت خاطري.

لم أنجو من إصاق التهم ونبال الخسة لاحقتني أينما ذهبت مادمت أميناً على علاقتي برئيس الجمهورية أحمد حسن البكر أمين سر القطر لحزب البعث. لاحقتني يوم كنت سفيراً للعراق في عمان وقد نسب العقيد جاسم الغاضري ملحقاً عسكرياً فيها. بعد أشهر من استلام هذا الرجل لمنصبه أُحيل إلى التقاعد، وكانت علاقتي به محدودة، وروتينية، وبحدود واجبات الوظيفة. زارني العميد الركن إسماعيل تايه النعيمي وسأل عن أسباب إحالة الملحق العسكري جاسم إلى التقاعد طالباً مني معاونته والعمل على إعادته إلى الخدمة إن أمكن ذلك. وعدته خيراً وقلت له: سأعمل على إعادته عند أول مقابلة لي مع السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر. وبعد أيام زارني العميد إسماعيل في مكتبي في السفارة وقال: يا أبو ليث، علمت من شخص مسؤول كبير بأنك طلبت إحالة الملحق العسكري إلى التقاعد. قلت له بعد ضحكة ساخرة: عرفت مصدر معلوماتك، لا بد وأن وزير الداخلية صالح عماش زدك بهذا الرأي. ضحك وقال: والله هذا صحيح. وقلت له: والله لن أقابل الرئيس البكر ولن أفي بوعدتي ولن أتوسط لهذا الرجل.

وهكذا لاحقتني سهام الغدر والخسة وأنا خارج العراق وقلت هذه شظية أخرى عليّ أن أتقبلها مادمت محافظاً على التزاماتي بالشرعية الحزبية وأمانة الوظيفة وليكن ما يكون.

استلمت برقية من بغداد عندما كنت سفيراً في يوغسلافيا، "يصلكم العميد الركن عبدالمنعم..." استقبلته، وكانت مهمته إلقاء محاضرة على كبار الضباط اليوغسلاف تخص موقف الجيش العراقي بحرب عام ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل. كان هذا الرجل موفقاً بمحاضرتة وقد ألقاها باللغة الإنكليزية - وكان يجيدها-. وفي يوم من الأيام -يوم كنت متقاعداً- مر بي العميد عبدالمنعم دون تحية. سارعت وقلت له: عفواً (مو أنت العميد الركن عبدالمنعم؟). قال: نعم. قلت له: أنا أحمد أمين سفير العراق في يوغسلافيا ألا تذكر ذلك؟ رد عليّ معاتباً: لم كتبت عليّ تقريراً مشيناً يسيء

لسمعتي؟ فقد أحلت إلى التقاعد بسبب موقفك هذا. استغربت، بل تأملت كثيراً، فقد أصاب مقتلاً مني لأنني كنت سبباً في ضياع مستقبله. قلت له: محاضرتك كانت ناجحة وتخص الموقف العسكري وليس لي حق بتقييم هذه المحاضرة، إنني لست عسكرياً وليس لي اطلاع على المعلومات التي حوتها محاضرتك، فكيف لي أن أقيم موضوعاً لا خبرة لي فيه، ليس هذا من واجبي أيضاً، وهل تعتقد أنني بهذه الأخلاق حتى أسيء لك وأنت على حق؟ رد عليّ بعدم الرضا وقال: هذا ما سمعته من مسؤول كبير في الدولة وهو لا يكذب ولا يفتري عليك. سكتُ وتركته صامتاً وقلت: ألسنة الهدم ستلاحقك يا أبو ليث مادمت تسير في خط وتيار غير تيار الآخرين والله في عونك مادمت على حق.

هذه أمثلة حية من عشرات التهم وعشرات النبال والشظايا التي أصابتنني دون مقتل، ولا أريد هنا أن أذكر أضرار هذه التهم فقد يطول الحديث وتضيع أهمية هذه المذكرات، فقد كتبتها بدمي وبعرق جبينني ودفعت ثمناً غالياً بسببها ولكنها أكسبتني خبرة واسعة في نفسية البشر وهموم السياسة. ولا بد لي أن أتحمّل الكثير من رجال السياسة في العراق، فهذه مصيبة البلدان النامية.

لدي الكثير من هذه الأحداث، وأقول: حسبي الله ونعم الوكيل، والله في عون سياسة العراق أيام الحكم الملكي وما تلاه، فقد ظلّموا وشتموا ظلماً وعدواناً بسبب مواقفهم وخدمتهم لأمتهم وعراقهم، وراحوا ضحية جهالة الآخرين.

قدمت لحزبي ولوطني من التضحيات ما أقدر عليه، وهي على كل حال أعلى وأثمن ما أملك. استذكرت أيام السجن في عهد الزعيم عبدالكريم قاسم عام ١٩٦٢ وتعاقبت عليّ الذكريات أيام المحنة، أيام النضال، أيام فقدان وظيفتي وأيام الجوع والعوز. كدت أفقد ابني الصغير ابن الأعوام الثلاث (سيف) يوم رفض الطعام نهائياً عندما اعتقلت وكأنه يعلم أنه سيفقد أبيه، وكانت علاقتنا متينة جداً. عاش الطفل المسكين على المغذي وهو في مشفاه. سألت أمه عندما زارتنني أول مرة وأنا في سجنني بعد مضي ستة أشهر من العزلة. سألتها عن (سيف) وأسباب عدم اصطحابه لأراه، فاعتذرت قائلة: لقد فضل أن يلعب مع أقرانه راقضاً المجيء. وبعد أشهر زارتنني أمه مصطحبة (سيف) وكان في حال يرثى لها، وأخبرتني بالحقيقة، وقالت: كذبت عليك،

لقد كان مريضاً ولا يقدر على السير بسبب اعتقالك. قلت: كل هذه التضحيات وسهام الحقد ونبال النذالة تلاحقني. الله في عونك يا أبو ليث وفي عون أمثالك من المناضلين. كل هذه الأحداث بسبب موقفني من الشرعية القائمة وموقفني الحيادي.

اختلاف في الرأي:

بعد ١٧ تموز عام ١٩٦٨ وعند استلامي منصب وكيل وزير الداخلية، قدمت الشعبة السياسية ملف يخص ثلاثة من الرعايا الأميركيين. هؤلاء كانوا متنكرين بزي رجال الدين، بلحية وعمامة جعفرية. عند تصفح الملف وجدت أرقام جوازات سفرهم وأسماءهم الحقيقية مدرجة فيه، كما أشير إلى أسمائهم المستعارة. عرض الموضوع على رئاسة الجمهورية أيام الرئيس عبدالرحمن عارف وقرر تسفيرهم خارج القطر طالباً من وزارة الداخلية تنفيذ القرار. أشارت تقارير الأمن وجود هؤلاء الثلاثة المتنكرين في كربلاء متستريين بثياب رجال الدين، يتكلمون اللغة العربية بلكنة أجنبية، وكثيراً ما يتواجد من رجال دين من دول إسلامية في المدن المقدسة يتكلمون العربية بلكنة أجنبية. وبهذا التنكر يتم لهم تمشية أمورهم وإيهام المواطنين بأنهم سادة من دول إسلامية. عرضت الموضوع على الوزير صالح مهدي عماش طالباً منه الموافقة على تسفيرهم خارج القطر والإيعاز لمديرية الأمن العامة لتنفيذ ذلك. عادت الأوراق وعلى صدرها كلمة تحفظ. لست أدري لماذا انفعلت، عندما قرأت ملاحظة الوزير رميت الملف بقوة بوجه الموظف البريء دون قصد الإهانة لكنها حالة من حالات الغضب والتهور دون قصد. اعتذرت من الموظف عما فعلته ورجوته أن لا يعرض عليّ مثل هذه الأمور ثانية. ومنذ تلك الحادثة بدأت أتحاشى الدخول في مكتب الوزير وظل التباعد بيننا يتزايد حتى وصلت لحد القطيعة وبعدها نقلت إلى وزارة الخارجية. تنفست الصعداء وخفت موازين أعمال وزارة الداخلية التي أثقلت كاهلي. يومها كنت أعمل ليل نهار دون انقطاع وبلا شكر وبدون تقدير وبإيذاء السيد الوزير.

موقف إنساني:

اتصل بي الرئيس البكر وطلب مني زيارة المرجع الديني السيد محسن الحكيم في الكاظمية مصطحباً معي أمين العاصمة إبراهيم محمد ومحافظ بغداد خير الله

طلفاح لأقدم عرض الحكومة العراقية لاستشفائه خارج القطر في إنكلترا أو أي دولة يرتأيها سماحة الشيخ، وأشرت إلى حقه في العلاج على حساب الحكومة العراقية لأنه عراقي و ذو منزلة دينية رفيعة وليس من حق أي دولة أخرى تؤثره على العلاج وعلى نفقتها مادام العراق بخير وشيخه بخير. شكر سماحة الشيخ الحكومة العراقية وشكرني على ما عرضته عليه. نهض من على سجادته الصغيرة مودعاً لي ولرفاقي أعضاء الوفد بعد أن أشار أن ليس في نيته السفر خارج العراق في الوقت الحاضر، كما أكد أن ليس هناك عرض آخر من أي دولة أجنبية أخرى. تمنيت له الصحة الوافرة والعمر المديد وخرجنا.

إجراءات متشنجة:

أصدر وزير الداخلية صالح مهدي عماش أمره إلى محافظ بغداد ومدير الشرطة العام فاضل العساف للقيام بصبغ سيقان النساء. وفعلاً انتحى كل واحد منهما شارعاً عاماً ومعهما ثلة من الشرطة. بدأوا بصبغ سيقان النساء. استمر العمل يومين على هذه الوتيرة دون علمي. أعلمني أحد الإخوان بهذا الإجراء، وفعلاً كان إجراءً مستغرباً. دخلت على وزير الداخلية ونقلت له ما سمعته، وعلى ما يبدو كان مقتنعاً بهذا الإجراء، وقال: لا عليك، بهذه الطريقة سنقضي على اللباس الخليع القصير، سنضطرهم إلى اللباس المحتشم. حاولت إقناعه باتخاذ إجراء آخر تحقيقاً لهذا الهدف إلا أنه لم يقتنع برأيي. وفي اليوم التالي أوقف الوزير حملته هذه بضغط من جهات أخرى ومن أناس آخرين يؤثرون عليه منهم الشاعر محمد مهدي الجواهري وقد أرخ الأفعال هذه بقصيدة عصماء ناقداً فعلة وزير الداخلية.

قابلني مدير شرطة الانضباط فؤاد طه الأحمد وعرض عليّ توقيف طالبة كلية كانت في طريقها للجامعة بأمر من وزير الداخلية صالح مهدي عماش. حشرت الطالبة في سيارة الحماية وأودعتها في موقف شرطة الانضباط. ظلت الطالبة تبكي بحرارة وتندب حظها، فقد أزعجها التوقيف وتهيبت من نتائجها. درست الموضوع وأخذت أفكر بطريقة يتقبلها الوزير لإنقاذ الموقف المرحج للطالبة. دخلت على الوزير وكان يهاتف رئيس جامعة بغداد طالباً منه إصدار أمر بفصل الطالبة لأنها ترتدي

تنورة قصيرة وأن مظهرها العام غير محتشم وطلب من رئيس الجامعة تعميم قرار الفصل على كافة الكليات. بعد انتهاء مكالمته الهاتفية كلمته بهدوء مصطنع مع ابتسامة خفيفة كي أخفف من حدة غضبه. رجوته أن يفك إيسار الطالبة من التوقيف واقترح أن يصار إلى لباس موحد لكافة الطلاب والطالبات كما كان معمولاً به أيام الحكم الملكي. وبهذه الطريقة نحقق رغبة الوزير ويلتزم جميع منتسبي الجامعة بالاحتشام. وافق الوزير على الرأي ووافق على إطلاق سراح الطالبة وكانت من عائلة معروفة ولها إخوة وأخوات، وذهبت الضحية باكية إلى غايتها.

تقدير وتكريم

اتصل بي الرفيق شاذل طاقة تلفونياً وقال: هيبك نفسك للسفر إلى ألمانيا الديمقراطية. كان ذلك قبل نقلي من وزارة الداخلية إلى وزارة الخارجية. أبهجني الخبر وكنت بمسيس الحاجة إلى الراحة والاستجمام بعد أن أثقلني العمل بوزارة الداخلية، وأردف الرفيق شاذل قائلاً: إن هذا هو قرار الحزب، فأجبت بالترحاب والسرور ولم أخفي غبطني بما سمعته. وفعلاً حزمت أمري وتولت على الله.

سافرت إلى ألمانيا الديمقراطية -إلى برلين الشرقية- وهناك جرى لي استقبلاً حافلاً. وبعد مراسيم الاستقبال بدأ العمل وفقاً للمناهج المعد للزيارة. تضمن المنهاج احتفالاً نقلت فيه وساماً ذهبياً رفيعاً صادر عن جمعيات صداقة الشعوب. وبعد مراسيم الاحتفال بثلاثة أيام وصل وزير الخارجية عبدالكريم الشихلي إلى برلين الشرقية وكنت في استقباله. كانت الزيارة تهدف إلى تمتين العلاقة مع ألمانيا الديمقراطية.

هذه الخطوة باكورة النشاط السياسي للحكومة العراقية. كان غطاءً سياسياً معبراً عن اتجاه الحزب الاشتراكي لتغطية نوايا بعض القياديين المنتفذين في قمة الهرم في الحزب، وكانت وسيلة من الوسائل الكثيرة لغسل أدمغة الجماهير المتدفعة وراء الحركة بعفوية أو بانتهازية، المهم بنظر القيادة الكسب العاجل وتسويق أفكار الحزب بشكل يرضي طموحاتهم.

كانت هذه الوسيلة باكورة عمل الحزب والنظام الجديد على مستوى السياسة

الدولية. فتحت أبواب الدول الاشتراكية وتلقت المبادرة بشوق شديد وبرضى عارم واحتضنت العراق بأذرع الترحاب والفرح.

اندفع النظام الجديد يشتري بسخاء الأسلحة السوفيتية النافعة وغير النافعة، الحديثة والقديمة كي يبرهن على صداقته الحميمة للدول الاشتراكية. لم تكن الأسلحة البضاعة الوحيدة التي سوقها الاتحاد السوفيتي للعراق، بل سوق كل ما لديه من أساليب العنف والترويع المتبعة في دوائر أمنهم.

فرح العراق بهذا الانفتاح المبهج فأوفد العشرات تلو العشرات -ممن يعتمد عليهم- للدرس والتعليم.

جهود غير مثمرة:

استلمت العراق قيادة جديدة بعد أن سيطرت حركة ١٧-٣٠ تموز عام ١٩٦٨ على القصر الجمهوري وسفر رئيس الجمهورية عبدالرحمن عارف الرجل الزاهد إلى خارج العراق. اتخذ هذا الرجل قراراً لتسوية الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة مدفوعاً بتربيته الدينية وبقليه الطيب. عرفت هذا عندما زارني الشيخ الأعظمي (وعلى ما أعتقد اسمه الأول عبدالوهاب). قاتل الله النسيان، لقد مضى على الحادثة هذه أكثر من ثلاثين سنة، فعذراً لذاكرتي إن سقط اسم هذا الشيخ منها، وليكن الشيخ عبدالوهاب الأعظمي. زارني في ديوان وزارة الداخلية عندما كنت وكيلاً للوزارة فيها عام ١٩٦٨ ، أراد أن يستأذن قيادة الثورة إذا ما وافقت على الاستمرار بدوره المكلف به من قبل الحكومة المعزولة لإتمام رتب الخلاف المذهبي بين المذهبين، وقال: قطعنا شوطاً متقدماً مع شيوخ كربلاء والنجف واتفقنا على كثير من الأمور. كان هذا القول موضع تقدير واحترام مني فشجعت على الاستمرار بجهوده الخيرة لتقوية لحمة المجتمع العراقي وسد طريق التفرقة بوجه أعداء العراق وأوعده خيراً وقلت له: سأعرض الأمر على عضو مجلس قيادة الثورة الفريق صالح مهدي عماد وزير الداخلية وسوف أبلغك برأيه. وفعلاً رفعت الأمر للسيد الوزير مع توصيتي بالإذن للشيخ الأعظمي بإتمام مهمته.

رفض وزير الداخلية العرض وطلب صرف النظر عن الموضوع دون تبرير أسباب

الرفض. وطويت صفحة النشاط الخير لرجال الدين وأبلغت أمر الوزير للشيخ الأعظمي عند زيارته التالية.

رفض آخر:

كانت علاقتي بالسيد جلال الطالباني متينة تمتد إلى ما قبل حركة ١٧-٣٠ تموز يوم كنا نعمل سوياً لبناء الجبهة الوطنية والقومية التقدمية حيث كان النشاط قائم على قدم وساق مع الاتحاد الوطني الديمقراطي الكردستاني والحزب الوطني الديمقراطي الكردستاني والحزب الشيوعي وبعضاً من القوى القومية المنفرطة.

قدم السيد جلال اقتراحاً أبدى فيه استعدادَه لتوطيد علاقة حزب البعث العربي الاشتراكي العراقي باتحاد الطلبة الإيراني، وأبدى استعدادَه للقيام بهذا الدور لعلاقته الجيدة مع قيادة هذا الاتحاد. كان العرض عام ١٩٦٨.

انطلق السيد جلال الطالباني بعرضه هذا من مناوئته لشاه إيران الحاكم المطلق يوم كان شاهنشاه أريامهر ملكاً على عرش الطاووس. امتدح الأخ جلال اتحاد الطلبة الإيراني وكان نشاطه ملحوظاً وفعالاً في أوروبا وفي الأقطار الأخرى. عرضت الاقتراح على السيد وزير الداخلية صالح مهدي عماد كتابة مع توصيتي بالموافقة على اقتراح السيد جلال وجاء الرفض من قبل الوزير دون أن يعرض الاقتراح على مجلس قيادة الثورة بل كانت رؤيته الشخصية. أبلغت السيد جلال الطالباني بالأمر عند الاجتماع التالي به حيث كنا نجتمع أسبوعياً لتوطيد الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

المؤتمر القطري:

عقد الحزب مؤتمراً قطرياً بعد نجاح حركة ١٧-٣٠ تموز عام ١٩٦٨. أعدت قوائم المؤتمرين وكان عددهم تسعون عضواً. امتدت يد الثأر وأثارت نقاشاً حول الرفيق محمد المشاط وارتأت القيادة استبعاده لأسباب تتعلق بجنسيته. جرت العادة في مثل هذه الأمور إيجاد غطاءً مقبولاً لئلا يزعج الأمر الرفيق محمد المشاط ومواقفه عام ١٩٦٣. كانت له علاقة حزبية متينة منذ كان يدرس الدكتوراه في أمريكا. اختير أحمد أمين كيش فداء لاستبعاد رفيقه معللين وجود أوجه شبه متماثلة بين المبعدين الاثنين، كلانا أعضاء مكتب سياسي ونعمل على إنضاج الجبهة الوطنية والقومية التقدمية

والتقارب العمري والثقافي أيضاً. لم يكن لدينا علم بإنعقاد المؤتمر، كما لم نبلغ بالحضور.

شاعت قناعة الوزير صالح مهدي عماش أن يبلغني بحضور المؤتمر أنا ورفيقي محمد المشاط كمراقبين وليس كمؤتمرين. اعتبرت هذا قرار الحزب، واصطحبت الرفيق محمد إلى قاعة المؤتمر في المجلس الوطني في كراة مريم. جلسنا يسار القاعة - وكان هذا اقتراحي - لم نشارك في الانتخابات كما لا يحق لنا الترشيح. أنجز المؤتمر أعماله وانتخبت قيادة جديدة وارتفع عددهم من ثمانية إلى اثني عشر عضواً. لم يكن المقصود بالإبعاد الرفيق محمد المشاط، لكن شرارة الحقد قدحت فصاغت الفرية وانطلت على أعضاء القيادة ممن لا علاقة لهم بالأمر.

كيف يستبعد أعضاء مكتب مهم؟ وكل منا مسؤول تنظيمات حزبية مهمة؟ يومها كنت أمين سر قوى الأمن الداخلي وهو منصب رفيع في حزب البعث العربي الاشتراكي بالإضافة إلى عضويتي في المكتب السياسي.

استدرك الحزب الموقف إذ عيّنت بقرار عضواً في المكتب العسكري بالإضافة إلى مسؤولياتي الحزبية. كانت تسوية مقبولة من قبل القيادة لتغطية الفرية المفتعلة. وفي المكتب العسكري قدمت أسماء قيادة مكتب قوى الأمن. اعترض أمين سر المكتب العسكري أحمد حسن البكر على أحدهم وقال: يا أبو ليث، ألم تتعظ من أحداث السجن عام ١٩٦٢ وموقف هذا الرفيق من الحزب ومنك شخصياً؟ أجبت: هذا صحيح، ولكن أردت أن أعطيه فرصة ثانية لعله يرعوي. وشطب اسم إرضاءً لأمين سر المكتب. رد عليّ بغضب وقال: لا أوافق على شطب اسمه وليبق اقتراحك حتى يلدغك ثانية وثالثة لأن هذا الإنسان جُبل على الإيذاء. لقد صدق ما قاله، وقلت والله لا يلدغ المرء من جحر أكثر من مرتين، وبدأت أعزي نفسي بالآية الكريمة (قل كل يعمل على شاكلته)، وثبت لي فشل مقولة (عفا الله عما سلف) والصحيح هو (من شب على شيء شاب عليه).

في وزارة الخارجية:

صدر قرار تنسيبي سفيراً للعراق في طهران، رحبت بهذا التنسيب وكان موضع اعتزازي وسروري معاً. هيات نفسي فكراً وأعدت كل ما يلزم من قراءة كتب لمعرفة إيران شعباً وأرضاً وملكاً. قابلني السفير الإيراني في بغداد وسألني: هل تعرف إلى أين نسبت؟ ضحكت وقلت: طبعاً إلى طهران. قال: إنك ذاهب إلى باريس الشرق، ويبدو أنك محظوظ. شكرته، ولم تدم فرحتي وابتهاجي حيث صدر الأمر بسحب السفير العراقي احتجاجاً على موقف إيران من العراق، كان ذلك عام ١٩٦٩، حيث لم يكن بين البلدين ما يعكر صفو العلاقة.

حدث هذا كما حدث في المرة السابقة يوم كانت الحكومة العراقية عازمة على تنسيبي إلى برلين. جاءت فرصة شياطين الأرض يوم نسبت سفيراً للعراق في عمان، أسفت لهذا التعيين في حينه، ولكن الله أراد ما لم يكن بالحسبان يوم استلمت منصبي في عمان وقد نقل كل منتسبي السفارة في الأردن قبيل وصولي إلا موظفاً واحداً لا يعلم عن الشؤون الخارجية إلا الانتفاع الشخصي والنميمة.

إن ثقتي بنفسي كانت أقوى من خصومي، وإيماني بالله كان قوياً. استلمت المنصب وكلي ثقة بنجاح المهمة. جاء مشروع روجرز ووقفت بوجهه سداً منيعاً وقد عارضته وأقنعت حكومتي برأيي إلا واحداً هو ذلك الشخص الذي وجد فرصته في هذا التنسيب لأن عمان كانت تغلي وكأنها مستودع بارود وأعتقد بأنني سأحترق في هذا البلد. لبيت نداء الوطن ونداء أمتي وحميت الأردن من السقوط، وبقي مشروع روجرز حبراً على ورق. من يقف بوجه مشروع دولي كبير عليه أن يدفع الثمن. تحملت كل ما يترتب من مسؤولية عن موقفي، كان الله في عوني وعون كل الأشراف من مناضلي العرب والإنسانية، وظلت النميمة تلاحقني أينما ذهبت وأينما حللت، ولفتني الأقاويل والإشاعات برداء الباطل، وبقي الحق جلياً زاهياً. وأخيراً قلدت أرفع وسام من الحكومة الأردنية وخاب فال الشيطان.

نكران الجميل:

رحبت بزيارة الرفيق المناضل علي صالح السعدي في مكتبي بوزارة الداخلية. كان ترحيباً حاراً أخوياً مؤكداً على علاقتي الصميمية به، كان خارج الحزب وبلا وظيفة. طلب مني مقابلة الوزير صالح مهدي عماش، دخلت على الوزير وأبلغته بالأمر فقال الوزير: أمهلني بضع دقائق (وخليه يكعد يمك). أبلغت الرفيق علي بذلك، وبعد دقائق دخل علي حارس الباب الشرطي وأنبأني بانصراف الوزير. أخرجني الموقف كثيراً واعتذرت من الرفيق المرحوم علي صالح السعدي وتألم كثيراً وهو محق بتأسفه لأنها وزارته السابقة وأمين سر قطر حزب البعث. كان ذلك موقفاً مخجلاً لي أمام الضيف، ووعدت نفسي بأن لا أخوض في وحل المواقف الحرجة. ومنذ ذلك الموقف وإلى أن تركت الوزارة لم أدخل غرفة الوزير ولم أكلمه في أمر وظيفي، وكانت الأوراق الرسمية الوسيط الوحيد الذي يربطني به وعللت نفسي بالقول (لكل امرئ من دهره ما تعودا).

أصابع خفية أقوى من القيادة:

المعلومة الأولى:

تمتد علاقتي بالرئيس البكر منذ عام ١٩٦٢ يوم وقعت تنظيمات قوى الأمن الداخلي بيد رجال الأمن. تأثر البكر كثيراً لهذا الإسقاط وكان حزينا كما صرح لي بذلك وأسف كثيراً لرؤية شبابه وقواه الفاعلة تدخل السجن في ظروف تحتاجها الثورة التي يعد لها هذا القائد. أخذت علاقتي به تتقوى وتتحسن سواء عندما كنا في السلطة أو أيام النضال السري. قويت العلاقة وأصبحت الثقة العملة الوحيدة التي تربطني به حتى صرت محسوباً على مجموعة البكر ومن المقربين منه. هذه الثقة دعنتني إلى ترشيحي إلى منصب جديد مستحدث كما يراه هو. المنصب الجديد المقترح أن يصار إلى موظف بعثي عسكري كفوء يقوم بتنسيق العمل والإدارة بين القيادات العاملة في محافظة البصرة. وعلى ما يبدو أن التنافس بين محافظ البصرة وكل من مدير الموانئ العام وأمر موقع البصرة العسكري وأمر القاعدة البحرية أخذت

بالتطور، لذلك حررت رئاسة الديوان كتاباً رسمياً إلى وزارة الخارجية طالبة ترشيح أحد السفراء البعثيين بدرجة متقدمة في الحزب ومن العسكريين.

أجابت وزارة الخارجية على طلب الرئاسة مرشحة ثلاثة من ضباط الجيش. أعيد الكتاب للوزارة لعدم إدراج اسمي ضمن الأسماء الثلاثة، فاضطرت وزارة الخارجية إضافة اسمي حسب طلب رئيس الديوان طارق حمد العبدالله. روى لي عبدالملك الياسين هذه الحادثة عندما كان وكيلاً لوزارة الخارجية وشرح لي مهمة المنصب الجديد وأكد إصرار رئاسة الديوان على ترشيحي لهذا المنصب. انتظرت الأيام القادمة لتأتي بما اشتهاه السيد رئيس الجمهورية، ولكن لم يصدر قرار الرئاسة وذهب الاقتراح أدراج الرياح. لِمَ ولماذا؟ كان ذلك عام ١٩٧٧ .

المعلومة الثانية:

استلمت كتاباً من رئاسة جامعة البكر فحواه إلقاء محاضرات عن الأمن القومي على طلاب الجامعة. زرت رئاسة الجامعة وقابلت السيد اللواء المسؤول عن الإدارة وشرح لي المهمة الجديدة، رجوته إعفائي من هذه المهمة. تدخل العميد الركن خالد ورجاني أن أتقبل المهمة واعتذرت أيضاً رغم علاقتي الطيبة معه. كان سبب رفضي لهذا الطلب مبرراً لأنني رشحت رئيساً لهذه الجامعة من قبل السيد رئيس الجمهورية إلا أن الترشيح ذهب أدراج الرياح، فوجدت في الطلب الأخير كمحاضر تحجيم وتقليل من اهتمام الثورة بي. كنت على علم مسبق بهذا الترشيح لرئاسة الجامعة، كان ذلك عام ١٩٧٧ لذلك رفضت أن أكون محاضراً.

المعلومة الثالثة:

اتصل بي تلفونياً محي الدين عبدالوهاب وكان يشغل يومها معاون مدير المخابرات العامة الشعبية القانونية والإدارية. أعلمني بأن مرسوماً جمهورياً حرر في الرئاسة، ونقله شخصياً إلى رئاسة الجمهورية وطلب مني الاستماع إلى التلفاز. سألته عن المنصب الرفيع الذي تمناه وباركني عليه، رفض الإفصاح عنه. أردت استدراجه وقلت له: لعل المنصب وكيل وزارة الداخلية. قال: لا أكبر. فقلت: لا بد أنه مدير أمن عام وهذا ما لا أرغب فيه. قال: لا أكبر من ذلك. قلت: لا بد وأن يكون استيزاري لوزارة

الداخلية. فقال: الأفضل أن تستمع للخبر من التلفاز. ورفض أن يبوح بسر القرار رغم تحريره من قبله كما يدعي. وانتظرت الإذاعة دون جدوى، وذهب الاقتراح أدراج الرياح رغم رغبة السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر. إذأ من هو أقوى من البكر؟

المعلومة الرابعة:

زارني في مكثبي عندما كنت مديراً عاماً لمركز البحوث الاجتماعية والجنائية محي الدين عبدالوهاب وكان يشغل منصب سكرتير لجنة الدفاع القومي العليا بالإضافة إلى وظيفته في رئاسة المخابرات. طلب مني أن أكتب تقريراً أبين فيه علاقتي الحزبية منذ بداية عملي الحزبي كي يعاد لي مركزي الحزبي والوظيفي بما يليق بي. قلت له: أنا لست على استعداد لكتابة أي تقرير لأنني معروف لدى القيادة وهم أعرف بي من التقرير. رد عليّ قائلاً: هذه رغبة رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر وطرح هذا الاقتراح أثناء اجتماع لجنة الدفاع العليا.

رفضت طلبه، وألح عليّ وكرر إلحاحه بضرورة كتابة التقرير، تهربت من طلبه رغم إلحاحه. وأخيراً اهتديت إلى طريقة للتهرب من الطلب، قلت له: أعطني فرصة يوم واحد لأدبج التقرير بشكل يتناسب مع مقام اللجنة. كاد يقتنع برأيي، إلا أنه رد عليّ قائلاً: لا داعي إلى كل هذا التعقيد، المطلوب تقريراً تبين فيه باختصار نضالك الحزبي وتطلب إعادة النظر بمنصبك الحزبي والوظيفي. أكدت له بأن القضية ليست بهذه السهولة، ورجوته أن يترك لي الأمر حتى أكتب له ما طلب مني. انصرف ولم أكتب التقرير وتهربت منه بعد أن أوصيت مسؤولة البدالة عدم السماح له أو لغيره الاتصال بي بإستثناء الوزير -وزير العمل والشؤون الاجتماعية- وكذلك أوصيت أهل بيتي جميعاً بذلك وانتهى المطاف وطويت هذه الصفحة إلى غير رجعة. في الاجتماعات التالية للجنة العليا قال صدام للبكر: ألم أقل لك أن هذا الرجل غير مستعد للتعاون معنا.

المعلومة الخامسة:

صدر مرسوم جمهوري بنقل أحمد أمين محمود المستشار في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية إلى رئاسة الجمهورية رئيساً للجنة المتابعة. كان هذا الأمر قبل ٨ شباط عام ١٩٧٨ بأسبوع. التحقت بوظيفتي يوم ٩ شباط من العام المذكور. قابلت السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر وشكرته على هذا التعيين ووضعت نفسي تحت تصرفه وسأكون عند حسن ظنه. رافقتي لمكتب الرئيس طارق حمد العبدالله رئيس الديوان. قص علي السيد طارق حمد العبدالله سبب نقلي لمنصبي الجديد. قال: لقد عرض اسمك مع بعض السفراء على رئاسة الجمهورية للنظر بإحالتهم إلى التقاعد والسيد الرئيس وافق على المدرجة أسمائهم واستثنائك من الإحالة إلى التقاعد. لقد تكرر مثل هذا الطلب عن طريق القيادة القومية مرة أخرى وعن طريق وزارة الخارجية مرة ثالثة. ولم يوافق السيد الرئيس على الطلب رغم الإلحاح. أخيراً نظر الرئيس إلى طارق حمد العبدالله في اجتماع مجلس قيادة الثورة وقال: إننا بحاجة إلى موظف كفوء في الرئاسة، لذا لا مانع من نقل السيد أحمد أمين محمود إلى الديوان مادامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية غير راغبة فيه. وهكذا تم نقلي إلى منصبي الجديد.

أراد رئيس الجمهورية أن يعرب عن اعتزازه برفاقه القدماء ممن كشفتهم التجربة وممن يستطع التعامل معهم على ضوء تجربته وخبرته النضالية الطويلة، من هنا جاء إصراره على رأيه وكانت أول مرة ينتصر فيها البكر على منافسيه.

المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية:

نقلت من وزارة الخارجية إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية كمستشار للوزارة بمرسوم جمهوري. نسبت إلى المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية. يقوم المركز بالبحوث التي يكلف بها من قبل مجلس قيادة الثورة أو من الوزارة لدراسة الظواهر الاجتماعية والجنائية. يقدم المركز توصياته في خاتمة كل دراسة. لفت نظري عند استلامي هذه الوظيفة فقر مكتبته والتي يعتمد عليها الباحثون بشكل يدعو للأسف والألم الشديدين، كما اعتمد المركز على وحدات بحثية برقم

٤٠٣،٢٠١ شكلت بشكل عشوائي ولم يكن التجميع على أساس علمي. يكلف مدير عام المركز إحدى هذه المجموعات بمهمة البحث كما يراه هو دون الأخذ بنظر الاعتبار الاختصاصات عند إجراء البحوث.

بدأت بتنظيم المركز على أساس الاختصاص وكل حسب شهادته، وتستند البحوث وفق الاختصاص. ولأجل إغناء المكتبة فأتحت المراكز البحثية العالمية والمراكز التابعة للأمم المتحدة، واحداً منها في روما وآخر في طوكيو، وفاتحنا مركز بحثي للدول الاسكندنافية وبريطانيا أيضاً. أثمرت الجهود بشكل رائع حتى امتلأت أدرج المكتبة التي خصصتها بهذه الدراسات في غرفة المدير العام للاستفادة منها والتعرف على طرق البحث وأسلوبه وما تعتمده من توصيات. هكذا استمر المركز القومي بالعمل الدؤوب على أساس علمي منظم.

أنجزت إحدى الوحدات البحثية دراسة معينة بمدينة الثورة وقد تجاهلت الدراسة سكان المدينة وكما يعانون من بطالة كاملة تعيش على اقتصاد العراق دون إنتاج، بالإضافة إلى ما تسببه هذه البطالة الظاهرة والمقنعة من انحرافات أخلاقية واجتماعية كالغش والسرقة والتزوير واحتكار المواد الأساسية والتي يحتاجها المواطن في غذاءه ودواءه. كتبت على صدر الدراسة رأي في تنظيم بغداد. عالجت وضع مدينة الثورة (مدينة صدام). كان اقتراحي ينصب على المراحل التاريخية لمدينة بغداد لإخراجها بثوبها الحقيقي كما مرت عليها الأزمان. وقد رأيت أن تبنى وتجدد مدينة الكاظمية بريادة ونقوش إسلامية عباسية وتجميل شوارعها وحدائقها بما يؤثر على ذلك، وكذلك واجهات البيوت والأسواق.

أما الأعظمية فتأخذ لباساً عثمانياً بمرقدها وجوامعها وهندسة أبنيتها الحكومية والأهلية وبريافة إسلامية عثمانية وتنظيم قاعاتها وساحاتها وشوارعها وبما تطلبه الهندسة المعمارية لهذا الغرض.

وأصاب عكد النصارى -كما يسمى- نصيباً وافراً من مقترحي حتى تظهر الكنائس الكثيرة المبعثرة في أزقة صغيرة ضيقة أخفت معالم الكنيسة التاريخية وتأخذ الترميمات أصولها الكنسية من حيث الريافة والمعمار والنقوش وفق أصولها المذهبية.

أما الباب الشرقي والأماكن المجاورة له كالكرادة الشرقية وغيرها فلها نصيب وافر من العمارة الحديثة والمتجددة تبعاً للتطور العمراني الحديث، وللمعماريين الحرية والإبداع والتفنن كل حسب هواه وكما يراه لأنها منطقة حديثة وتوسعات العاصمة ابتلعت هذه المناطق وحولتها من أراضٍ زراعية إلى أراضٍ سكنية.

أكل الدهر على كل ما اقترحته وشرب أيضاً، وغابت بغداد عن وجهها التاريخي العريق إلى فوضى في العمارة والبناء كما أراد لها كارهي العراق، وقد دفعت ثمناً باهظاً لهذا الاقتراح حيث انبرى إخطبوط الشر يحارب كل من يحب العراق وأهله.

جاءت النتائج معاكسة تماماً لهذا الاقتراح، وإذا بمدينة الثورة تكبر بشكل مرعب عشوائياً، ويات أهلها يتعايشون على اقتصاد العراق دون إنتاج. كانت دراستي حرية بمعالجة الهجرة من الريف إلى المدينة وإبدالها بهجرة معاكسة من العاصمة إلى الريف. وكذلك طالبت بتوسيع المشاريع الزراعية وما يترتب من مصانع تخص الزراعة لتشغيل الأيدي العاملة المعطلة في مدينة الثورة، وبهذا تنتعش المحافظات والعاصمة معاً ويتطور الاقتصاد العراقي مع الزمن. انبرى من لا يرضيه تقدم العراق وإنعاش اقتصاده ورفاه أبنائه. نقلت فوراً بأمر السيد الوزير وكان من قيادتي البعث رغم أنني من حزبه ومن لحمته وسداه لا لذنوب بل لأذرع الإخطبوط أرادت ذلك فاستجاب الوزير لخصوم البعث وخلفني من يجيد السير بالاتجاه المعاكس ولست أدري من سيربح المعركة أخيراً. أكتب هذا لينتفع القراء ويتقوا شر المنافقين والمعارف.

مديرية السجون العامة:

رغم المرسوم الجمهوري القاضي بتعييني مستشاراً لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية إلا أن الوزارة أصدرت أمراً يقضي بتنسيبي وكيل مدير عام السجون، وهذا اعتداء جديد غايته الحقد والغيرة. استلمت المنصب ودرست وضع المساجين بشكل دقيق وأخذت أبنى رأبي على أساس إنساني أولاً لتطوير السجون صحياً واجتماعياً وترفيهياً. طلبت من الجهات الرسمية إبدال اسم مديرية السجون بمؤسسة الإصلاح الاجتماعي كخطوة أولى، وكانت الاستجابة إيجابية والحمد لله، وبدأ تطوير

السجناء من أناس وراء القضبان منزولين ومعزولين إلى أشخاص لهم امتداد وعلاقات مع المجتمع المحيط بهم. اقترحت منح إجازات لكل سجين أمضى نصف مدته في السجن ويتمتع بحسن السلوك والسيارة إجازة لمدة أسبوع، وعند عودة المجموعة الأولى إلى السجن تتمتع الوجبة الثانية بالإجازة. وهكذا أخذ السجناء تنظيم إجازاتهم بأنفسهم وكل واحد يهدد الآخر بالالتزام والعودة في الوقت المحدد لئلا تلغى جميع الإجازات ويحرم السجناء من الاستمتاع بهذه المنحة.

وافق مجلس قيادة الثورة على هذا الإجراء بعد اقتناع السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر برأيي، وسارت الأمور على نحو ممتاز. حجت الإجازة عن السجناء بجرائم السرقة والقتول وتهريب المخدرات. وهذه أول مرة في تاريخ العراق يتحمل مدير السجون العام مسؤولية هذه الخطوة.

ازداد عدد نزلاء سجن أبو غريب وكذلك سجون الحلة والبصرة والموصل بشكل ظاهر مما أثر هذا الازدحام على وسائل الصرف الصحي وعلى الصحة العامة وعلى الأخلاق السائدة في السجون.

قابلت السيد الرئيس أحمد حسن البكر وشكوت له حال السجون والسجناء ورجوته أن يطلق سراح من يستحق الصفح والعتو بإستثناء جرائم السرقة والمخدرات والقتول، وإن المناسبات الوطنية والدينية كثيرة، وفي واحد منها يصدر الرئيس عفواً عن السجناء ممن يستحق هذا التكريم. وبهذه الطريقة توفر الراحة لبقية المساجين أيضاً. يعتمد الاقتراح على من أمضى نصف مدته.

وافق السيد الرئيس على الاقتراح وطلب مني رئاسة اللجنة التي ستقوم بهذه العملية. رجوته أن يستعين بأحد الحكام بدلاً مني لأنني صاحب الاقتراح، وأخشى أن تمسني نار شرانم البشر بما لا أرضاه وأخسر صداقتي لرئيس الجمهورية، وهذا أتمن ما أود الاحتفاظ به.

سارت الأمور على نحو ما رسمته وبشكل ممتاز وبلا خلل وأرضيت ضميري وأرضيت الله والسجناء معاً. أثرت زوبعة ظالمة أطاحت بمديرة سجن النساء وكانت من أكفأ الموظفين والموظفات، تتمتع بإدارة ممتازة وخلق كريم، كسبت ود واحترام رؤسائها والسجينات معاً. طوتها العاصفة زوراً وبهتاناً بزعم وجود إضراب داخل

سجن النساء بتحريض من مديرة السجن.

ذهبت إلى سجن النساء، ولم أجد أي إضراب سوى بكاء بعض السجينات بسبب فراق المديرية الإنسانية الفاضلة لهن، وهذا تقليد عند النساء للتعبير عن آرائهن، وأكدت للوزارة حقيقة الأمر، لكن الرياح سارت بما لا تشتهي سفن الحق والعدل. أحيكت المديرية المظلومة إلى محكمة الثورة زعماً بتحريضها السجينات على الإضراب وحكمت بالسجن ثلاث سنوات نظير إخلاصها وحرصها وجهودها. حاولت الدفاع عنها، وطلبت من والدها ومحاميها الطلب من محكمة الثورة استدعائي للشهادة لأقول الحق، ولكن الجهود باءت بالفشل. كان والدها من المحامين المعروفين في سوح القضاء. كان وكيلها المحامي زكي الخشالي رفيقي في النضال وصديقي، ولكن كل هذه الحقائق أدخلت المسكينة السجن بعد أن كانت مديرة له.

هكذا تمتد أصابع الخبث والغدر إلى الخيرين لتقويض سلطة الدولة حجراً حجراً. وأخذت أسأل نفسي كيف أواجه الباطل وأنا وحيد ولم أجد عضيداً وسنداً. أما الوزير فلا حول له ولا قوة رغم كل هذه الحقائق ولكن ليس في اليد حيلة. هكذا تجري الأمور نحو الهدم لا البناء. من وراء كل هذا الخبث واللؤم؟ ولم كل هذا الحقد على العراق وأبناءه؟

مفارقة:

المفارقات في السياسة كثيرة، بل كثيرة جداً يواجهها المناضل في يومياته وعمله وبيته باستمرار، وواحدة من المفارقات التي أود ذكرها لما لها من أبعاد ومعان تؤثر في الروح الرفاقية للبعثيين وتؤثر في مسيرتهم النضالية وتخلق الكره والعداء للحزب. قال الرفيق نعيم حداد وهو عضو قيادة قطرية لحزب البعث هازناً وضاحكاً: كان الحزب يوجه عقوبات متتالية للرفيق حسن العلوي كلما أجاد كتابة موضوع صحفي. وأردف قائلاً: إن سبب العقوبة جزاءً وفاقاً لنجاحه بالكتابة قليلاً لإمكانياته وتشويهاً لنجاحه وإضعافاً لمعنوياته. قال: كنت وراء متابعتة لست أدري لم كل هذه السخرية والضحك. كان عليه أن يأسف لمعاقبة رفيقه وهو يحمل مبادئه ويناضل من أجل نصرته وتحقيق أهدافه.

لم ألس وللأسف الشديد روحاً رفاقية في مناظلي الحزب كما يتشدقون بها وكما يصورونها للآخرين. لم كل هذا الزيف؟ ولمصلحة من؟ هكذا وجدت الروح الرفاقية لا تنطوي على المعاضدة والمناضلة لتحقيق أهداف الأمة بل وجدت هزال السلوك مع كثير من الرفاق خلال عملي الحزبي والوظيفي. سامح الله الرفيق نعيم حداد، منذ أن تعرفت عليه في المؤتمر القطري يوم كان يرتدي ثوباً مهلهلاً ويحتذي نعلماً يسمع صوته كل من في القاعة كلما سار لشرب الماء -وما أكثر رواحه-، وساعد الله الرفيق حسن العلوي وقد جمعتنا الصداقة أثناء النضال السري قبيل قيام حركة ١٧-٣٠ تموز، وجدته محدثاً لبقاً. وأخيراً دفع الرفيق حسن العلوي دفعاً لصفوف المعارضة، وتذكرت الحادثة هذه، لذا وددت أن أسجلها كي يبتعد رفاق البعث عن الدنيا وإلا ستأكلهم ذئاب الخصوم، وما أكثرهم..

كم من رفيق واجه ما واجهه حسن العلوي وانتهى به المطاف لصفوف المعارضة أو لزوايا النسيان والإهمال؟ وهذه واحدة من دهاليز العمل السياسي.

مواقف محرجة:

اتصل بي مرات عديدة السيد عبدالهادي صالح محافظ الأنبار عندما كنت وكيل وزارة الداخلية. شكى لي هذا الرجل تعارض خطواته مع المنظمة الحزبية حتى أصاب عمله الشلل. هذا الرجل المؤدب الطيب القلب واحداً ممن يعتمد عليهم السيد الرئيس أحمد حسن البكر، والآخرين وهم السادة عبدالصاحب محمود عين محافظاً لكربلاء وعبدالجبار الألوسي محافظ الكوت وأحمد علي محافظ الديوانية. كان من تخطيط البكر أن يرسي علاقات حسنة بين مؤسسات الدولة والشعب وحل مشاكل المواطنين بعقلية خيرة وبحرية.

لم تمض شهوراً على هذه التعيينات إلا وأخذت المشاحنات تزداد يوماً بعد يوم أصابت شرارتها محافظة الأنبار. راجع السيد عبدالهادي صالح رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر وشكى له مما يعانیه من خلافات مع رفاق المنظمة الحزبية في محافظته حتى فشلت كافة جهوده وراحت مع رياح الحقد والحسد، وقد كرر شكواه فوعده خيراً والتزمت بتسوية الأمور لكن دون جدوى. وفي يوم من الأيام اتصل بي

السيد رئيس الجمهورية وأبلغني بقبول استقالة عبدالهادي صالح إذا ما أراد ذلك وعليّ أن أشجعه على اتخاذ هذا القرار بشكل لبق وكان الأمر جاء بناءً على رغبة المحافظ.

عند مقابلتي للسيد محافظ الأنبار شكى لي بمرارة ما يعاينه من تضاد وخلاف مع المنظمة الحزبية، ولم يعد قادراً على إدارة شؤون محافظته. استمر الحديث معه رغم حراجه الموقف حتى تمكنت من استدراجه ودفعت له لتقديم استقالته رغبة منه، طلب الرجل مني ورقة وكتب استقالته في دائرتي وودعته لخسارة المحافظة لخدمات هذا الرجل، لكنني حققت رغبة السيد رئيس الجمهورية بهذه الاستقالة رغم أنه من أصدقائه.

لقد تكرر المشهد مع السيد محافظ كربلاء عبدالصاحب محمود وقد شكى لي ما يعاينه من تدخل بعض الرفاق المتنفذين في شؤون إدارته. أشار هذا الرجل إلى علاقاته الحسنة مع رجال الدين في محافظته، ونجح في كسب ودهم حتى باتت الأمور تسير بالشكل الذي يرضي السيد المحافظ.

عجز المحافظ على تسيير شؤون محافظته كما يشتهي، وأخذ يحصي مخالفات واستفزازات الرفاق البعثيين له، وكادت إدارته تصاب بالشلل، واهتزت علاقاته برجال الدين حيث امتعض الكثير منهم، وهذا ما دعا السيد المحافظ أن ينظر في أمر استقالته، وجاءت المبادرة منه دون إرادة الآخرين. وهكذا طوت الثورة واحداً ممن اعتمد عليهم السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر وخابت آماله وذهبت أدراج الرياح.

اتسعت شقة الخلاف بين القوى المحافظة والقوى التي تدعي الثورية، وانتشرت نيران الصراع في كل مرافق الدولة في شرايينها، وتوافقت مع البعض الجديد لقادة حزب البعث العربي الاشتراكي. تراجع السيد الرئيس البكر أمام هذا الصراع مرغماً صامتاً لا يعرف كيف يتدبر السيطرة والموازنة على مرافق الدولة واستلام مفاصلها الحيوية للحفاظ على الثورة والحزب وسلامته. سقطت ورقة العدل والقانون من يد الرئيس وتحكّم البعثيون بمقدرات البلد.

ومن المواقف المحرجة التي واجهتني تلك التي أمر بها الرئيس البكر وأخذ على

عاتقه متابعتها. اتصل بي مرات عديدة يطلب عدم فسح المجال أمام البعثيين لاستخدام نفوذهم لتمشية الطلبات غير المشروعة سواءً أكانت لهم أو لأقربائهم أو لغيرهم. الكل يُعتبرون سواسية أمام القانون، والكل يأخذ حقه حسب استحقاقه، فلا داعي لوساطة الحزبيين. وقال لي رحمه الله: إن المفاصل الرئيسية بيد البعثيين ممن اختارهم الحزب، فلا مبرر للوساطة إذن. وفي اتصال هاتفي سألني عن الرفيق عبدالوهاب كريم عضو القيادة القطرية المساعد الجديد عن أسباب تواجده في مكتب وزير الداخلية صالح مهدي عماش باستمرار. ولم يلتزم هذا القيادي بقرار القيادة. طلب مني اعتقاله إذا ما كرر مخالفته هذه. نقلت رأي رئيس الجمهورية إلى صالح مهدي عماش تفادياً للاحتكاك وخوفاً على القيادة من التصدع.

استمر الرفيق عبدالوهاب كريم بزيارة وزير الداخلية بأوقات متفاوتة دون الالتزام بقرار الحزب. إن هذا الرجل لا يحمل أي مقوم من مقومات القيادة لا عقائدياً ولا نضالياً، لكن منصبه الحزبي أهله للترشيح في المؤتمر الأخير الذي عقد بعيد حركة ١٧-٣٠ تموز، وفعالاً أصبح عضواً في القيادة القطرية الجديدة.

أكد عليّ البكر مراراً بأن أكون مفتوح العينين على الرفاق البعثيين لئلا يعبثوا بمقدرات الدولة وقيمها وهو يقول (لا أنسى أبو ليث ضياع عروس الثورات عام ١٩٦٣) كيف عبث بها البعثيون حتى ضاعت فرصة العمر. أكدت له بأنني سأكون عند حسن ظنه، وفعالاً عملت على قدر ما أقدر عليه لوقف الانحراف، وكان نزراً قليلاً ولكنني فقدت عدداً كثيراً من الرفاق وخاصة القياديين المتنفذين بسبب مواقف المتشددة.

رأي ونصيحة:

طلب السيد الرئيس أحمد حسن البكر مقابلي، وفعالاً زرته في مكتبه في القصر الجمهوري. التفت إليّ وسألني عن أحوالي وصحتي، وكانت عيناه جاحظتان ومقلتاها محمرتان وأمامه تقرير طويل جداً يقرأ فيه، وبعد التحية والمجاملة سألته عن سبب احمرار عينيه وكثرة تدخينه بحيث لا تسقط السيجارة من فمه. أجابني بعد زفرة طويلة وشهيق عميق قائلاً: أقرأ في تقرير عن نهر خريسان في محافظة ديالى، أقرأ

تاريخه وغزارة الماء فيه والأراضي المعتمدة عليه والعشائر الساكنة لهذه الأراضي وجدواه وتطويره والمشاريع الممكنة إقامة عليها. ابتسمت رحمة فيه وخوفاً عليه وعلى صحته، فانتفخت أوداجه وارتسمت علائم الجد على وجهه، بطق عينيه في وقال جاداً: لم ضحكت؟ فأجبت بسرعة مذهلة وقلت: يا سيدي، هذا تقرير واحد، وفي العراق مئات من هذه التقارير عن أهل العراق وعشائره وأرضه وإنتاجه ومشاريعه وصناعاته وزراعته ومؤسساته العلمية. وأخذت أبداع في حشد كل ما طرق ذهني من إمكانيات زاخرة في هذا البلد لعلني أخفف من انزعاجه وغضبه، وأنا لست أحبه فحسب، بل أؤمن به وب عقله وبوطنيته الخالصة والتي لا يشوبها شائبة، هذا ما كنت أؤمن به وما أحمله من حب واحترام لهذا الرجل الكريم. تنفس الصعداء وارتخت عضلات وجهه وقال: ماذا أعمل يا أبو شهاب - كما كان يطلق عليّ هذه التسمية -؟ قلت له: يا سيدي أفضل أن يقرأ التقرير أحد الاختصاصيين ويكتب لسيادتك ملخصاً لا يزيد عن ورقتين وتبدي رأيك فيه وتخفف عنك عناء القراءة المطولة وتتفرغ لقيادة الدولة وسيادتك رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء. رد علّ وقال: والله هذا صحيح وخلصتني من أكبر عبء. أجبت: يا سيدي، ما عليك إلا أن تحيط رئاستك ببعض الخبراء لتقديم المشورة وبما تقدم إليك من الوزارات كافة لإبداء الرأي، وليس في العالم رئيس دولة يحيط باختصاصات كافة الوزارات. فرد عليّ قائلاً: إذاً عليك أن تكتب لي اقتراحاً بهذا المعنى لعرضه على مجلس قيادة الثورة. وفعلاً كتبت تقريراً مؤشراً على أربعة مستشارين: واحداً للنفط والمالية، والثاني للإعلام والخارجية، والثالث للداخلية والحركات السياسية، والرابع للتعليم العالي والبعثات.

ارتاح السيد الرئيس لهذا الاقتراح، وأدرك بأن إدارة الدولة من الصعوبة والتعقيد للدرجة التي يحتاج بها إلى مستشارين. أكدت باقتراحي بأن على المستشارين دراسة ما يعرض على السيد الرئيس لإبداء الرأي أو لاتخاذ القرار بالقضايا غير المتأكد من سلامتها أو له رأي آخر فيها. أشرت إلى الاكتفاء بأقل عدد من الموظفين لهذه المكاتب. عرض الاقتراح على رئاسة مجلس قيادة الثورة ولكن المشروع قبر في مهده ولم يرَ النور. لماذا؟ ومن وراء هذا التحدي؟ التاريخ سيجيب على هذا التساؤل والله في عون البكر وأمثاله.

بدأت أصابع الرفاق تشير بصراحة بأني من أتباع الرئيس البكر، وكأنها تهمة توجب التحفظ والانتباه رغم أن الرئيس البكر كان أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث ورئيس الجمهورية ورئيس وزراء الحكومة.

من الطبيعي أن يكون البعثي المناضل ملتزماً بالقيادة الشرعية وهو شرط أساسي من بنود النظام الداخلي لحزب البعث، والخروج على القيادة الشرعية يعتبر جريمة تأمرية عقوبتها شديدة جداً.

لم تكن هذه المرة الأولى أحشر في زاوية الولاء للقيادة الشرعية كما سبق أن حشرت واتهمت بالولاء للرفيق علي صالح السعدي عندما كان أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٦٣ ، أصبحت متهماً بالشرعية والولاء للقيادة، هذه التهمة تكشف عن التكتلات والصراعات داخل الحزب وبين أجنحته وشخصه، لذلك دفع الحزب ثمناً باهظاً من الخسائر في مسيرته النضالية بسبب هذه التكتلات.

من سجايا البكر:

في إحدى اجتماعاتي بالسيد الرئيس البكر شكوت له ما يعانیه الطلبة من رداءة القرطاسية وقلة مستلزماتها في الأسواق. كنت صريحاً مع السيد الرئيس للدرجة التي جاوزت فيها حدود الصمت حين قلت له: يا سيدي، ابني سيف يشتم الحكومة كلما تتمزق الورقة التي يكتب عليها في دفتره بسبب رداءة الورق وكثرة أخطائه مما يضطر لاستعمال المحاة لتصحيح أخطائه فتمزق الورقة. احمرت عيناه وجحظت وفغر فاه وأخذ شهيقاً عميقاً وقال: هل أنت متأكد مما تقول؟ قلت: والله وأكثر من ذلك. رد علي بغضب قائلاً: والله سأحاكم وزير الاقتصاد هنا بغرفتي إذا ما تيقن صحة الموضوع. قال: لم يكن أمامي إلا إعدامه. كان الوزير يومها فخري قدوري خارج القطر. علمت القيادة بما يغضب السيد الرئيس لمخالفة الوزير وصاياه وهو يعمل كل ما في استطاعته لتوفير القرطاسية الجيدة وبكميات كبيرة لسد حاجة الطلبة على عموم القطر. أبرق أحدهم إلى الوزير فخري - وكان يومها في ألمانيا الغربية- بأن يؤجل قدومه إلى بغداد ويحاول إيجاد أعدار صحية ليطيل بقاءه هناك

لحين تسوية الأمر. وفعلاً ظل ثلاث شهور خارج القطر إلى أن هدأ الرئيس وقام من يقدر على تسوية الأمر. كنت يومها أمثل دور هرثمة الصديق المخلص للمأمون، كان يطلعه على ما يجري من مخالقات وسوء تصرف وزيره الفضل بن سهل وأخيه حسن بن سهل، وأخيراً مات مسموماً في فراشه بسبب إخلاصه للخليفة. وحمدت الله على حمايتي ممن يدس السم في الخفاء لإخراس صوت الحق ولله في خلقه شؤون.

ومرة أخرى، وفي إحدى الاجتماعات مع سيادة الرئيس البكر، عرضت عليه ما يعانیه أهل بغداد من شحة مادة البصل وتكاد تكون هذه المادة معدومة من الأسواق. استغرب القائد كثيراً وقال: يا أبو شهاب، معروض عليّ أطنان من البصل الفائض في محافظات القطر وخاصة في السماوة ويطلبون مني تصديرها إلى خارج القطر ولما أبت بعد بالموضوع. قال: فهل أنت واثق مما تقول؟ أقسمت له بأن ما أقوله هو الصدق ورجوته أن يرسل معي من يعتمد عليه لنذهب سوياً إلى الأسواق لكشف الحقيقة. رد عليّ بالأم وحسرة قائلاً: كثر الكذب وساد الزيف حتى باتت مصلحة الناس مهددة بقوتها، فأقسم بأن لا يوافق على تصدير أي كمية من البصل خارج القطر.

خرجت منه والأسف ينهش في نفسي وقلت: لم كل هذا الإحراج؟ أعزي نفسي أحياناً وأقول: لا بأس، إن حبي للسيد الرئيس يشفع لي طالما في الأمر مصلحة عامة.

ومن المواقف الأخرى مما اطلعت عليه شخصياً على قلة اجتماعاتي بالسيد الرئيس أحمد حسن البكر إصراره وعزمه على توفير الطمأنة على مدار السنة لأن المطبخ العراقي يعتمد في قوته اليومي على هذه المادة. قال: لقد أوعزت لوزير الزراعة والإصلاح الزراعي - وكان عزت الدوري يشغل الوزارتين بعد إعفاء الدكتور مولود كامل عبد- على توفير الطمأنة على مدار السنة ويكل ما يستطع من إمكانية، وقد رصد له أضخم ميزانية.

كانت الجرائد تنشر بفخر وتباهي بالخطة الانفجارية، وكانت حصة الزراعة عشرة مليارات دينار يعتبر مبلغاً ضخماً، لكن الأمور جاءت مخيبة للأمال، وظل المواطن العراقي ينتظر ثمرة الخطة الانفجارية ولكنها وزعت على الجمعيات الفلاحية وكانت

حصّة الواحدة منها سيارة (كراند كروز) بقرار الوزير عندما عرض أحد رؤساء الجمعيات الفلاحية حاجتهم إلى أربع مائة سيارة لمتابعة النشاط الزراعي، فرد عليه الوزير: ولتكن أربعة آلاف سيارة. وصفق الحاضرون في الندوة المنعقدة في نقابة المهندسين الزراعيين، كنت حاضراً الندوة ولكني لم أصفق وإن كنت قد أجزت ما يقارب أربعة آلاف جمعية فلاحية عندما كنت وكيل وزارة الداخلية، كان هذا من اختصاص وزارتي.

ظل المواطن العراقي ومطبخه يفتقر إلى المواد الأساسية للطبخ، وباعت مشاريع البكر بالفشل. لماذا؟ ومن وراء ذلك؟ لست أدري. والله أدري، ولكني أفضل الصمت، وفي الصمت قول كثير.

اقتراح مشروع:

زرت السيد الرئيس أحمد حسن البكر في دائرته، وكنت أحمل في ذهني صفقة رابحة حسب ظني. قلت في نفسي: (لأكن سباقاً وناصحاً مادمت أؤمن بقيادة البكر الحكيم لإخلاصه ووطنيته). عرضت على السيد الرئيس الاستفادة من نهر الخر (نهر الخير) ويطلق عليه الناس (اشطيط) وجعله نهراً صالحاً ونافعاً يجري فيه ماء دجلة من بدايته في الكاظمية وحتى مصبه في كراة مريم، وما على أمانة العاصمة إلا أن تقوم بتنظيفه وتبطين ضفتيه. هذا المشروع يصبح منتجاً لأهل بغداد ويحمي بغداد من حر الصيف ويلطف مناخها. تُزرع ضفتيه بالحدائق والمقاهي وعندها يكون مشروعاً عظيماً يقدم خدمات جليّة لبغداد وللعراق. ولأجل إثارة اهتمام السيد الرئيس قلت له: إن هذا النهر -فيما إذا أعيد إليه الماء الجاري وهو يمر بمناطق شعبية- سيكون له أثر كبير على الجماهير ويعتبر مكسباً مهماً من مكاسب العراق. وإذا ما كتب لهذا المشروع النجاح بالصورة المرسومة في ذهني سيكون له نفع مادي، بالإضافة إلى تجميل بغداد وتلطيف المناخ. قلت له: إن الزعيم عبدالكريم قاسم شق ترعة في منطقة مهجورة سماها قناة الجيش، أنعش فيها الفراغ القاحل وأسكن فيها أناساً من خارج العاصمة، بينما المشروع المقترح يمر بين المواطنين الشعبية وغير الشعبية، ولنسميه قناة الشعب أو قناة البكر.

استلطف السيد الرئيس الاقتراح، وراح يفكر جدياً بهذا العرض، وقال لي: سأعرض الموضوع على أمين العاصمة محمد إبراهيم وأطلب منه تقديم دراسة وافية. اتصلت بأمين العاصمة بعد أيام من هذه المقابلة ورجوته أن يهتم ويستعجل بإنجاح المشروع وإخراجه لحيز الوجود، ووعدني خيراً.

ذهبت بي الأيام ونقلت لوزارة الخارجية، واستقال السيد الرئيس أحمد حسن البكر، ونام المشروع في أدراج المكاتب. كانت همّة أمين العاصمة فاترة ومترددة، والحجة الوحيدة التي سمعتها منه أن هذا النهر كان مبرزاً لأراضٍ زراعية وللبناتين المجاورة له، ويوم فاتحته كانت الأراضي من حوله أراضٍ مأهولة بالسكان والعمران ولم يبق للزراعة فيه ما يدعو لوجود مبرز. وهكذا دفنت طموحاتي ورغبة الرئيس في دياجير الصمت. ومن شدة حرص الرئيس كنت معه في استطلاع لهذا النهر. وقف فجأة وأخذ يتلفت، فسألني: (ماكو واحد مسؤول عن هذه الأشجار؟) كانت شجرة كالبتوز واحدة مائلة قرب ساحة النسور. رأيت واحداً وأحضرته للرئيس وقال له: (يا ابني، شوف هذه الشجرة مائلة ضع لها تجوة حتى تعتلد). أخذ حرص الرئيس أبعاداً متشعبة حتى امتد لشجرة كالبتوز واحدة.

متابعة مستمرة:

جذبتني شعارات الحزب، وأمنت بأهدافه، وقرأت كراريس الحزب، حزب البعث العربي الاشتراكي، واطلعت على ما كتبه أعلام الحزب عن الوحدة والحرية والاشتراكية. كانت فرحتي غامرة زادت من اندفاعي وأذكت حماسي حتى بتُّ قرير العين مطمئن القلب لأجد في الأفق صيرورة الأهداف واضحة ولم يبق إلا القليل القليل لتحقيقها. اندفعت للمطالعة أعمق فهمي لأهداف الحزب في كتب ونتاج الباحثين الغربيين، فرنسيين وإيطاليين وروس وأسبان. خرجت بنتائج جيدة لفهم الحرية والوحدة والاشتراكية. اختزنت المفاهيم الثلاثة بذهني وحرصت على تحقيقها بعد أن أمنت بصحتها وروعيتها. فهمت الحرية على أنها أساس لتقدم المجتمع وتطويره وضرورة لكل مواطن يتحرك بدائرتها دون الإساءة لحرية الآخرين، وتسان حرية المجتمع والكل له حق المشاركة في نظام الحكم كل حسب مفهومه وعقيده.

عرفت الوحدة على أنها قوة مضافة لكل قطر عربي وبوحدة الأقطار العربية وإن بدأت بين قطرين لكنها ستكون نواة لوحدة أشمل، وبذلك سيحقق الشعب العربي بالوحدة مستقبل الأمة الواعد. قلت في نفسي: واللّه خطت الأمة خطأً حثيثاً نحو المجد. كبرت أمامي حتى تضاعلت التضحية في عيني وفي ضميري، وقلت: إن الطريق وإن كان طويلاً وشائكاً إلا أن مسيرة الألف ميل تبدأ بالخطوة الأولى. قرأت ما كتبه بسمارك من جهود خطاها نحو الوحدة الألمانية، وتتبع مسيرة غاريبالدي ونضاله لتحقيق الوحدة الإيطالية، وأقنعني مكيافلي بطروحاته ليحقق أمنيته بالوحدة الإيطالية. وعرفت مقولته الشهيرة إن الغاية تبرر الوسيلة، وكان يعني من أجل تحقيق الوحدة لا بأس من بذل التضحيات، فالغاية كانت بذهنه أمل رائع وكبير، والتضحية ما هي إلا وسيلة لتحقيق هذه الغاية.

استعملت مقولة مكيافلي من قبل الآخرين خطأً حيث استباحوا كل شيء من أجل تحقيق أهداف ذاتية رخيصة بهذه الحجة. وصلت إلى الثالثة الأثافي ورحت أبحث عن كتب في الاشتراكية. نشریات حزب البعث تشير بأن اشتراكيّتنا خاصة تنبع خصوصيتها من تراث الأمة ومعطياتها. كانت البحوث والدراسات ذات مفاهيم عامة، ولم يكن فيها من التحديد والتوضيح ما يرسم أبعادها ويؤطر مفهوماً علمياً، كما لم يحدد طرائق تحقيقها. قرأت الأجزاء الثلاثة لكارل ماركس فيما يتعلق برأس المال وتمسكت بتلابيب أصول الفلسفة لجورج بوليترز بجزئية وبؤس الفلسفة لكارل ماركس، وحق الشعوب لكارل ماركس أيضاً، ودرست كتاب الثورة الدائمة لليون تروتسكي وكان كتاباً أخذاً وعظيماً في طروحاته ومفاهيمه. اتسعت دائرة معارفي عن الاشتراكية شيئاً فشيئاً حتى أخذت أقرأ من كان له الإلمام بالاشتراكية من الكتاب الفرنسيين والإيطاليين والأسبان، وكان لهم القدرة على إلقاء الضوء على طروحات كارل ماركس وبعضهم توصل لحدود النقد والمعارضة. قرأت منعطف الاشتراكية الكبير لروجيه غارودي وماركسية القرن العشرين لنفس الكاتب. كانت فرحتي عظيمة حينما أهدتني السفارة الصينية المجلدات الثلاث لماو تسي تونغ، كانت بحق سفر خالد وإبداع في نتاج العقل البشري. كان ماو عظيماً بتجربته النضالية، عظيماً بفكره الخلاق، لذلك كان نتاجه عظيماً وخالداً. قرأت لسناطين الأسس اللينينية

وأصل الأسرة والملكية الخاصة لأنجلز، والرسائل والمقالات الأخيرة للينين، ومرض اليسارية الطفولي في الشيوعية لنفس المؤلف، ومقالات وخطابات لينين وكتاب هوشي منه وقصص عن المسيرة الكبرى وكتاب تقرير مصائر الشعوب للينين. وهكذا استمرت عندي الرغبة في متابعة وقراءة ما يكتب عن الاشتراكية العلمية وما يكتب من ردود عليها. دخلت في قعر الزجاجاة حتى توصلت إلى النتيجة الآتية فسطرت ما توصلت إليه بغض النظر عن تأثيري فيما قرأت.

لا أشك أن مفهومي للاشتراكية العلمية كان متأثراً بكل ما قرأته، لذلك جاءت حصيلة هذه الدراسة مقنعة لي وأشبعت رغبتني تماماً حتى لا أجد حاجة لتوسيع معارفي في هذا الحقل لأنني توصلت إلى التحليل العلمي والمنطقي للأحداث، وعلى ضوء ذلك كنت أتحدث مع رفاقي البعثيين بهذا المنطق، وقد غلب عليّ -دون أن أتعمد- المديح أو التجريح لكل رؤية في الاشتراكية. صبغتني هذه المعرفة بالماركسية حزبياً، وأصق بي الحزبيون هذه الصفة، وانتشرت دائرة الإشاعة في أوساط الحزب وكأنها تهمة لازمتني مادمت حزبياً. رضيت بما يقال، ورضيت بما عرفه عني الآخرون، ولم أجد ضيراً في ذلك وإن تضايقت في كثير من المواقف المحرجة.

متابعة وملاحقة:

زارني الصديق شاکر الحاج وداي عندما كنت متقاعداً في داري عام ١٩٦٥ ، قال لي: لقد سألتني عنك الأخ إيليا ازغيب وسأل عن سلوكك الحزبي ومعتقدك في الماركسية وعلاقتك بالحزب الشيوعي. كان شاکر الحاج وداي سكرتيراً لأمين سر الحزب الشيوعي المنشق عن الحزب الشيوعي العراقي أيام حكم الزعيم عبدالكريم قاسم.

أعطى الأخ شاکر ملخصاً عن رأيه بي. قال لإيليا ازغيب إن أحمد أمين بعثي، والقومية العربية متأصلة فيه، ولا يمكن أن يكون يوماً ما شيوعياً وإن أكثر في حديثه عن الماركسية. هذا ما نقله لي الأخ شاکر وداي، وشكرته على دقة رأيه وصحته وحمدت الله أن هناك من الأصدقاء من يقدر على تقييم مفاهيمي.

قلت للأخ شاکر: ليس كل من يقرأ الماركسية يكون شيوعياً بالضرورة، لكن كل

شيوعي يجب أن يكون ماركسياً. خذ مثلاً الفيلسوف سارتر، كان ماركسياً، وقال في ماركس بأنه نبي القرن العشرين ولكنه ناهض الأحزاب الشيوعية في أوروبا. من أمثاله من الفلاسفة والكتاب كثيرون. يجب أن لا ننظر إلى الماركسية على أنها نظرية جامدة أو دين أو عقيدة توضح بصورة نهائية الحقيقة الأزلية كما تفعل الأديان. إنها فلسفة للتاريخ، وأنها أسلوب لتفسير التاريخ وجعله شيئاً منطقياً متسلسلاً، كما أنها طريق للوصول إلى الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية، وليس في هذا ضير. أنا كما تعلم يا شاكر بعثي وأمين سر مكتب قوى الأمن الداخلي، وهذه المواصفات لا تمنعني من الاطلاع على ثقافات العالم. إن أهم ما يميز العصر الحديث انتشار مذاهب وأيديولوجيات متنوعة مع وجود تصادم بين هذه المذاهب.

في القرن السابع عشر قامت الأفكار على أساس التخلص من السلطة الدينية وإطلاق الحرية العقائدية لأجل حماية الفرد من تدخل الدولة وحماية حريته السياسية والاقتصادية. امتزجت هذه الفكرة بفكرة السيطرة الرأسمالية والسيادة العنصرية، وخرجت أخيراً على شكل اتجاهات وحركات استغلالية للطبقات الشعبية. بعدها اتخذت الدول الديمقراطية السياسة البرلمانية التي يسيطر عليها الإقطاعيون أداة لتبرير هذه الأفكار، وظهرت فكرة تمجيد سياسة الدولة، وظهرت معها الشخصية العنصرية والإشادة بالسلطة بدلاً من الحرية كما قال فلاسفة الألمان مثل هيكل ونيتشه. إن الصراع واضح بين الأنظمة الشيوعية والأنظمة البرلمانية.

ومادنا في صدد الصراع، فقد نجد أنفسنا ملزمين بذكر شيء عن آراء ماركس في الصراع الطبقي، ولابد من الإشارة إلى ماركس الذي شيد فلسفته الاجتماعية على نظرية أطلق عليها (المادية الجدلية). إن أهم دعامة لهذه النظرية هي أولاً النظام الاجتماعي في أي عصر هو انعكاس للحالة الاقتصادية في ذلك المجتمع، وكل ما يحدث من تغيرات وتقلبات في المجتمع ترجع إلى سبب واحد هو كفاح الطبقات الاجتماعية لتحسين حالتها المادية.

يعتقد ماركس أن كل ما يسود المجتمع من قوانين وتشريعات وأنظمة سياسية وحتى التقاليد والثقافة ما هي إلا انعكاسات لأساليب الإنتاج وطرق توزيع الثروة. وأعتقد أن كل الصراع الذي مر عبر التاريخ سواء كان هذا الصراع سياسي أو

ديني أو فلسفي ما هو إلا صراع بين طبقات المجتمع، وإن الغلبة في هذا الصراع للطبقة الأوفر عدداً وأقل ثروة، عندها تنتقل السلطة من الطبقة الغالبة إلى الطبقة المغلوبة.

أطلق ماركس على هذه الصيرورة اسم (قانون التطور)، ويقول أن مقومات المعيشة يجعل الناس ينقسمون إلى فئتين لكل منها شعور خاص يقوي النفوذ ويبعد الألفة بين الطبقتين المتنازعتين. إن إحدى الطبقتين تملك وسائل الإنتاج، والأخرى لا تملك إلا سواعدها. إن الصراع بين الطبقتين هو المحرك للحوادث التاريخية.

أراد ماركس أن يدعم نظريته بأمثلة تاريخية فأورد بذلك مثلاً المجتمع اليوناني القديم قائلاً: كانت تسوده طبقة الأسياد وطبقة أخرى هي طبقة العبيد. في العهد الروماني كانت هناك طبقتين: طبقة من الأشراف وطبقة العامة. وهكذا استمر ماركس في إعطائه أمثلة للطبقات التي كانت تؤلف المجتمعات إلى أن جاءت الثورة الصناعية فانقسم المجتمع إلى طبقتين، طبقة أصحاب رؤوس الأموال وطبقة العمال.

وأكملت حديثي للأخ شاكر وأنا أقرأ ما في دفاتري من ملاحظات وهو يستمع بإصغاء ورغبة. قلت: يعتقد ماركس أن النظام الرأسمالي يحمل أسباب قتله معه. أن هذا النظام يعمل على تكديس رؤوس الأموال وتركيز المشروعات وإنشاء الشركات الموحدة حتى جاءت التقنية لتزويد من عدد العمال العاطلين، وتوصل أخيراً أن الصراع السلمي لا يلغي النزاع الطبقي بل لابد أن تستولي الطبقة العمالية الواعية (البلورتيارية) على السلطة وتقيم دكتاتورية عمالية لمدة من الزمن ومن ثم يختفي التضامن الطبقي بعد هدم الملكية الخاصة. ولم يعد هناك مجالاً للصراع في النهاية. قلت له: هذه آفاق بعيدة ليس لي القدرة على الخوض بها. انتقد نظرية ماركس بعض الماركسيين وهم الذين أشادوا بالديمقراطية الاجتماعية وعدم اللجوء إلى القوة وإن التشريعات العمالية قربت من وجهات النظر وخففت من النزاع الطبقي بعد أن حصل العمال على التأمين الصحي والاجتماعي والتعويض وتحديد ساعات العمل، كما أن بعض العمال بدعوا يشتركون في إنشاء المشاريع.

إن تنبؤات ماركس لم تتحقق بعد، لأن الصناعات الصغيرة لم تتكامل ولم تتركز بالشكل الذي تصوره ماركس. قد يكون ماركس نسي تدخل الدولة في تحديد

الاتجاهات والتوجيه الاقتصادي وظهور طبقة فنية من العمال لم تشعر بالفوارق الطبقيّة.

إن التطور العلمي الهائل في التكنولوجيا غير كثيراً في العلاقات الإنتاجية، كما أصبح للعامل مواصفات جديدة تتماشى مع التطور العلمي والتقنية الحديثة أجبرت الدولة لتوظيف رؤوس أموال كبيرة لتطوير اقتصادياتها. البشر جميعاً يشتركون في حاجات أساسية عضوية واجتماعية واحدة وهم مدفوعون لإشباع تلك الحاجات، ومن هنا بدأت الأفكار المناوئة للماركسية بالانتشار.

بعد كل هذا الشرح والحديث ضحك الأخ شاكر وقال: إن مجيء إيليا ازغيب وهو قيادي البعث من بيروت إلى بغداد ليتحرى آراءك ومواقفك في حزب البعث له ما يبرره ولا بد من أطر أفكارك ومواقفك بشكل يدعو للشك والريبة. أجبته ببساطة وضحكة مماثلة: إن علاقتي بالرفيق علي صالح السعدي جيدة وأنا أعتز بها كثيراً لقد وضعتني في زاوية الاتهام وأنا أرحب بهذه التهمة وإن كانت تنصرف إلى حدود الإيذاء. ورحت أمتدح الرفيق علي صالح السعدي وقلت: إنه مناضل بطل وصريح وهو أمين سر القطر لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق.

إن آراءه ومواقفه الصلبة والصريحة خلقت له أعداء من خارج الحزب ومن رفاقه البعثيين أيضاً وللأسف الشديد.

إن الشرعية الحزبية تدعوني أن ألتزم بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي وبالرفيق علي وهو على قمة القيادة وقلت الكلاب تنبح والقافلة تسير. أخيراً انتهت مصائر القياديين المناوئين للرفيق علي إلى مزبلة التاريخ بعد أن أجهضت الثورة على يد عبدالسلام عارف والمتعاونين معه من البعثيين وغيرهم.

لا غرابة إن تمسكت بقوميتي العربية، كما لا أنكر على الآخرين تمسكهم بقوميتهم. سئل لينين عن القومية وهو زعيم للاشتراكية ومنظر للحزب الشيوعي. أجاب قائلاً: إن القومية حصيلة تاريخية تتمتع بقبالية دفاع عظيمة. هذا إقرار صحيح وعلمي وواقعي. هذا ما وجدته في نفسي وفي نفوس كل القوميين.

إن القفز من فوق مرحلة القوميات أو التغاضي عنها أو إهمالها بحجة أنها مرحلة

من المراحل البرجوازية تأتي بنتائج معاكسة تماماً، لذلك تفجر الاتحاد السوفيتي رغم ستاره الحديدي، واتحدت ألمانيا، وعاد الشعب الألماني موحداً رغم المبادئ والعقائد المسيطرة على ألمانيا الشرقية، وامتدت أوار الأفكار القومية تتصاعد حتى تحررت دول أوروبا الشرقية مروراً بثورة عام ١٩٥٣ في ألمانيا الشرقية وثورة المجر عام ١٩٥٦ حيث أطلق على خروشوف في حينه (جزار بودايست) نتيجة المذابح الدامية التي ارتكبها الجيش الأحمر، كذلك ثورة دوبشك عام ١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا، ولم تنجو بولندا عام ١٩٨١ من المأساة عندما أرادت التحرير. كل القسوة والقيود والأفكار والعقائد الشيوعية تحطمت بفعل القومية وهي الحصيلة التاريخية المتمتعة بقابلية دفاع عظيمة.

لم تلتزم الأحزاب الشيوعية برأي لينين وهم يمجدوه، بل يعبدوه، ويطلقون للقوميات حرية بناء دولهم على أساس التراث واللغة والثقافة والتاريخ، وعندما تتكامل شخصيتها القومية يتحقق البناء الإنساني المشترك على أساس من التمازج الحضاري ومصالح الشعوب. إن الجواب على ذلك جاء عند تفتت الاتحاد السوفيتي، وأخذت القوميات تبني مستقبلها على أساس الحرية وحاجاتها وتراثها. لازال الاتحاد الروسي يعاني من انشقاقات في كيانه بنفس الأسباب التي ذكرها لينين عند تعريفه للقومية. إن كل تهمة يلصقها أعداء القومية العربية تزيد من صلابة موقف القوميين وتزيدني إصراراً وعناداً للدفاع عنها حتى أرى أهداف الأمة تتحقق، وإن لم تتحقق في حياتي فالبركة بالأجيال العربية الصاعدة.

سئل لينين عن معنى السياسة التي ينتهجها، فأجاب في معرض رده قائلاً: ما هي إلا تعبير عن واقع اقتصادي معين وهي ملزمة بالدفاع عن هذا الواقع. فالسياسة في مجتمع اشتراكي تدافع وتعتبر عن الواقع الاقتصادي الاجتماعي وكذلك السياسة في الأنظمة الرأسمالية تعبر عن واقعها الاقتصادي والاجتماعي أيضاً. بهذه الكلمات البسيطة عبّر عن أهم وأعمق المفاهيم وأخطرها في حياة الشعوب، هذا هو لينين، وهذه هي الأحزاب الشيوعية، خرجت عن مفاهيم قيادتها حتى كسرت عظام النظام الاشتراكي وهشمت أقدس المفاهيم.

إن نقابية الأحزاب الشيوعية والاستئثار بالمكاسب الشخصية والتلذذ بالمنافع

الذاتية حطمت العدالة الاجتماعية واستعدت على القوانين والأنظمة وسادت البيروقراطية في أجهزة الدولة، فتشوه كل ما هو خير، وسحبت الرأسمالية البساط من تحت أقدامها حتى سقطت في خضم الخطيئة.

زيارة جورج براون لبغداد:

زار السيد جورج براون وزير خارجية بريطانيا الأسبق بغداد نهاية عام ١٩٦٩ ، نزل ضيفاً على العراق في فندق بغداد، كان هذا الفندق الوحيد الذي يليق باستقبال ضيوف العراق على تواضعه. كان السادة الوزراء مدعوون لحفلة عشاء وبعضاً من رجال وزارة الخارجية، وكنت يومهاً سفيراً في ديوان وزارة الخارجية. أقيمت الحفلة على شرف السيد جورج براون بنفس الفندق، وكنا جميعاً بانتظار نزوله من غرفته. طال فترة الانتظار قليلاً وإذا به يطل علينا بوجه ضاحك. استقبله نائب رئيس الوزراء صالح مهدي عماش أولاً وإذا بجورج براون يصفع الوزير على قمة رأسه قائلاً: هذا هو عقل الثورة. كان للصفعة وقعاً مخجلاً لما أحدثته من صوت على صلعة صالح عماش. صافح الضيف الضيوف واحداً واحداً إلى أن وصل إلى السيدة سعاد خليل وزيرة التعليم العالي، وكانت الوزيرة الوحيدة في الحفل برفقة زوجها الدكتور داود سلمان فقبلها جورج براون وضحك وأضحك الحضور بخفة دمه فأشاع جواً من المرح غطى على حراجة موقفه من صالح عماش، فكان للصفعة معنى وللقبلة مغزى.

ومن ذكريات هذا الحفل، حفل العشاء في فندق بغداد المتواضع، حضر ثلاثة من رفاقنا البعثيين من غير موظفي الدولة منزوين في ركن قاعة الاستقبال وهم نوري حمادي وعلي عليان وظاهر العاني. لفت نظري انزواءهم فدفعتني الفضول إلى الانضمام إلى مائدتهم وكانت واحدة من الموائد المعدة لهذا الاستقبال، وكل ضيف يختار المقعد الذي يرتئيه بعد أن يأخذ من الطعام ما يشتهي. علّق أحد الجالسين معي على نفس المائدة التي أجلس على واحد من مقاعدها الأربعة بكلمات نابية لا تليق بمناضل بعثي عندما مرّ المناضل علاء البكري وكان متألّفاً بهندامه كعادته. بعد دقيقة أخرى مرّ الدكتور عزت مصطفى حاملاً ماعون طعامه وإذا بذات البعثي

الجالس معنا يصفه بكلمات نابية أيضاً. استغربت قول هذا البعثي وقلت له: أتعني عزت مصطفى؟ قال: نعم. أجبته: هذا الرجل عضو قيادة حزب البعث، هذا الحزب الذي تنتمي أنت إليه، فلا يليق بك أن تتهمه بهذه التهمة الخطيرة (العمالة). توتر الموقف بيننا حتى تدخل الرفيق علي عليان والرفيق نوري حمادي لتلطيف جو المشاحنة وأسكت المتناول على رفاقه البعثيين.

إن ما يدعو للاستغراب لذكر هذه الحادثة هو الروح الرفاقية المتدهورة بين أعضاء الحزب الواحد وهم يتسلمون مناصب مرموقة في القيادة وفي الدولة. لم أعهد صدور الشتائم من الرفاق البعثيين من قبل، كما لم أسمع إصاق التهم بهم بالشكل الصارخ الذي رأيته. أخذني العجب كلما صادفت موقفاً مماثلاً أثناء عملي داخل الحزب، والحوادث كثيرة، إلى أن قبض الله لي الفرصة المناسبة للتقاعد وظيفياً وحزبياً. كان هذا مصير رجال السياسة في الدول النامية بسبب الحقد والغيرة المتجذرة في النفوس.

أهداني الأستاذ سعد جمعة رئيس وزراء الأردن سابقاً ثلاث مؤلفات من نتاجه عندما كنت سفيراً في عمان وهم: مجتمع الكراهية، والمؤامرة ومعركة المصير، والثالث الله أو الدمار. هذه المؤلفات الثلاث تحفز في ذاكرتي الحوادث التي أوردتها آنفاً، وهنا أتمنى على كل من يعمل في حقل السياسة وينتمي لأي حزب أن يقرأ بإمعان ما كتبه هذا الإنسان الفاضل ذو الضمير الحي الشريف سعد جمعة -رحمه الله- ففيها ما يجنب المناضل الانزلاق إلى الخطيئة.

وعلى ذكر الأستاذ الفاضل سعد جمعة والشيء بالشيء يذكر، كنت في زيارته في ضحى أحد الأيام، جالسين في مكتبته الأنيقة المفتوحة على صالون الجلوس. يومها كنت سفيراً في عمان. جاء خادمه مسرعاً وقال له: إن صاحب الجلالة الملك على الباب. أراد الخادم أن يهب السيد سعد جمعة لاستقباله، إلا أن سعد قال لخادمه: ليتفضل. احتقن وجهي ولست أدري إن كان مصفراً أو محمراً وقلت لسعد كرد فعل مستقز: هب لإستقباله، إنه الملك. وأجابني برباطة جأش وهدوء غير مصطنع: أهلاً به فليتفضل. تمر الدقائق وكأنها ساعات وإذا بالملك حسين ينصرف شاعراً بحراجة الموقف. وبعد أن أزفت ساعة التوتر وحراجة الموقف قلت للأستاذ سعد: من الأفضل

أن تستقبل الملك (الملك حسين) طالما هب لزيارتك. ردّ عليّ: يا أخي أنا أعرف بما أتصرف. وأخذ يقصّ عليّ موقفه عندما كان رئيساً للوزراء أيام حرب ١٩٦٧ مع العدو الإسرائيلي. تبينت من حديثه أن خلافاً عميقاً كان يفصل بين موقفَي الرجلين، وهكذا توصل الأستاذ سعد جمعة إلى كتابه الموسوم "الله أو الدمار" بعد أن كتب سفرين خالدين أيضاً.

على هامش الخطيئة:

الأستاذ عبدالرحمن البزاز، أستاذاً عندما كنت تلميذاً في كلية الشرطة. لم تكن معرفتي به منذ أيام الدراسة بل عرفته مناضلاً قومياً نشطاً منذ أن رشح نفسه للنيابة عن المنطقة الثانية في الكرخ وهو ابن بغداد الكرخ. ربطتني به وشائج كثيرة كونه جاري وابن خال الدكتور مكي نجم الدين الواعظ صديق حميم لأخي الدكتور وزميل دراسته في كلية الطب وفي نفس الصف، وكاننا يتذاكران سوية، بالإضافة إلى اتجاههما القومي الواحد. كانت هذه الرابطة قوية، متنت أواصر المعرفة بيننا. بقيت العلاقة والمعرفة قائمة وتطورت عندما كان البزاز مؤسساً ومحاضراً في نادي البعث القومي. تصاعد نجم هذا الإنسان الفاضل في السياسة حتى بلغ الذروة عندما تسلم منصب رئاسة الوزراء أيام الحكم العارفي.

أراد الدكتور مكي الواعظ أن يستمزج رأبي ويتعرف على رأبي المرحوم أحمد حسن البكر ورأبي وزير الداخلية صالح مهدي عماش برغبة الأستاذ عبدالرحمن البزاز بالمجيء إلى بغداد - وكان يومها خارج القطر في لبنان-. عرضت الموضوع على وزير الداخلية وعلى السيد الرئيس البكر كل على انفراد. أجابني البكر بكل صراحة ووضوح: يرحب بمجيئه شريطة أن لا يعمل بالسياسة لئلا يكون مناوئاً لحركة ١٧-٣٠ تموز. أما الوزير عماش فقد أجابني: نحن لا نمانع من مجيء أي عراقي إلى بلده. قلت له: إن علاقتك بالبزاز جيدة قبل الحركة - كما أخبرني الدكتور مكي - وكنت تزوره بين الفينة والفينة. فردّ عليّ وأنا أستقرئ نفسيته وقد امتعض واحمر وجهه وسكت.

التقيت بالدكتور مكي وأبلغته بإجابته كل ممن أوصاني الاتصال به وقلت له

بصراحة: أنا لا أوافق على مجيئه، فقد أوجست خيفة في جواب صالح عمّاش والأمر يعود لك وللأستاذ البزّاز. فرد عليّ بحدّة متواضعة: إن البزّاز سيأتي إلى بغداد، وقد أصرّ على المجيء. فقلت له: أهلاً وسهلاً به. لمست من لقائي بالدكتور مكي أن رغبته باستطلاع رأي السلطة لم يكن ما يبرره، لأن الأستاذ البزّاز مصرّ على المجيء رغم كل العواقب.

قدم الأستاذ عبدالرحمن البزّاز إلى بغداد، وبعد فترة وجيزة من قدومه نشط في معاونة منظمة التحرير الفلسطينية، وراح يتصل بتجار بغداد لجمع المال تبرعاً وتأييداً للقضية الفلسطينية. شاع نشاط البزّاز وتوسع حتى بدأت الخيفة تدب في نفس السلطة فاضطرت لإعتقاله، ولم يكن لديّ علم بالأسباب الموجبة لإعتقاله سوى نشاطه لمعاونة إخواننا في فلسطين.

في اجتماع المكتب العسكري -وقد كنت أحد أعضائه- أفاد طه الجزراوي بأن البزّاز وضع في غرفة صغيرة مساحتها متر في متر في سجن قصر النهاية، ونظر إليّ منتظراً تعليقاً على قوله. سكتُ، بل فضلت الصمت وهو شيء من الكلام غير المنطوق وأدركت الأسباب الموجبة لإثارة الموضوع ونحن في المكتب العسكري حيث لا نناقش فيه مثل هذه الأمور بل تقتصر على الأمور التي تخصّ تنظيمات الجيش والشرطة والأمن. انتهى الاجتماع وفي فمي مرارة حارقة من هول النيران المتقدة في قلبي، وفكرت كثيراً في مصير هذا الرجل السجين وهو كبير السن ويشكو من أمراض متعددة بسبب نضاله وعمله المرهق طيلة حياته سواء في الدراسة والتدريس أو في عمله السياسي. توفي رحمه الله وهو في زنزانته الصغيرة، وكان لفقدانه أثر بالغ في نفسي وفي نفس كل عراقي شريف، فقد خسر العراق ركناً أساسياً من أركان الديمقراطية.

ناجي طالب تحت المراقبة:

لي معرفة محدودة بالسيد ناجي طالب اللواء الركن الرئيس الوزراء الأسبق والصديق الحميم للعميد المهندس رجب عبدالمجيد نائب رئيس وزراءه إبان الحكم العارفي. استنجد بي هاتفياً ومستغيثاً، قال: يا أخي يا أبو ليث الأمن تلاحقني أينما

ذهبت، وقد لمست مراقبة شديدة في الحل والترحال، تتابعني هذه السيارة كالظل فأرجو أن تتدارك الأمر بصفتك وكيل وزارة الداخلية. أجبته بما يمكن معاونته، اتصلت بمدير الأمن العام حامد العاني وطلبت منه تقديم ما حصل عليه من معلومات أثناء مراقبة السيد ناجي طالب. وبعد قليل اتصل بي وأخذ يقرأ عليّ متابعة أفراد الأمن لحركات ناجي، وإذا بالمعلومات المسجلة تبرئ سلوك هذا الرجل - وكان ذكياً - حيث أخذ يتردد على أصدقاء ومعارف الثورة وأكثر من زيارتهم، وقد سُجل عليه زيارته لأحد الأطباء أيضاً.

أخذتني ضحكة طويلة وإذا بمدير الأمن العام يرد عليّ خيراً أبو ليث. أجبته: يا حامد هكذا يراقبون نشطاء السياسيين بهذه الصورة وبهذا الوضوح، هذا أسلوب المتخلفين، أرجو أن ترفع أسلوب المراقبة المتواضعة والمستنقزة لهذا الرجل وأن تعمل على تطوير الجهاز وأسلوب العمل بما يليق بسمعة الدولة وتتماشى مع التطور الحضاري العلمي لعمل هذا الجهاز الحساس. وفعلاً نفذ مدير الأمن العام ما طلبت منه وبذا أَرْضِيَت اللواء الركن ناجي طالب وطورت عمل الأمن العامة، واختفت سيارة المراقبة وتحقق للأخ ناجي طالب حرية الحركة.

نشاط حزب البعث في عمان:

شهد عام ١٩٧٠ نشاطاً ملحوظاً لحزب البعث العربي الاشتراكي في العاصمة الأردنية عمان، كثرت زيارات رفاق البعث العراقي لهذا البلد وانضم بعضاً من الأردنيين للحزب وأغلبهم من الطبقة المتوسطة من الموظفين خريجي الكليات ممن درس في الجامعات العراقية ومن غيرهم. عقد الحزب مؤتمره في المفرق بحماية الجيش العراقي حيث كان مقر قيادة قواته العسكرية هناك.

زارني في مكثبي في السفارة أحد الرفاق الأردنيين صاحب صيدلية انتُخب أمين سر حزب البعث في الأردن، قصّ عليّ بما واجهته به المخابرات الأردنية بتفاصيل وقائع المؤتمر مسجلة على أشرطة، بالإضافة إلى اعتراف الدكتور منيف الرزاز لدوائر الأمن حيث كان أحد أعضاء المؤتمر. كان الرفيق المنتخب متألاً، حيث وصلت باكورة أعماله لدوائر الأمن بكل دقائقها وتفصيلها، علماً بأن التنظيم الحزبي هذا

غير مرخص من قبل السلطات الأردنية ويعمل سراً. ظل هذا الرفيق حائراً بين استمراره في العمل الحزبي وقد انكشفت أوراقه السرية وبين تركه معترك السياسة والانصراف إلى عمله ومورد رزقه ليتقي شر المستقبل الغامض. لم أجد في ذهني جواباً مقنعاً لأخفف معاناته والإحباط الذي ألم به ورحت أتحدث عن النضال السري وإحباطاته وأخطائه ومشاكله، ووضعت نصب عينه عظمة أهداف الأمة وحلاوة الانتصار كي أرفع من معنوياته الهابطة ولكن دون جدوى، وصبرته وصبرتي نفسي بلا قناعة.

تابعت نشاط الحزب عن كثب، ولم يكن لي علاقة حزبية يومها. زرت مقر الحزب وكان معروفاً للقاصي والداني ولدوائر الأمن الأردنية. يتردد الرفاق يوماً وبصورة مستمرة وعلانية، كان منظراً مألوفاً ومكشوفاً للسلطة الأردنية ولا حاجة للتحري والبحث والمتابعة. اخترت عند زيارتي لمقر الحزب سيارة غير سيارة السفارة مع أحد الرفاق ظناً مني ضرورة التخفي والتستر كما يتطلبه العمل السري وإذا بي أمام حقائق الكشف والافتضاح ما يكفي لركم الأنوف. وجدت نشرات الحزب في شباك إحدى الغرف وقد تطايرت بعضها أمام الدار (مقر الحزب المزعوم) وقد اصطفت قناني البيرة الفارغة إلى جوار زاوية النشريات. هزني الموقف ولم يسبق لي أن عهدت مثل هذا العمل في العراق أيام تأسيس مكتب قوى الأمن الداخلي حيث التخفي والتكتم والتستر ركن أساس من أركان العمل الحزبي السري حتى كنا نحن الرفاق نتحاشى اللقاءات الجانبية لإبعاد الشبهة واقتصر اللقاء على الاجتماعات الرسمية الحزبية أسبوعياً فقط.

كتبت بما شاهدت إلى الحزب في بغداد دون مبالغة وبلا تعليق وبصورة مختصرة لتلافي الموقف لئلا نعرض رفاقنا الأردنيين للحساب لأن العمل الحزبي السري محظور في الأردن. هنا أشرت إلى عرض الرفيق محمد فاضل للدكتور منيف الرزاز لعودته إلى الحزب مقابل سيارة مرسيدس هدية الحزب له. شكى لي الدكتور منيف الرزاز هذا التصرف منتقداً هذا الأسلوب وطلبت من القيادة في بغداد أن تأذن لي بمفاتيح الدكتور منيف الرزاز لعلاقتي الصميمية معه حيث كنا نتحدث عن هموم النضال ومصير الحزب ومصير الأمة بشيء من الجدية والنقد وبروح عقائدية تناسب

ثقافة كل منا حسب معرفته وتجربته.

كان الرزاز في يوم من الأيام أمين عام لحزب البعث قومياً بدلاً عن ميشيل عفلق، فهو غني عن التعريف عند الرفاق البعثيين وغيرهم. كان صمت القيادة في العراق وعدم الرد جواباً شافياً ومقنعاً لي، والتحفّت بالتغافل عليّ أعظم نفسي وأترك لقيادة الحزب ببغداد أن تتصرف كما تشاء.

اتهام باطل آخر:

نقل لي خالد الضاحي عتاب مدير الداخلية العام السيد عبدالله أحمد وقال: امتعض هذا الرجل لأنني مانعت من تعيينه محافظاً لإحدى المحافظات زاعماً أنني والسيد الرئيس البكر أعضاء في لجنة تنظر في تنسيب المحافظين ممن يستحق هذا المنصب. وقد نقل صالح مهدي عماش هذه المعلومة للسيد عبدالله أحمد كما أفضى لي بذلك واندعشت مما سمعته وقلت: الحمد لله ليس هناك لجنة تجمعني بالرئيس البكر تنظر في مثل هذه التعيينات وهذا من اختصاص مجلس قيادة الثورة كما تعلم. إن السيد عبدالله جاري، وقد استلمت منه منصب مدير الداخلية العام، وحسب علمي أن هذا الرجل حسن الأخلاق وكفوء وظيفياً وليس عندي أية سلبية ضده.

اقتنع خالد الضاحي بما أخبرته وقال: هذا ما نقله الوزير صالح عماش للأخ عبدالله ولذلك عتب عليك. فقلت: مع الأسف إن هذا الرجل يصدق مثل هذه المعلومة ولم يخبرني بها وهو لزال في دائرة التفتيش في وزارة الداخلية وأنا وكيل الوزارة ولست أدري فيما إذا اقتنع السيد عبدالله بوجهة نظري أم لزال يحمل من الحقد ما يوازني ما اتهمت به ظلماً وعدواناً. وقلت في نفسي: هل من يحتل منصباً وزارياً رفيعاً مصيره مرتبط بمصيري يختلق مثل هذه الفرية؟ حقاً أنها مخجلة لا تليق بوزير أن ينزلق إلى هاوية الحقد وبهذا الشكل المزري، لم أعتذر للسيد عبدالله. وتركت مركب الحقد يغرق في خضم الكذب والحقد.

ومن الافتراءات -وما أكثرها- فرية أخرى، اتصل بي تلفونياً وزير الداخلية صالح مهدي عماش وكان السيد محمد المشاط على ما يبدو في مكتبه خارج الوزارة عاتباً عليّ لأنني أمانع منح صديقي الدكتور محمد المشاط شهادة الجنسية العراقية غير

شهادته المكتسبة. أراد إحراجي، قلت له: درست الدائرة القانونية موقف المشاط من طلبه الجنسية العراقية وكانت المواد القانونية تقف حجر عثرة في طريق طلبه. نقلت هذا الرأي للوزير المعني بالنظر في مثل هذه الطلبات وهي من اختصاصه حصراً. كنت والمشاط أصدقاء، وبحكم الصداقة نلتقي مرات عديدة في الأسبوع وبعضها عائلياً، نقلت له رأبي بصراحة وتمنيت له استجابة الطلب وقلت له: من الأفضل أن يصدر قراراً من مجلس قيادة الثورة، ولهذا القرار حكم القانون، وبهذه الطريقة نتجاوز العقبة القانونية.

أخذ الرجل برأبي واتصل بي رئيس الجمهورية السيد البكر تلفونياً قائلاً: يا أبو ليث، الدكتور المشاط صديقك، وهو رفيقك حزبياً، فأرجو أن تستجيب لطلبه. فقلت: والله يا سيدي أنا لست فوق القانون فأرجو المعذرة وهذا من اختصاصك كرئيس جمهورية ولك أن تتجاوز القانون. ضحك وقال: والله يا أحمد أنا أعرف مواقفك وإصرارك أمام الحق. ودعني دون أن يتخذ أي إجراء.

مصائب قوم عند قوم فوائد:

اشترى مظهر المطلك داراً في الجادرية على ضفاف نهر دجلة. سمع البكر بالخبر فأقسم بالطلاق بأن يحرم على مظهر بالدخول إلى البيت إذا لم يبلغ هذه الصفقة. كان مظهر زوج ابنة الرئيس البكر. اضطر مظهر أن يبيع الدار هذه إلى صديقه إبراهيم خضير بنفس السعر الذي اشتراه وكان بمبلغ أربعة وعشرون ألف دينار على أمل أن يستعيد الدار بعد رضاء الرئيس البكر عليه. أمر الرئيس البكر بمحاكمة الدلال وكان وسيطاً لإتمام الصفقة الراجعة هذه باعتبار صفقته لغرض ما في نفس البائع. حكمت المحكمة بسجن الدلال ثلاث سنوات. جاعني إبراهيم خضير مستغيثاً عندما كنت أشغل مدير عام السجون وكالة طالباً السماح للسجين الدلال بالحضور أمام دائرة التسجيل لإتمام عملية البيع. وفعلاً أمرت بالإجراء اللازم وأعيد السجين إلى سجنه. كانت مساحة الدار ثمانمائة متر مربع تقع على نهر دجلة في محلة الجادرية، وهي أجمل وأرقى منطقة في بغداد، وعلى ما يبدو ابتاع الدار بثمن بخس وهذا ما أغضب الرئيس البكر واتخذ قراراً بحرمان صهره من دخول البيت، وبيع الدار إلى شخص

آخر. سجل الدار باسم إبراهيم خضير، ومات مظهر، ومات حقه في الدار، وامتلأ جيب إبراهيم خضير الضابط المتقاعد، وكان جيبه يفيض مالاً من أرباح شتى وبطرق عديدة، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

كان مظهر المطلق منتظراً ظروف مؤاتية لإعادة الدار إليه معتمداً على صداقته على وفاء إبراهيم خضير له. لكن المنية أخذته وحرّم من الدار الذي اشتراه ولكنه توفي في ظروف غامضة إثر سقوط سيارته في نهر دجلة بعد حفلة عشاء الملحق العسكري الفرنسي.

مأساة وزير الإصلاح الزراعي:

اعتاد الرئيس أحمد حسن البكر الاتصال بي تلفونياً الفينة بعد الفينة صباحاً. وفي صباح أحد الأيام عام ١٩٦٩ دق جرس التلفون الخاص وإذا بالرئيس البكر يتكلم، وقال لي متسائلاً: (يا أبو شهاب ذوله ربك البعثيين "المثقفين" وين معرفتهم؟) وأجبتة: سيدي لازم أغضبك حدث مهم. قال: نعم، وزير الإصلاح الزراعي مولود كامل عبيدكتور في الزراعة وتوقعت منه تطوير الزراعة في العراق والنهوض بها، وكما تعلم، العراق بلد زراعي، وفيه وفرة مياه وأراضٍ خصبة وشمس مشرقة، وكما ترى وزير الإصلاح الزراعي يناهض زراعة الرز ويطلب رفع المحصول قبل حصاده وقبل إكمال دورة إنضاجه. قلت: والله يا سيدي لا أعرف شيئاً بصد ما عرضته. فرد عليّ متأففاً: طيب، الله كريم.

صادفني وزير الإصلاح الزراعي مولود كامل عبد، وقصصت عليه ما سمعته من السيد الرئيس، فردّ عليّ قائلاً: لقد اصطحبت معي المستشارين الزراعيين وفتشت المنطقة التي زرعها أحد المنتفعين، وقررنا رفع التجاوز لأن الأرض كانت مهجورة لأكثر من أربعمئة سنة ولا تصلح لمثل هذه الزراعة (زراعة الشلب)، فهذا النوع من الزرع يحتاج إلى وفير، بعدها تكون الأرض سبخة، وخلال موسم واحد أو موسمين تعد غير صالحة للزراعة لأن الشمس أحرقت تربتها طيلة مدة الترك. قال: فاتحني السيد الرئيس بالموضوع، وأوضحت له الأمر، وشرحت له الحقيقة، وبينت له الأضرار الكبيرة الناتجة عن هذه الزراعة وأن استصلاحها يكلف مالاً كثيراً، ولكن وزير

الزراعة عزت الدوري - كان حاضراً عند المناقشة - انبرى يدافع عن هذه الزراعة قائلاً للسيد الرئيس: (هذوله أفندية مو مال زراعة) اترك الأمر لي وأنا سأقوم بالواجب. وفعلاً أعفي الدكتور من منصبه - وهو أحد مستشاري الأمم المتحدة باختصاصه - وأسند منصب وزارة الإصلاح الزراعي لعزت الدوري بالإضافة لوزارة الزراعة.

بعد مرور أكثر من سنة قال لي المرحوم الدكتور مولود: يا رفيقي، لقد صدق ما قلته وما قاله الخبراء، تلك الأرض أصبحت سيخة تنتظر الإصلاح وستكلف مبالغ طائلة. وعلى ما يبدو لقد أقنع المنتفع وللأسف صاحب زراعة الشلب بأنه سيوفر حاجة العراق من الرز والفائض منه سيصدر إلى الخارج وسيحصل العراق على الخير والربح وهذا ما يفرح الثورة!

انتفخت أوداج عزت الدوري واعتمد على المهندس المنتفع، وأخذ الأخير يستأجر الأراضي بثمن بخس وما على الدولة إلا أن تبحث على من يقوم بإصلاح هذه الأراضي. وهكذا استمرت اللعبة يزرعها المنتفع والدولة تخسر الكثير الكثير من الأموال. وفي أحد الأيام قُتل الدكتور مولود الخبير الدولي الزراعي ووزير الإصلاح الزراعي سابقاً بسيارته في محلة المنصور، كان ينتظر خروج ابنته من المدرسة لإيصالها إلى البيت. ويقتله ماتت المعرفة والعلم وانتصر الجهل، أدعياء المعرفة. خسر العراق رجالاً عالماً من أبنائه، وسادت الأمية، وانتفع المستغل وامتلأ جيبه مالاً، وانطلت الحيلة على السيد الرئيس كما انطلت على السيد عزت الدوري.

قاطع الموت (قاطع حنين):

من هم رجال قاطع حنين؟ لم شكّل قاطع حنين؟ ومن وراء تشكيله؟ أسئلة خطيرة ومهمة. رغم خطورتها وحساسيتها من المفيد الإجابة عليها إذا ما خلصت النيات وقدمت الدليل المطلوب لإظهار جانب مهم من تاريخ العراق الحديث في أخطر مرحلة زمنية مر بها العراق.

ترتبت نتائج خطيرة بعد هذه المرحلة التاريخية، أثرت بشكل مباشر لا في مستقبل العراق فحسب، بل بمستقبل الأمة العربية وبصورة خاصة مستقبل منطقة الشرق

الأوسط، وكان للقضية الفلسطينية النصيب الأوفر في هذا الإجهاد.

صدر قرار القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي لتطويع العراقيين للقتال ضد إيران في حرب الخليج الأولى والمسماة ظلماً وبهتاناً بقادسية صدام. كان التصميم يشمل فصائل من حزب البعث خاصة أعضاء القيادات بدءاً من عضو قيادة فرقة -وهي أدنى قيادة في الهرم الحزبي- وصولاً إلى القيادات الأعلى. من هم أعضاء القيادات المشمولة بهذا القرار؟ هم الرفاق البعثيون القدماء المنتمين للحزب قبل ١٧-٣٠ تموز عام ١٩٦٨.

إن عمر أي رفيق بعثي من المشمولين بهذا القرار أمضى ما لا يقل عن عشرين سنة نضالية في الحزب. كان لهذا القرار صفة انتقائية شملت عناصر بعثية معينة وبمواصفات محددة. لو تصفحنا مواصفات هذه العناصر القيادية من حيث قابليتهم القتالية لكان الجواب واضحاً ومفسراً للأسباب الداعية لزوجهم في لجة القتال الحامية.

حوى قاطع حنين رجال طاعين في السن، أعمار بعضهم قد تجاوزت العقد السادس، ومنهم الطبيب المريض مثل الرفيق وائل السامرائي وكان غير قادر على الحركة بحرية. يسير كالربوط الآلي تماماً، وفيهم نقيب المعلمين جاسم الخلف يعاني من اضطرابات في القلب وقد توفاه الله أثناء مسيرة القاطع إلى الجبهة وقبل الوصول إليها. كافأه الحزب عن نضاله الطويل بإرغامه على القتال مما لا قدرة له عليه. اختفى المرحوم وترك كرسي نضاله لمن يريد الصعود دون نضال إلى كراسي السلطة. وفي قاطع حنين أيضاً الرفيق هادي الأوسي يبصر بعين واحدة والأخرى على وشك الاختفاء. وفي القاطع وزير التخطيط طه إبراهيم العبدالله وكان يعصب عينه اليسرى بغطاء رأسه عندما كان القاطع في الجبهة. أما الرفيق منذر عريم فكان مريضاً بتشنج المريء والقصة الهوائية، وكاد يفقد حياته لولا معالجته بحبوب مسكنة كانت زاده الأول في العلاج وتصاحبه في الحل والترحال. ومجموعة من الأساتذة من ذوي الشهادات العليا منهم الدكتور محمد عباس عميد كلية سابقاً وعمره تجاوز العقد السادس. هؤلاء هم قاطع حنين، القاطع الذي أراد الحزب أن يزوجهم في حرب ضروس فيه الدبابات الحديثة والطيران والراجمات وغير ذلك من سلاح. أما تسليح

القاطع فلا يتجاوز بندقية كلاشنكوف، بهذا السلاح أراد حزب البعث أن يحرر الأراضي الإيرانية، وبهؤلاء المقاتلين أراد أن ينتصر. فهل كان هدف قيادة الحزب الانتصار على العدو بعناصر قاطع حنين؟ كان القاطع عاجزاً عن إطلاق طلقة واحدة قاتلة لأن الجميع لا علاقة لهم بالقتال ولم يمارسوه أو يقتربوا منه لا علمياً ولا فنياً ولا عملياً، وهم أناس غرباء عن القتال حتى أكاد وأجزم أن الواحد منهم لم يطلق طلقة واحدة في حياته، كلهم حزبيون مناضلون يمثلون سياسة الحزب.

سار ركب القاطع بسيارات الجيش العراقي، وصلنا الحدود الشرقية العراقية وتجاوزها إلى حيث ما يراد له. سار الموكب وسياراته أطفأت أضويتها واستعيض عنها بضوء سيجارة تستنير على هذى هذا البصيص السيارة التالية، وهكذا استمر السير حتى حط الركب رحاله في الكثبان الرملية في البسييتين. تلال رملية منفردة ومعزولة محاطة بسهول خضراء، وعلى يمينها هور الحويزة ممتد داخل إيران.

واجهت أمر الفوج المسؤول عن حماية هذا الموقع الفريد في موقعه وقصصت عليه قصة القاطع وأحوال رجاله وإمكانياتهم القتالية، وإذا هو يضحك بعمق قائلاً: تؤشر البرقية على أن قاطعكم من القوات الخاصة، وضحكت وشر البلية ما يضحك. قلت لأمر الفوج: نعم والله القاطع من القوات الخاصة وكشفنا اللعبة، وإذا البرقية تشير إلى ذلك صدقاً ولكنها كانت مصيدة للقاطع حتى يستقر في مواضع الموت وفي جبهة الحرب، وكى لا يعود أحد من الرفاق إلى الحزب ونضاله ثانية، ويصفي الجو للانتهازيين والمأجورين.

شهدت الكثبان الرملية المتحركة هذه معارك دامية بين الجيشين العراقي والإيراني مرات، وأخيراً استقرت بيد الجيش العراقي بعد أن كشفت القيادة الإيرانية أن لا فائدة من إعادة احتلالها والاستعاضة عن الاحتلال بالقصف المدفعي المكثف لتدمير القوات المتواجدة فيه، المدفونة في رماله.

كانت مواضع قواتنا غير مستوفية شروط التخندق، ولم يكن هذا بسبب عدم المعرفة أو بسبب عجز القوات المقاتلة، ولكن السبب يكمن بطبيعة الأرض. كانت الأرض رملية جافة تنهار بسرعة كلما استمر الحفر في باطنها، لذا جاءت المواضع غير عميقة، تعتمد على أكياس الرمل نصف الممتلئة لعجز الكيس عن الاحتفاظ

بمحتوياته. هنا رقد قاطع حنين، وهنا أريد له أن يدفن، ولكن إرادة الله كانت غير ذلك. هذا جزاء النضال، بعد عشرات السنين يُدفنون في رمال الموت.

مضى على قاطع حنين في مواضعه في الكئيبان الرملية المتحركة ما يقارب ثلاثة أشهر، وصدرت له أمر نقله إلى جبهة الشوش. فرح عناصر القاطع بهذا النقل ظناً منهم أن الفرغ قادم، وأن القيادة قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي قد وعت وأنصت لضمير الحق والمنطق فعفت عنهم، مثمناً نضالهم الحزبي وإيمانهم بأهداف الأمة، وإكراماً لهم جاءت بشائر الخير تصافح شغاف قلوبهم.

تحرك ركب القاطع إلى الشوش تاركين الكئيبان الرملية خلفنا، فدخلنا الحدود العراقية ثانية، واستمر الركب حتى وصلنا الحدود الإيرانية من منطقة الفتحة متجهين إلى المواقع الجديدة في الشوش. زين الربيع أرض الشوش المتموجة بأجمل الأوراد، وأسبغ المناخ على الوجوه نسيماً عالياً بارداً ناعماً يسكر الأنوف وينعش القلوب، كانت الطبيعة بأجمل صورها. لم يكن هناك ما يفسد هذا الجو وهذه الطبيعة إلا مئات الألوف من أفراد الجيش العراقي وآلياته ودباباته وراجماته وحركته الدائبة المستمرة، حيث أخذ العراق يحشد كل قواه لمعركته القادمة وكان الفريقين على موعد مع القتال. هنا على الشوش أهدرت دماء الشرفاء.

سلم ضباط الارتباط إلى قيادة اللواء السادس والتسعين قاطع حنين، وانتهت مهمته وعاد لوحده. كان العقيد الركن وعد الله أمراً للواء، أرسل في طلبي باعتباري أمراً للقاطع وكالة حيث دأب الرفيق قتيبة العابد أمر القاطع المعين رسمياً على ترك القاطع هو وبعضاً من رفاقه من تنظيمات الأعظمية تاركاً مسؤولية القيادة ومشاكل القاطع على عاتقي. كان القاطع محظوظاً بوجودي على رأس قيادته، إذ كنت قريباً جداً من قادة الجيش المنسب القاطع إليهم، وفعلاً جنبت القاطع كثيراً من المهالك وأبعدت عنهم شبح الحرب كما سيأتي الحديث عنه بعدئذ.

وصلت برقية التحاق القاطع بقيادة اللواء، واجهتني المفاجأة عندما قال لي أمر اللواء: خذ القاطع إلى خطوط الجبهة الأمامية - وأشار إلى الخريطة المعلقة على الحائط - وقال: خذوا حذرکم لأنکم على خط التماس مع العدو.

أخذتني الدهشة وشيء من الابتسامة ارتسمت على وجهي وقلت له: يا سيادة

العقيد، إن حالة الرفاق مأساوية، وحالتهم الصحية مزرية، وبدأت أشرح له حال رفاقي مبيناً أعمارهم المتقدمة ومراكز وظائفهم المرموقة وأمراضهم المزمنة، وقلت له: أخاف عليهم أن يقعوا أسرى بيد الأعداء ويصبح العراق أمام فضيحة تسيء لسمعته وتسيء لسمعة شرف الجيش، فعندي الوزير ووكيل وزارة ومدراء عامين وأساتذة جامعات وفيهم عميد كلية وكلهم رفاق من الكادر المتقدم في الحزب.

استغرب العقيد وعد الله من قولي وعاد إلى منضدته فقرأ البرقية بإمعان وهي تشير إلى قاطع حنين بأنه من القوات الخاصة المدربة، وأخذته الدهشة من التفاوت الكبير بين البرقية وواقع القاطع، ومن باب المداعبة قلت له: في القاطع الرفيق عبدالهادي الأوسي حامل قاذفة وأنه كريم العين وبنظارة سميكة لا يعرف فوهة القاذفة من مؤخرتها.

تراجع أمر اللواء وضحك وقال: لا بد وأن هناك مقلب، وما عليك إلا أن تبات الليلة في مكان آمن وفي الصباح سأرسل من ينقلكم إلى الخطوط الخلفية.

انتقل القاطع (قاطع حنين) إلى الخطوط الخلفية على بعد أكثر من عشرة كيلومترات من خطوط التماس. تنهى إلى مسمع استخبارات الفيلق خطة العدو في الهجوم على القطعات العراقية بقيام وحدات من المغاوير الإيرانية لاحتلال مقرات الأفواج والألوية العراقية والعمل على إسقاطها. بدأ الهجوم على طول خطوط التماس الأمامية مستفيدة من طيات الأراضي ومن المعلومات الدقيقة عن تلك المواقع. بدأ الهجوم فجراً وبدأت قيادة الأفواج والألوية العراقية تسقط الواحدة بعد الأخرى وعزلت القطعات الأمامية عن قياداتها وفقد قواد الفرق وبقية الأمرين الاتصال بقطعاتهم وانهارت الجبهة خلال ٢٤ ساعة بعد أن حشدت بأفضل القطعات عدداً وتسليحاً فقتل من قتل وأسر من أسر وانسحبت البقية بأمر قائد الفيلق الفريق الركن هشام صباح الفخري بعد أن استأذن رئيس الجمهورية بذلك وكنت على مقربة منه عندما وقعت الفاجعة حيث أسند لقاطع حنين مهمة حماية القطعات المنسحبة. كانت أليات ودبابات الجيش العراقي تنسحب بانتظام باستثناء قطعات المشاة إذ انسحب من نجا منهم كيفما اتفق وأما المفقودين فهم في ذمة الخلود والأسرى بعشرات الآلاف في قبضة العدو.

وبعد هذا الانسحاب الكبير لمئات الألوف من الجند انسحب قاطع حنين إلى الحدود العراقية وقد دخلناها من المنطقة المسماة بالفتحة وهو المحل الذي دخلنا منه أول الأمر. بتنا تلك الليلة في العراء وبعضنا في الخيم المنصوبة قرب الحدود العراقية في ليلة ممطرة باردة أساعت صحة العديد من رفاقنا المسنين وكنت أحدهم. وفي الصباح رافق القاطع أحد ضباط الفيلق إلى موقع الاستراحة في خيم معدة لاستقبالنا واستقبال ما تبقى من مرتبات اللواء وهكذا بالنسبة لبقية الألوية لإعادة تنظيم ما تبقى منهم.

استلقى أمر اللواء العقيد الركن وعد الله في الهواء الطلق شارد الذهن عصبي المزاج مضطرب الأحوال وددت أن أخفف عليه همومه وأهون عليه هول المسألة فاتجهت إليه وإذا بضابط الركن الرائد محمود يحول دون رغبتني فرجوته أن يأذن لي بالمواجهة فنهرني بشدة وقال لي يا أخي حال الأمر لا تسمح بذلك وقد تسمع منه ما لا يسرك. قلت له أعرف ذلك ولكني سأجهد نفسي لأخفف من عناء هذا الرجل وهو لم يكن مقصراً بواجبه بل جاءت ظروف المعركة على غير ما خطت له القيادة وكنت يومها حاضراً في مقره عند مناقشة الخطة مع أمري الألوية المجاورة له. بعدها تسللت إلى استراحة أمر اللواء وهو مضطجع على بطانيته وقلت له أن الحرب كر وفر ويوم لنا ويوم علينا لا عليك فالمعركة القادمة سنكون منتصرين بإذن الله لم ينبس ببنت شفه لكن عيناه قالت غير ما أقوله ووليت الأدبار وتركته، وبعد ساعات اعتقله الانضباط العسكري مخفوراً إلى بغداد وأجريت محاكمة له ولبعض رفاقه وحكموا بالإعدام وأخيراً خفف الحكم إلى السجن المؤبد. هكذا أسدل الستار على أكثر المعارك مأساوية وقسوة وخسارة.

لم ينجو قاطع حنين من الملاحقة والمتابعة الخاصة من قبل القيادة ببغداد وأصدر أمر ارتباطه باللواء العشرين هذا اللواء من القطعات الخاصة ومن الألوية المتميزة بالشجاعة والإقدام تعرفت على أمر اللواء العقيد الركن دريد... وعلى مساعده المقدم الركن كامل الساجت وشرحت لأمر اللواء وضع رفاقنا الصحية وجهلهم بالقتال وأن الحرب بحاجة إلى الشباب المدرب وقيادة مجربة مدركة وأحمد الله كان كبقية الأمرين الذين اتصلت بهم مقيمين وضع القاطع ومصديقين قولي وهي الحقيقة وكما هو الواقع

كان أمر اللواء العقيد الركن دريد عارفاً مهام قيادته. اصطحبتني أكثر من مرة لاستطلاع الجبهة وجرت المناقشة بحضوري مع أمري الأفواج واستوعب الموقف تماماً وكان فعلاً أهلاً لها عندما خاض لواءه معركة الطيب بنجاح وبأقل الخسائر ولم يشارك قاطع حنين بالمعركة حيث أثر أمر اللواء إبقاءه في خطوطه الخلفية وكفانا الله شر القتال وهذه المعركة الثالثة كنت شاهداً عليها دون مساهمة قاطع حنين. هذه أهم الحوادث المؤلمة القاسية التي واجهت قاطع حنين وعاد إلى بغداد بعد أن أمضى تسعة أشهر في القتال.

طالب شبيب يتذكر:

قرأت بإمعان ما أملاه طالب شبيب وزير خارجية حزب البعث في ١٤ رمضان عام ١٩٦٣، على زميله كمذكرة:- فضح هذا الرجل البعثي أبعاد التآمر على حزبه من خلال ما نقل عنه. يقول طالب شبيب أبعد الرفيق علي صالح السعدي عن أمانة سر القطر لحزب البعث واستبدل بالرفيق حازم جواد. استلم الأخير أمانة سر القطر أصبح الرفيق علي عضواً في القيادة القطرية يجلس صامتاً خلال اجتماع القيادة ويخرج طائعاً ينفذ ما اتخذ من قرارات دون اعتراض. وكأنه تلميذ في مدرسة ابتدائية لا ينيس بينت شفاه. هذا هو حال أمين سر القطر. هذا الرجل المساهم في تخطيط ثورة ١٤ رمضان عام ١٩٦٣ عروس الثورات، كانت أجراً عملية ثورية قام بها رجال آمنوا بوطنهم وخلصوا لعروبتهم، رجال صدقوا ما عاهدوا الله والأمة العربية عليه لتحقيق أحلام الجماهير وأهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية. كانت من أنبل الأهداف واسماها. بعد هذا التغيير في رأس قيادة حزب البعث ماذا قدم أمين سر القيادة القطرية الجديدة؟. لماذا جرى هذا التغيير والثورة في أول خطواتها؟ وماذا حل بقيادات الحزب وقواعده وأهدافه عند استلام حازم جواد القيادة؟.

كانت قواعد الحزب وقياداته ملتفة بقوة وحب حول قيادة الرفيق علي صالح السعدي لشجاعته وصدقه ووفاءه لمبادئ حزبه. شاهدت بأم عيني وعلى مدار حكم البعث عام ١٩٦٣ التفاف قواعد الحزب وقياداته حول القيادة القطرية وحول هذا المناضل. كما كنت شاهداً على موقف رئيس الجمهورية عبدالسلام محمد عارف من

الرفيق علي السعدي في المناسبات الرسمية.

كانت تصرفات رئيس الجمهورية تتسم بالإهمال وعدم المبالاة بشكل يلفت النظر قاصداً التقليل من هيئته وإضعاف مكانته. أراد أن يحطم معنوياته لكن الرفيق علي رغم كل ذلك كان مظهره يعبر عن رجولته ونضاله رغم تواضعه واهتمامه برئيس الجمهورية. كانت لقاءات الغزل والتآمر بين الرجلين عبدالسلام عارف وحازم جواد قائمة على قدم وساق، بشكل فعال في أحباك خيوط التآمر على الرفيق علي السعدي وحزبه وقواعده. هدف هذا المحور إلى إبعاد الرفيق علي السعدي عن مراكز القوة في الحزب والدولة.

استمر التآمر في زوايا القصر الجمهوري حتى استقر الأمر إلى انعقاد مؤتمر قطري استثنائي للحزب ليستكمل التآمر أبعاده وتحقيق أهدافه. انعقد المؤتمر القطري في تشرين الثاني عام ١٩٦٣ في المجلس الوطني في كراة مريم. هاجم المؤتمر كمين معد لأسر الرفيق علي السعدي ورفاقه بغية إبعادهم خارج القطر. فعلاً تم التآمر بكل تفاصيله وأبعد المتآمرون القيادة الشرعية للحزب بطائرة إلى بلد أوريبي. لم تنته حبال التآمر بعد وبقي الفصل الأخير منه.

قام عبدالسلام عارف رئيس الجمهورية باعتقال حازم جواد ورفيقه ملهم أفكاره طالب شبيب وأبعدا بطائرة خارج القطر وشربا من البئر الذي حفراه للرفيق علي السعدي ورفاقه وللحزب وقواعده.

انفرد عبدالسلام عارف بالحكم وبدأ الحزب يعيش مأساته الجديدة فاعتقل من اعتقل وشرد من شرد وقتل من قتل. هذا ما قدمته القيادة الجديدة لجماهير الحزب والأمة ضياع وتشرد خلفه حكم عسكري انفرادي. وأخذت السنة السوء تلوك ما تشتره من كذب وتلفيق كي تلصق التهم بالمناضلين الشرفاء. إن كل ما أخذ على الرفيق علي السعدي جلوسه في المطاعم الشعبية وتواضعه بأحاديثه مع جماهير الشعب وقواعد الحزب واعتبرت تصرفاته هذه مساساً بهيبة الدولة. إن الرفيق علي السعدي كان يتعمد هذا السلوك أراد أن يحطم بيروقراطية الدولة أراد أن يرفع مستوى الجماهير إلى سدة الحكم إلى المساهمة بالقرار السياسي. أراد للجماهير أن تلعب دوراً مهماً فعلاً لبناء مصير الأمة. كان رحمه الله عقائدياً مثقفاً مؤمناً بمبادئه

بكل ما في الكلمة من معنى وبأبعاده قبر الحزب وقبرت ثورة ١٤ رمضان عام ١٩٦٣ وقبرت أحلام الجماهير على عظمتها وسموها. هذه هي حقيقة التآمر وأبعاده وهذه هي النتائج المتمخضة عنه.

أترك للتاريخ أن يكتب الحقائق بمداد من النور حتى يضيء كل بيت وكل قلب عراقي وعربي. من سيكتب التاريخ يا عراق؟ هذه هي الحقيقة كان موقف الرفيق علي السعدي من ثورة ٨ آذار عام ١٩٦٣ موقفاً صارماً وحازماً وكشف عن هويته ببرقيته الشهيرة (اسحق حتى العظم). أخاف هذا الموقف اليمين المتآمر والتف حوله أعداء الحزب بما فيهم اليسار الطفولي.

تجمع كل أعداء الحزب يميناً ويساراً كي يحققوا ما كانوا يصبون إليه. كانت البرقية بنظر أعداء الحزب تطرفاً وانتصاراً لحزب البعث وقد تخوفوا من قوته بعد أن حقق الحزب ثورتين في العراق وسوريا خلال شهر واحد. لم يغمض جفن لأعداء الثورتين وكثر عليهم أن تحقق الأمة العربية وحدة في قطرين عربيين وهما قاعدتا الشرق الأوسط ومرتكز قوى الأمة وقلبها النابض أذكر ما قاله الرفيق حازم جواد عندما كنت في مكتبه بوزارة الداخلية بعد أن خلف الرفيق علي السعدي قال لي بملء فيه أن الرفاق في دمشق لا يمكن التعايش معهم ونعتهم بأبشع الكلمات قال لا أثق بهم فنواياهم سيئة ولا يعتمد عليهم. شعرت في حينه أن هوى جواد اتجه نحو العداء لثورة البعث في سوريا وهو البعثي العراقي وأمين سره الجديد ووزير داخلية. أين الوحدة التي ينادي بها الحزب إذاً؟ وكيف نحقق آمال جماهير الشعب؟ ومتى ننصر الجمهورية العربية في مصر. كي تقف الأمة على أمتن القواعد وأصلبها. بدأ خط الانحراف هنا في العراق وانعكس على ثورة سوريا سلباً حتى ضعف القوى واشتد ساعد التآمر الجديد فقضي الأمر بانتهاء حكم حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق عام ١٩٦٣.

دخل الرفاق في السجون وظلت الثورة في سوريا منفردة تعاني من التآمر الجديد داخلياً وخارجياً، حتى استقام الأمر للرئيس حافظ الأسد فأرسي أسس جديدة لحكمه.

اتهم طالب شبيب الرفيق علي السعدي بالطائفية ورد هذا في مذكراته ولست

أدري لماذا تجاوز الرفيق طالب شبيب على أمين سر قطر حزب البعث الرفيق السعدي؟ أنسي أن القيادة القطرية التي رأسها واصطفاها الرفيق علي كان معظمهم من الشيعة مثل حازم جواد وحميد خلخال وهاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي وطالب شبيب هؤلاء خمسة من سبعة أعضاء في القيادة القطرية أين إذن طائفة المرحوم علي؟. حتى في قبرك يتجاوز الآخرون عليك والله إنه مديح. كفاك فخراً يا رفيق النضال يخشاك خصومك وأنت في عالم الغيب.

قال طالب شبيب في مذكراته بأن الرفيق علي صالح السعدي اجتمع بي عندما كنت مدير الشرطة العام وبالرفيق جميل صبري مدير الأمن العام طالباً مقاومة المواكب الحسينية والتصدي لمجالس العزاء.

أقول وأقسم بأن لا صحة لهذا الاجتماع وإنما فرية خطيرة أراد بها طالب ضرب الوحدة الوطنية وإذكاء الروح الطائفية قائمة حتى بعد موته. قدمت رقبتني أبان الحكم القاسمي عندما وقعت على وثيقة لمحافظ بغداد اللواء الركن عبدالوهاب شاكر تعهدت بها استعدادي لحفظ الأمن إذا ما قررت الحكومة إعادة مواكب العزاء ثانية في عاشوراء بعد أن منعت سنين عديدة. أين طائفة أحمد أمين وأين طائفة علي صالح السعدي؟. اترك للتاريخ أن يكتبه من كان قلمه أميناً ومداه نوراً. من يكتب التاريخ يا عراق؟. نظمت المواكب الحسينية كما كانت عليه قبل المنع وسارت الأمور على أحسن حال رغم محاولة الحزب الشيوعي الاندساس في إحدى المواكب لتخريب قدسية العزاء وتعكير صفو الأمن خيبت آمالهم عام ١٩٦٢ فانحسر ظلهم وظلت راية الحسين عليه السلام خفاقة في صحن الكاظمية تؤدي شعائر المذهب الشيعي بحرية وأمان في ظل حماية أمنية أمينة. كنت حريصاً على مزاولة الشعائر الدينية كما يبتغيه أتباع المذهب الجعفري رغم أنني لا أقر شرعية اللطم والتطبير والضرب على الظهر بسلاسل حديدية. إن عظمة آل البيت وتمسكهم بالإسلام روحاً ومعناً أعطى للدين الإسلامي قدسية عظيمة وهيبة رائعة تستحق التعظيم والإكبار والالتزام بالمبادئ التي سار عليها الأئمة الأطهار. طلب محافظ بغداد اللواء الركن عبدالوهاب شاكر ضمان ضبط الأمن إذا ما وافق الزعيم عبدالكريم قاسم على السماح للمواكب الحسينية بإجراء مراسيم العزاء أيام عاشوراء، وخلاف ذلك يتحمل مدير شرطة

الكاظمية عقوبة الإعدام. وقد وافقت على عرض محافظ بغداد واعتذر القائم مقام عن هذا الالتزام. وفعلاً مرت المواكب وفق ما اتفقنا عليه مع رؤساء المواكب بانتظام وسلام. هذا هو موقف الأصفياء. ولينعق المنافقون. القافلة تسير والكلاب تنبح.

عزيز الحاج وحركة الفلاحين:

لم توصلد الباب الموصلة بين مكتبي ومكتب وزير الداخلية، فهي النفق السالك للاتصال المباشر بيننا. دخلت إلى الوزير صالح مهدي عماش من خلال هذا الجسر وإذا هو يهاتف أحد المسؤولين المهمين بصوت عالٍ مع ضحكة وصراخ عالين. قلت للوزير: أفرحني بما سمعت ودعني أشاركك الفرحة يا أبو هدى. فقال والفرحة ترتسم على وجهه بأجلى صورها: أبو ليث، لقد استسلم عزيز الحاج أحد قادة الحزب الشيوعي العراقي وأمين سر الحركة اليسارية المنشقة عنه إلى قيادة حزب البعث وسوف يظهر على شاشة التلفاز قريباً مؤيداً للثورة (حركة ١٧-٣٠ تموز ١٩٦٨) شاجباً موقف الحزب الشيوعي العراقي ومنادياً رفاقه للتعاون مع النظام الجديد القائم.

عرفت عزيز الحاج منذ زمن طويل، ولكن عن كثب من خلال علاقة أخي الدكتور علي بأخيه عبدالأمير، وكانا زميلاً دراسة في مراحل دراستهما الإعدادية. كان أخي الدكتور علي معجباً بأخلاق وتفكير زميله عبدالأمير، وقد قص هذا الأخير في معرض حديثه عن أخيه عزيز ولعه الشديد بالمطالعة حتى توسعت ثقافته. كنت حاضراً هذا اللقاء وانطبعت صورة عزيز الحاج بذهني من خلال مديح وإطراء أخيه عبدالأمير. كان هذا اللقاء في دار عبدالأمير في الشوكة.

بعد أيام قلائل ظهر عزيز الحاج في التلفاز العراقي وهو يرتدي بدلة أنيقة ورباط عنق جميل. أباح للعراقيين بما لم يسبق له إباحتها. وفعلاً طلب الرجل من أتباعه التعاون مع النظام الجديد، واعترف بخطأ مقاومته للنظام القائم مؤكداً أهمية المرحلة القومية وبناء المجتمع على أساس استكمال البناء الاجتماعي السياسي الوطني في هذه المرحلة. كما انتقد مواقف الحزب الشيوعي العراقي مبرراً انفصال حركته عنه. كانت لدوائر الأمن معلومات تشير إلى وجود عزيز الحاج في أهوار العراق لتجميع

جماهير الفلاحين وقيادتها لتحرير العاصمة بغداد من الحكم العارفي. لكن استلام حزب البعث للسلطة عام ١٩٦٨ غيّر موقفه، وقد اقتنع بدعم النظام الجديد وأن لا جدوى من الاستمرار بحركته. استسلم للأمر الواقع. كان عزيز الحاج يمثل الجناح اليساري في الحزب الشيوعي العراقي. شاعت الظروف أن ألتقي به في باريس أثناء اجتماع سفراء العراق في أوروبا - وكان سفيراً لإحدى منظمات الأمم المتحدة في باريس-. تذكرت قول لينين: (يسار اليسار يمين).

أحداث ومصادفة:

كنت في زيارة رسمية للسيد وزير العمل والشؤون الاجتماعية بكر الحاج رسول. دخلت عليه إحدى الموظفات بناءً على طلب السيد الوزير وقد بادرني بالسلام مع تحية حارة. سلم الوزير مطروفاً للموظفة وشكرته وغادرت المكتب. التفت إليّ الوزير وقال: يبدو أنك على معرفة بهذه السيدة. فقلت: نعم، كانت موظفة في مركز البحث الاجتماعي والجنائي يوم كنت رئيساً لهذا المركز وأنها زوجة القائد الشيوعي عامر عبدالله. ضحك وقال: أتعرف ماذا قدمت لها؟ وماذا كان بهذا المطروف؟ قلت: طبعاً لا. قال: قدمت لها جواز سفر وإجازة ستة أشهر تقضيها خارج العراق للالتحاق بزوجها في أوروبا (وعلى ما أعتقد تشيكوسلوفاكيا) مع مبلغ ثلاثة آلاف دولار من مديرية المخابرات العامة.

التحقت الزوجة بزوجها وغادرت العراق إلى غير رجعة، كان هذا من مكارم النظام الجديد للقادة الشيوعيين ولواقفهم المؤيدة لسياسة الدولة، وإن كان هذا التأييد سلبياً. على كل حال أفرغت الساحة السياسية من كل القوى الحزبية ومن كل الوجوه السياسية البارزة، وخلت الساحة للنظام الجديد يفعل ما يشاء وحسب هواه.

بدأت القوى الانتهازية تتسلق سلم الوظائف درجة درجة، وبدأ السباق بين العناصر المتعطشة للوجاهة تصفق وتمدح وتتقدم الصفوف. الكل يطلب صيداً، والكل خلف القوة والزعامة يؤيدون بدون روية وبلا حساب للعواقب ضاربين عرض الحائط المصلحة الوطنية.

امتألت أروقة الحزب بعشرات الآلاف من الانتهازيين وغيرهم يدمرون مبادئ

الحزب بالتصفيق المفتعل والتأييد المطلق للقوى المسيطرة. بدأ الانحراف يعمق جروح الحزب حتى كبرت الهوة للدرجة التي لا يمكن لأي قوة أن تردم هذه الهوة لتعيد للحزب أصالته ومبادئه. استغل أعداء الحزب والأمة العربية هذا الانحراف وقد حققوا ما كانوا يصبون إليه. هذا هو مصير الحزب والعراق والأمة العربية.

ندوات رسمية:

استرعى انتباهي هبوط مخيف في إنتاجية العمال والموظفين، رفعت مذكرة لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية أوضحت فيها مخاوفي من تدني الإنتاجية للدرجة التي باتت تهدد فيها اقتصاد العراق. توسمت بالوزارة خيراً لتبني ما ذهبت إليه، وفعلاً كتبت إلى مجلس قيادة الثورة، واستجاب مشكوراً لاقتراحي فأمر بإجراء ندوات في كل وزارة وما فيها من مؤسسات ومديرية عامة على أن يحضر الوزير هذه الندوات. حضر السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين بعضاً من هذه الندوات، وكنت واحداً من الحضور.

لم يكن لدى كثير من المسؤولين إلمام بماهية الإنتاجية، وكان الخط واضحاً بين الإنتاجية وزيادة الإنتاج بإضافة خط إنتاجي جديد، أي المتوفر من الخطوط الإنتاجية التي أشرت إليها تعني زيادة في الإنتاج مع الحفاظ على خط الإنتاج والعمال القائمين على أداءه. أما إضافة خط إنتاجي آخر إلى خطوط الإنتاج وزيادة العمال لا علاقة له بالإنتاجية. فالإنتاجية تعني زيادة كفاءة العامل من جهة مع الحفاظ على خط الإنتاج فهي الحدود المرسومة له من كفاءة في الطاقة المتاحة له دون استعمال الطاقة القصوى للمصنع مع الأخذ بنظر الاعتبار الإدامة الأسبوعية والشهرية والسنية للآلة المستخدمة في الإنتاج.

أما بالنسبة للموظفين، وللأسف الشديد، كانت الكفاءة متدنية للدرجة التي تدعو للأسى والأسف، ناهيك عن البطالة المقتنعة الواضحة في دوائر الدولة.

طلب مجلس قيادة الثورة إعداد ورقة عمل لكل مؤسسة ومديرية كافة لمناقشة الموضوع بعلمية وجدية. وهكذا انشغلت دوائر الدولة بموضوع الإنتاجية، ونقل التلفاز بعضاً من هذه الندوات. اتضحت الصورة أمامي، وافتضح أمر الدجالين والمنافقين

والأميين ممن توسمت الدولة فيه الخبرة والكفاءة لإدارة المناصب الرفيعة المتحكمة بمفاصل الدولة.

ذهب مجلس قيادة الثورة إلى أبعد من ذلك، فأمر بإعداد ورقة عمل بشأن المرأة العاملة وأوكل إلى المختصين أن يعدوا ورقة عمل بهذا الصدد. قرأت بإمعان ما جاء بورقة العمل وإذا هي ترتكب خطأ قاتلاً، إذ أشارت إلى ذاتية المرأة بخمس نقاط، والحقيقة لا علاقة لهذه الفقرات الخمس بذاتية المرأة إنما هي ظروف موضوعية تحيط بالمرأة العاملة. إن العلمية بهذا الصدد ضرورية لإعطاء الندوات بعدها العلمي الصحيح والابتعاد عن الخلط والغموض.

سجلت أدناه ما ذهبت إليه مع دراسة مرفقة لإغناء ورقة العمل المعدة من أناس لا أعرف أحداً منهم.

فتأكيد ورقة العمل على النقاط الخمس التالية بإعتبارها معبرة عن ذاتية المرأة وهو ليس كذلك:

- ١- قصور في تأهيلها علمياً وفنياً للعمل.
 - ٢- عيوب في تأهيلها السلوكي للعمل وفي جهودها لتقويم الأخطاء.
 - ٣- قيم خاطئة تجاه العمل تؤدي إلى ضعف الطموح والإبداع.
 - ٤- سلوكية سلبية وغير فعالة تعكس عدم شعورها بالمسؤولية.
 - ٥- ضعف الشخصية وعدم الثقة بالنفس.
- كل هذه النقاط لا علاقة لها بذاتية المرأة، بل أنها ظروف موضوعية أحاطت المرأة عبر مسيرتها التاريخية، فإن الظروف الذاتية تتمثل في سعة الشعور، درجة الانفعال، الإدراك الحسي، الذاكرة، التداعي، الخيال، ذكاء المرأة، النشاط، العزم، المثابرة... وغيرها.
- كل هذه مجتمعة تشكل ذاتية المرأة، لذلك استرعي الانتباه لتصحيح ورقة العمل لتكون منسجمة علمياً مع المقصود فعلاً في العوامل المكونة لذاتية المرأة.
- هذا وتقبلوا شكري سلفاً راجياً للنشاط النسوي التقدم والازدهار.

أحمد أمين محمود

محاضرة في ندوة عن المرأة العاملة على ضوء ورقة العمل المعدة لهذا الغرض:
انطلاقاً من تثميني لورقة العمل، أود تسجيل عظيم تقديري واحترامي إلى كافة
الذين أعدوها، وإلى الذين أسهموا في إغنائها فكراً وموضوعاً. وهنا لا بد لي أن
أشير إلى الكلمة القيمة التي تفضل بها سيادة نائب رئيس مجلس قيادة الثورة
الأستاذ صدام حسين، فقد أضفت على الورقة من الأفكار والمضامين ما يدعو إلى
الاهتمام والاسترشاد بها وإعطائها الأولوية في النتائج النهائية لمجمل عملية
استكمال جوانب بحث ورقة العمل.

ومع إقرارى لقيمة الورقة وأهميتها واحترامي العظيم للآراء وللتشخيص الصائب
للصيغ العلمية لزيادة إنتاجية المرأة العاملة، إلا أنني أود أن أتقدم ببعض المقترحات
أملاً في المساهمة البناءة لتوضيح بعض الجوانب التي أراها بحاجة ماسة لإيضاح
أكبر، وشرح أدق، حتى تأتي النتائج بمستوى الطموح. إن أبعاد ورقة العمل
ونائجها العلمية، لن تقف عند حدود رفع كفاءة إنتاجية المرأة العاملة، كما اتضح لي
من خلال دراستي لورقة العمل المطروحة للنقاش، ومن خلال توجيهات السيد نائب
رئيس مجلس قيادة الثورة، وإن وجدت مؤثرات بارزة لتدليل المعوقات التي تواجهها
المرأة أثناء عملها من أجل أداء أفضل وإنتاج أحسن، بل إنها عملية رائدة تسهم
بشكل مباشر في بناء صورة المجتمع العراقي الجديد على أسس علمية، وإن مثل
هذه العملية تحتاج على ما أرى إلى كفاءات عالية متخصصة لتسهم في رسم بناء
مجتمع عربي تقدمي موحد.

إن ورقة العمل، على كل حال، مدخل رئيس يقود بالضرورة إلى بناء المجتمع
الجديد وإن أخذت ورقة العمل اسم الصيغ العملية لزيادة إنتاجية المرأة العاملة،
وعلى كل حال إن أهم الملاحظات التي أراها ضرورية جداً وفي غاية الأهمية هي:

أولاً: المقدمة:

إن المقدمة التي جاءت بها الورقة بحاجة إلى استعراض التطور التاريخي لمكانة
المرأة الاجتماعي ودخولها ميدان العمل حتى لا تأتي العملية مبتورة أو منفصلة عن
السياق التاريخي العام لتطور البشرية. فالمقدمة وإن كانت مدخل وإيضاح لورقة

العمل، إلا أنها لم تسهم في استكمال جوانب الصورة وتساعد كثيراً على تحديد الأهداف المرجوة. ويرى بعض المفكرين أن انتهاء الانتساب للأمم هو الهزيمة التاريخية العالمية للجنس النسائي، فقد سيطر الرجل على السلطة في المنزل وانخفض شأن المرأة تدريجياً حتى أصبحت استجابة لرغبة الرجل ومربية أطفاله. وجاءت الملاحظة هذه بعد تفتت العشيرة الجماعية والتي كانت السيادة في الأسرة للنساء، حيث كان الانتساب للأمم، يعني هذا أن المرأة كانت تتبوأ مركزاً ممتازاً في العائلة والمجتمع، وظهر تدني مكانة المرأة لدى الإغريق والرومان في عصور خلت وإن كانت نظرة الرومان للمرأة أكثر عمقاً من الإغريق.

ظل وضع المرأة الاجتماعي يتطور ببطء، حتى أصبح نظام الزواج مقدساً، وبدأت المرأة تحتل مكاناً ممتازاً في المجتمع، وأصبح نفوذها في الشؤون العامة أكبر شأنًا، وبتوسع رقعة الصناعات زاد انتقال المرأة من المنزل إلى السوق والمصنع، وبدأت سيطرة الرجل تهتز بإزدياد مساهمة المرأة في الإنتاج بعد أن كانت المرأة في ظل العائلة الحديثة قائمة على العبودية المنزلية الظاهرة أو المستترة. وتنبأ بعض المفكرين من أن سيطرة الرجل على المرأة ستختفي تماماً بدخول المرأة كلية في ميدان الإنتاج إذ ستختفي الدوافع التي كانت سبباً في سيطرة الرجل. ولعل الحرب العالمية الأولى فسحت المجال واسعاً أمام إسهام المرأة في كافة الأنشطة الإنتاجية والخدمية لتفسيح المجال للرجل كي يلعب دوره المنظر في تلك الحرب.

ثانياً: خصائص المرأة النفسية وتركيبها الجسماني:

أرى أن ورقة العمل بحاجة ماسة إلى لمسات لذوي الاختصاص في سايكولوجية المرأة، لأن المرأة تمتاز بخصائص نفسية كما يمتاز تركيبها الجسمي بمواصفات تختلف عن سايكولوجية وبيولوجية الرجل، رغم اشتراك الجنسين بكثير من الخصائص. أريد باقتراحي هذا إعطاء المرأة مكاناً خاصاً في المجتمع وفي أنشطته الإنتاجية على ضوء خصائص ومميزات المرأة النفسية والبيولوجية.

إن هذه النظرة التي أود أن أؤكد عليها بإلحاح تعطي المرأة مكانة تنسجم وما أرادت لها قوانين الطبيعة أن تكون. ومن هذه النظرة أرجو أن لا ينصرف الذهن

بأنني أريد أن أضع تمايزاً بين المرأة والرجل، بل على العكس تماماً. إن ما أهدف إليه هو وضع المرأة والرجل كل بمكانه الطبيعي في جميع قطاعات وأنشطة العمل. وفعلاً أبغي تجنب المرأة كثيراً من الأعمال التي لا تنسجم مع وضعها النفسي والبيولوجي حتى ينتظم المجتمع على أساس من التكامل والتفاعل لتحقيق أفضل صيغة للعلاقات الاجتماعية ليحقق أعلى وأفضل إنتاج.

فمثلاً، اشتغال المرأة في جميع وظائف مصلحة السجون ممكن، لكن لا أرى ما يبرر اشتغالها مديرة سجن للأعمال الثقيلة أو الخفيفة للرجل. وإن وجدت بين النساء من تحمل مواصفات معينة تؤهلها للاشتغال بهذه الوظيفة فهي برأيي أقرب للرجل من أن تكون امرأة، وهكذا قياساً على بعض الأعمال المشابهة.

ضربت مثلاً ببعض الأعمال المتدنية في ندوة سابقة كصبغ الأحذية وتنظيف المجاري وغير ذلك. أنا شخصياً أرفض أن تقوم المرأة بمثل هذه الأعمال، كما أنني لم أر امرأة تشتغل بهذا المجال، رغم أن هذه الأعمال لا تحتاج إلى قوة عقلية كبيرة.

إن سبب عزوف الجنس اللطيف عن هذه الأعمال يرجع إلى نظرة التوازن القائمة في المجتمع على احترام العلاقات العاطفية والإنسانية بين الرجل والمرأة، فالنظرة هذه تعبر عن احترام بل وتقديس لهذه العلائق، لكن عندما يشتغل الرجل في معامل الصلب أو الفحم أو الأعمال الشاقة أو تلك التي تحمل طابع المخاطرة تظل العلاقة العاطفية قائمة بين الجنسين ومعبرة عن الانسجام الطبيعي بينهما، كما أن مثل هذه الأعمال التي يقوم بها الرجل قد تكون ذات طبيعة مؤثرة على نفسية المرأة إيجابياً.

إن شعار المساواة بين الجنسين أرجو أن لا يدفع المرأة لإقحام نفسها في أعمال تتناقض تماماً مع تكوينها النفسي والبيولوجي، نريدها أن تحتل المكان المناسب لرفع إنتاجية المرأة والرجل معاً، أريدها إنسانة تتفاعل مع الرجل وكل منهما يكمل الآخر.

إن تجاوز ورقة العمل للجانب النفسي يعني برأيي إسقاط أهم متطلباتها، لأن الإنسان يتحرك بدافع العوامل النفسية المتفاعلة فيه بالإضافة إلى العوامل الأخرى، لذا فإن إهمال هذا الجانب يؤثر بشكل مباشر على الكفاءة الإنتاجية. فمعاملة

الإنسان المعاصر معاملة إنسانية تقوم على احترام مشاعره ورفع معنوياته، يؤدي هذا الاحترام إلى زيادة إنتاجيته بل ويهيئ له الأجواء النفسية للإبداع والخلق.

فيرى ج. هيمانس في كتابه "سيكولوجية المرأة" ترجمة سامي الدوري ص ٥٧، يقول: ما من رأي أطبق عليه إجماع العلماء أكثر مما أطبق على هذا الرأي، وهو أن النساء يستجبن انفعالياً لمؤثرات أضعف بكثير من المؤثرات التي يستجيب لها الرجال، وأنهن يستجبن لنفس المؤثرات بانفعالات أقوى بكثير. حتى أن (كونت) يسمي الجنس النسوي صراحة بالجنس الانفعالي. ويقول (درو) رأيت الحب والغيرة والبغض والخرافة والغضب يصل عند النساء إلى الدرجة التي لا يشعر بها الرجال أبداً. ويرى (ماريون) أن المرأة لا تكاد تخلو من الانفعال أبداً فهي في كل دقيقة من حياتها تحب وتكره شيء واحد، ولا يصفو قلبها من انفعال ما. وفي صفحة ٦٣ من المصدر نفسه: أن النساء يتحزبن دائماً في داخلهن ولو لم يظهرن ذلك. وهكذا، لست هنا بخصوص تجميع الآراء حول خصائص نفسية المرأة، بل أود أن أشير إلى الهدف الرئيس الذي عملت على تحقيقه الورقة، خاصة ونحن في بداية البناء الاجتماعي الجديد والذي يحتاج إلى أساس رصين يدعمه العلم وتنير طريقه تجارب المجتمعات المتطورة والتساؤلات التي أود طرحها في هذا المجال هي:

هل أن العوامل النفسية تؤثر على الإنتاجية سواء كان ذلك في الزيادة أو الانخفاض؟ هل عندما يكون الإنسان بوضع نفسي أفضل تزداد إنتاجيته أو تقل؟

يرى جون بوليت رئيس قسم الطب النفسي في مستشفى سانت توماس في لندن في دراسته أخيراً «أن الفروق بين الرجال والنساء من الناحية الصحية ليست كبيرة، إلا أن من الممكن ملاحظة فروقاً من ناحية المرض النفسي. لقد تبين أن علاقة الجنس بالاضطرابات العامة أكثر شيوعاً لدى النساء، غير أن الفرق الأكبر من ناحية العدد والأهمية هو في الأرقام الخاصة بالمرض النفسي حتى يكون ذلك مضاعفاً لدى النساء».

إن بايولوجية المرأة تؤثر في تحديد سلوك المرض النفسي لدى النساء، فإن المشكلة لم تظهر إلا خلال الـ ٥٠ سنة الماضية وهي السنوات التي بدأنا نسمع فيها عن تحرير المرأة. أعتقد أن الدلائل العلمية تستوجب الاهتمام والعناية وتؤخذ بنظر الاعتبار

عندما نبحث عن العوامل المؤثرة في زيادة إنتاجية المرأة.

ومن الدراسة نفسها لجون بوليت لوحظ زيادة في تغيب المرأة عن العمل وزيادة في حوادث الطرق في أوقات معينة من الشهر. كما أكد دالتون أن ١٢٠ مليون يوم عمل تضيع سنوياً في إنكلترا. ويرى الدكتور محمد مختار صدقي في مقدمته سايكولوجية المرأة لفرويد أن نهضة الأمم لا تأتي عفواً أو ارتجالاً بل هي رهن للنهضات الاجتماعية فيها، ولما كانت هذه النهضات رهناً بالصحة النفسية للأفراد فينبغي رفع مستوى الأفراد من ناحية الصحة النفسية. ومن المصدر نفسه في ص١٢٢: أن المرأة تشعر بأنها دائماً مسلوية الحقوق محرومة من العدل والإنصاف الأمر الذي يعود دون شك إلى تغلب روح الغيرة في حياتها العقلية.

ثالثاً: المرأة في ظل المجتمع الحديث:

إن الاعتبارات المقتضية لزيادة إنتاجية المرأة هي ذات الاعتبارات للعناصر المكونة لزيادة إنتاجية الرجل، إن معوقات العمل لكلا الجنسين تكاد تكون واحدة، ولكن يجب أن نقر أن للمرأة خصائص معينة تعيق إنتاجها بسبب تكوينها البيولوجي، وهذا يقودنا إلى مسألة بالغة الأهمية تمس تنظيم المجتمع بالصميم. وبالضبط تعني تحديد دور المجتمع للقيام بواجبه إزاء المتطلبات المستجدة للأسرة بسبب اشتغال المرأة. فتربية الأطفال، وتنظيم الأعمال المنزلية، وغير ذلك من الواجبات الأسرية تقوم بها المرأة بحكم اعتباراتها العائلية والاجتماعية. يجب إذن أن يضطلع المجتمع بكل أو جزء من هذه المهام بسبب غياب المرأة عن البيت وبسبب اشتغالها، وهو أمر لا بد منه، وهو ما حصل فعلاً في المجتمعات المعاصرة غربية وشرقية كل حسب فلسفته الخاصة.

إن المشكلة التي يثيرها مثل هذا الوضع الجديد -وهو ما يجب أن لا يغيب عن البال- هو رسم الصورة المستقبلية للمجتمع الجديد، أي تحديد الموازنة بين واجبات الأسرة وواجبات المجتمع. وبمعنى آخر، يجب أن تتحدد العلاقات الاجتماعية الجديدة وهو أمر بالغ الأهمية حيث لا تضيع الأسرة في خضم التخبط وتضبيب الصورة، فنظام الأسرة الذي يقوم عليه المجتمع العراقي أمر لم يثبت بطلانه بعد. إن سمات

مجتمعنا المعاصر والذي يقوم على أساس وجود الأسرة يؤدي دوراً إيجابياً وإن كانت نواقصه جمة إلا أن عملية تطويره وإصلاحه بسبب وضع المرأة الجديد في المجتمع يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار، فالتماسك الروحي والترابط العاطفي في العائلة يلعب دوراً في العلاقات الاجتماعية. لذا تنظر المجتمعات المتطورة بعين الاحترام لهذه العلاقات، خاصة بعد أن ضعفت العلاقات العاطفية بين أفراد الأسرة في مجتمعاتنا.

لذا أرى على ورقة العمل أن تحدد ورقة العمل صورة البناء الاجتماعي الجديد بوضوح ودقة حتى يمكن التحكم بعملية التوازن بين الحفاظ على دور الأسرة ودور المجتمع، وهذا يتطلب دراسات تفصيلية. وكان على الورقة أن تشير إلى تجارب الشعوب بهذا المجال من خلال الإحصائيات العلمية العالمية، فخرج المرأة للعمل أكثر كثيراً في حجم الأسرة وكذلك في العلاقات الزوجية وانشغال الأم عن أطفالها. كما أن حدوث بعض التغيير في القيم والاتجاهات المعروفة وبين عملية تخطيط الإنجاب تبين أن عدد أطفال النساء المشتغلات والأمهات أقل إذا ما قورنت بالنساء غير المشتغلات. والدراسات التي أجريت للتعرف على آثار خروج المرأة للعمل على تغيير القيم السائدة في الأسرة، فقد تبين أن الزوجات المشتغلات وأزواجهن قد تغيرت بشدة نحو المساواة في السلطة، بينما تبين أن ربات البيوت قد اتجهن نحو السلطة التقليدية، حيث يسيطر الرجل (من دراسة بلود وهاملين).

أما بالنسبة لأداء الأعمال المنزلية، فمن المعروف تقليدياً أن المسؤولية تكون من اختصاص الأم. وفي عام ١٩٥٨ بينت دراسة (هير) أن النساء من الطبقة الدنيا يعملن من أجل المادة أكثر مما تفعل النساء العاملات من الطبقة الوسطى اللاتي غالباً ما يذكرن أن الاستمتاع بالعمل وهو الدافع إليه. وفي دراسة بارو عن عمل الأم وتربية الطفل عام ١٩٦١ تبين أن ٥٢٪ من الأمهات يعملن من أجل توفير أهداف صحية وثقافية لأفراد الأسرة.

وفي دراسة فرانكل، تضع قيمة كبرى لدور الأم وقيمة صغيرة لعملها كإمرأة عاملة. ومن نتائج بحث فيدل تبين أن غالبية النساء اللاتي يدرسن دراسات عليا يهتمون بالزواج والأسرة أولاً ثم بمستقبلهن الدراسي ثانياً. وقد ذكرت أغلب

السيدات قطع دراستهن أو عملهن في حالة وجود أطفال من أجل العناية بهم. ودراسة أمين عام ١٩٥٢ أجريت على عينة بحدود ٤٠٣ طالب وطالبة بواشنطن، فقد أبدى أكثر من الثلثين من كل جنس رأيهم في أن أهم واجبات المرأة هو الزواج وإنجاب الأطفال.

قد يتوقع البعض أن أطفال الأم التي تعمل خارج المنزل يختلفون عن أطفال الأم غير المشتغلة، ولكن المشاهدات والبحوث لا تدعم هذا الافتراض، ويتضح أن البحوث التي أجريت لاستكشاف نتيجة اشتغال المرأة وتأثيره على العلاقة الزوجية غير متفقة مع بعضها البعض، فبعضها يؤكد آثاراً إيجابية، والآخر ينفي وجود هذه الآثار. إن هذه الشواهد تغني الورقة وتجنبنا كثيراً من النتائج المعتمدة على التأمل والاستقراء، كما أنها تلقي ضوءاً على جوانب المرأة العاملة، وبرأيي أن تستتبع عملية الندوات دراسات تفصيلية.

فإذا ما حقق المجتمع كثيراً من الطول التي تقضي بها ورقة العمل، فهي تعتبر برأيي من أهم المحفزات لزيادة إنتاجية المرأة والرجل في آن واحد، وإن المحصلة النهائية لهذه الإجراءات هي خلق شعور بالرضا والاطمئنان عند الجنسين لتخفيف عوامل القلق عندهما حتى يرفع المجتمع بعجلة الكفاءة الإنتاجية إلى الأمام. وقد تبين أن للعمل بحد ذاته أهمية كبرى في حياة المرأة في مقال (وايت وسانجدون) وقد وجد ذلك عند سؤال ٣٢٥ امرأة عاملة.

وفي عام ١٩٥٢ أجري استفتاءً في الولايات المتحدة الأمريكية يسمى استفتاء (بيدجون) عن ٣٨٠٠ سيدة ممن يعملن عضوات في الاتحاد، فتبين منه أن ثلاثة أرباع المجموعة تعمل أساساً من أجل إعانة الأسرة. وفي عام ١٩٥٣ جاء تقرير (شوستيك) أنه تبين من نتائج المسح الذي تم عن طريق البريد على خمسة آلاف امرأة حديثة التخرج أن ثلثي مجموعة المتزوجات اللاتي كن يعملن من قبل إنما يعملن من أجل مساندة دخول أزواجهن، كما بينت نتائج البحوث المختلفة دوافع أخرى تدفع المرأة الحديثة إلى الخروج للعمل، أهم هذه الدوافع هو التحصيل والاستمتاع بالعمل مع الرغبة في تأكيد الذات، وكذلك ما يحققه العمل من حياة اجتماعية (عن الدكتورة كاميليا عبدالفتاح في سايكولوجية المرأة العاملة، ص ٨٢).

وقد تبين أن الأمهات المشتغلات قد قطعن مرحلة في التعليم أكثر من تلك التي قطعتها الأمهات غير العاملات (من نتائج بحث كليجر).

وقد تبين من بحث بارو أن ثلاثة أرباع مجموعة عددها خمسون أم عاملة من الطبقة الوسطى يفضلن العمل إذا كان الأمر يتوقف على مجرد الاختيار.

رابعاً: اقتراح مكتب التنمية الاجتماعية بدلاً من مكتب شؤون التغيير الاجتماعي:

إن اقتراح الورقة لتشكيل مكتب شؤون التغيير الاجتماعي ص ٤٢ من ورقة العمل أرى ضرورة تسميته بمكتب التنمية الاجتماعية، لأن المسألة المطروحة بالورقة تقترب كثيراً من التنمية الاجتماعية، كما أن التسمية المقترحة أقرب للعملية وأكثر تحديداً لأنها تعني بتنمية قدرات الإنسان ورفع كفاءته الثقافية والعلمية وخبراته العملية.

خامساً: الظروف الموضوعية والذاتية للمرأة:

إن ما ورد في الصفحة ٩ من ورقة العمل تحت عنوان "الأسباب الذاتية لإنخفاض إنتاج المرأة العاملة" والنقاط الخمسة المدرجة تحت هذا الباب لا علاقة لها بذاتية المرأة على ما أعتقد.

الفصل الثالث

حزب البعث والحركات السياسية الكردية

لعبت العلاقات الشخصية دوراً مهماً في بناء الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، كانت علاقتي الشخصية وثيقة مع الصديق الكردي طاهر شهباز الحيدري. تمتد هذه العلاقة إلى عام ١٩٦٢ يوم كنت مديراً لشرطة الكاظمية. كان الأخ طاهر قائممقاماً فيها. توثقت هذه العلاقة وقويت يوم عملت على إطلاق سراحه وزميله الكردي العميد الركن مصطفى عزيز عندما كانا معتقلين في السجن العسكري رقم واحد. حدث ذلك في الأيام الأولى من انبثاق ثورة ١٤ رمضان عام ١٩٦٣، ظلت علاقتنا تتوثق أكثر فأكثر مع مرور الأيام نغذيها بروح من الوفاء والإخلاص حتى أثمرت على الصعيدين السياسي والعمل الجبهوي.

عرفني الأخ طاهر الحيدري على قياديي الحزب الوطني الكردستاني أيام كنت محتجزاً بداري بعد ردة تشرين. استمرت زيارات الإخوة الكرد، وفي كل لقاء كنا نستعرض أحداث الماضي المساوية بحرارة وأسف شديدين.

كان موقفي من القضية الكردية بمطلع ثورة ٨ شباط عام ١٩٦٣ موقفاً مؤثراً في نفوس الكرد بصورة عامة وبالقوى السياسية الكردية بشكل خاص. أبرقت إلى كافة محافظات القطر أمراً لإطلاق سراح كافة المعتقلين والمحتجزين السياسيين الكرد. اتصل بي محافظ الناصرية الأخ فوزي جميل صائب تلفونياً استوضح عن مصدر البرقية، وكانت صادرة من الشرطة العامة. أبلغته أن هذا القرار صدر بموافقة وزير الداخلية وأمين سر القطر لحزب البعث المرحوم علي صالح السعدي. رجاني أن تصدر برقية ثانية من وزارة الداخلية كي يتسنى تنفيذ ما جاء فيها. كان طلبه معقولاً من حيث الانتماء الوظيفي. اتصلت بوزير الداخلية موضحاً طلب المحافظ، فأمر بإصدار برقية بذات المعنى عن وزارته، وفعلاً صدرت البرقية مؤكدة بما أبرقنا به.

أفرحت البرقية إخواننا الأكراد واستبشروا خيراً بالثورة وبقادتها، أملين للعراق مستقبلاً خيراً ووعداً. ثارت تائراً الحاقدين ممن لا يروق لهم وحدة الشعب العراقي ووحدة القوى السياسية الفاعلة. انبرى بعض من قياديي حزب البعث وآخرون من قياديي مجلس قيادة الثورة وعلى رأسهم عبدالسلام عارف رئيس الجمهورية متصددين لوزير الداخلية الرفيق علي.

أخذوا يوجهون له اللوم والتجريح لموقفه من القضية الكردية. قال البعض منهم بأن وزير الداخلية (الرفيق علي) كردي القومية، وهكذا بدأ خط انكسار الرفيق علي أخذاً بالظهور شيئاً فشيئاً، حتى وصلت الأمور إلى إبعاده عن أمانة سر القطر. صدر مرسوم جمهوري بإعفائه من وزارة الداخلية ونسب لوزارة الإعلام، واستلم وزارة الداخلية حازم جواد بدلاً عنه.

ظلت الخلافات الحزبية والوظيفية تنخر في عظام الثورة حتى انتهت بإبعاد الرفيق علي صالح السعدي ورفاقه هاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي وحمدي عبدالمجيد أعضاء القيادة القطرية الشرعية لحزب البعث إلى خارج القطر وسفروا بطائرة خاصة. شملتني صراعات طرفي الحزب واعتبرت من أنصار الرفيق علي ومن أعوانه السياسيين. واعترافاً بالحقيقة كنت فعلاً من مؤيدي سياسته بسبب التزامه بعقيدة الحزب وأفكاره وأهدافه، لأنه أمين سر القطر الشرعي يوم إعداد ثورة ١٤ رمضان وكان سبباً من أسباب انتصارها.

نفي الرفيق علي صالح السعدي ورفاقه خارج القطر. استمرت تصفية الرفاق الحزبيين حتى شملت التصفية كثيراً من القيادات الدنيا حتى وصلت لبعض قواعد الحزب. سجن الكثير منهم، كما شرد الآخرون.

شجون أحداث ثورة عام ١٩٦٣ والأحداث الدامية بعيد ثورة عام ١٩٥٨، يوم استحوذ الشيوعيون على الشارع بمعاونة الزعيم عبدالكريم قاسم، فتحت الباب واسعاً أمام العمل الجبهوي لرأب التصدع في صفوف القوى السياسية عند قيام ثورة رمضان. وفعلاً تجاوب الكرد بحزبيهما الرئيسيين (الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة ملا مصطفى البارزاني وحزب الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة إبراهيم أحمد ونسييه جلال الطالباني).

تطور الحوار الثنائي الشخصي إلى عمل جاد ومثمر، التقى حزب البعث العربي الاشتراكي مع الحزبين الكرديين الرئيسيين الفاعلين في الساحة السياسية عام ١٩٦٥ . أناب الحزب الوطني الكردستاني المناضل الوطني صالح اليوسفي، وترأس الاتحاد الوطني الكردستاني الأخ إبراهيم أحمد والسيد جلال الطالباي. جرت الاجتماعات أسبوعياً مع الحزبين كلاً على انفراد دون إثارة أي حساسية بين الأطراف المتفاوضة. استمر الحوار حول إيجاد صيغة مرضية لعمل جبهوي رغم سلبات الماضي وأخطاء الأحزاب المتناحرة يوم ذاك. كما سنحت الظروف لمد جسور اللقاء مع الحزب الشيوعي العراقي. كانت بدايات العمل مع الحزبين الكرديين والحزب الشيوعي كلاً على انفراد لتأسيس الجبهة الوطنية والقومية التقدمية. تم ذلك من خلال العلاقات الشخصية يوم كان لي دالة على بعض قياديي الحزب الشيوعي، مما ساعد على تعزيز الثقة بين الحزب الشيوعي وحزب البعث، كنت حلقة الوصل لهذا التقارب. لم تنبثق فكرة الجبهة الوطنية والقومية التقدمية بذهني عن نزوة عابرة ولا من رغبة طارئة، بل جاءت من اهتمامي بالوضع الوطني العراقي السياسي المزق.

إن صراع القوى السياسية الدامي وتصفية بعضها البعض بقسوة وحقد وضع المناضلين أمام مسؤولياتهم التاريخية لإنقاذ الوضع الوطني المتردي وإيقاف حمامات الدم وإيجاد صيغة مقبولة ترضي الأحزاب السياسية المحتربة وصولاً إلى عمل سياسي مشترك. بدأ تكوين الجبهة الوطنية بشكل منتظم، كما اتسع نشاط المكتب السياسي لحزب البعث فشمّل جميع القوى الوطنية الفاعلة في العراق.

اتصل المكتب السياسي بالقوى القومية بدءاً بحزب العربي الاشتراكي جماعة المحامي عبدالرزاق شبيب ومجموعة السيد هشام الشاوي. تعرفنا عليه، فأوكل عملية الحوار إلى زميل له في الكرخ غاب اسمه عن ذهني. اعتذر هذا الرجل عن العمل قائلاً: إني تركت العمل السياسي منذ زمن. صاحبي الرفيق محمد المشاط بهذا النشاط الأخير لكونه أحد أعضاء المكتب السياسي لحزب البعث. استمرت اللقاءات مع الأطراف المعنية لتطوير العمل السياسي وصولاً لبناء الجبهة الوطنية، وأما حزب العربي الاشتراكي فقد انفرط عقد قياداته ولم نجر أي اتصالات معه. كانت اللقاءات أسبوعية، وخصص لكل حزب يوم معين للاجتماع مع حزب البعث (المكتب

السياسي). حمدت الله على نجاح المهمة رغم صعوبتها وتعقيداتها دون أن ينكشف عملنا السري المتواصل الدؤوب على خطورته ورغم استمرار زيارات المندوبين للأحزاب وتوافدهم على داري حسب المواعيد المتفق عليها بالإضافة لزيارات غير محسوبة.

توثقت علاقتي بالكرد وبقواهم السياسية حتى أصبحت محوراً سياسياً في العمل الجبهوي. هكذا نمت وتطورت رغبتني الشديدة في النضال لإنقاذ الوضع السياسي المتدهور في العراق.

نبذة عن تاريخ النضال الكردي:

توزع الكرد على مساحة جغرافية شملت العراق وإيران وتركيا وسوريا. أصبحت القومية الكردية مبعث فخر واعتزاز عند الكرد خاصة. بدأت الأفكار القومية العالمية تبعث النشاط في نضالهم الاجتماعي السياسي. برزت هذه الأفكار أواسط القرن التاسع عشر. أخذت بالظهور على شكل انتفاضات وحركات وثورات كلما سمحت الظروف بذلك. ومن أبرز هذه الحركات ثورة الشيخ عبيد الله في تركيا، وقد باركها السلطان عبدالحميد الثاني. بدأت الثورة بتوحيد أكراد تركيا والعراق وإيران لكنها باءت بالفشل لسوء حظ الكرد. رفض أكراد إيران هذا التوحيد تحت راية تركيا. لعب الخلاف المذهبي الطائفي دوراً بانفراط عقد الوحدة بين الأطراف الكردية، إضافة إلى العوامل السياسية الأخرى لهذه الحركة.

تأثر المثقف الكردي بالتيار الفكري القومي الأوروبي، حيث قامت دول أوروبا على أساس قومي عند تكوينها. قبل عام ١٨٧٠م كان الكرد جزء من تاريخ الأقاليم الإيرانية، حيث فضل أكراد المدن التلاحم مع القومية الإيرانية بسبب جاذبية التاريخ المشترك لعظمة الإمبراطوريات الفارسية التي نشأت عبر التاريخ وكان الكرد جزء منها. إن اندماج العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخ المشترك خلق مثل هذا الشعور عند أكراد إيران.

لقد سبق لأكراد إيران أن شكلوا الجناح العسكري للسلالة الإيرانية لكونهم قوم محاربون أشداء، يتميزون بالعناد والمطولة والشجاعة. كان الكرد جزء مهم في بناء

الإمبراطوريات في بلاد فارس. التحموا مع الأقوام الإيرانية لبناء الإمبراطورية الفارسية حيث يجمعهم الأصل الآري والأرض والتاريخ واللغة لحد ما. هذه لحظة عن تاريخ الكرد في إيران لعلاقة هذا السرد المختصر بأكراد العراق ونضالهم المشترك في القرنين التاسع عشر والعشرين.

الكرد قوم من الأقوام الميديّة القدماء، يرجع تاريخهم إلى الكوتيين (زمن المملكة الكوتية القديمة) التي ظهرت قبل المسيح بأربعة وعشرين قرناً، وهم من السلالة الإخمينية من العنصر الآري كما وردت هذه المعلومات في الدراسة التي قدمها ريتشارد كوتم (كتاب القومية في إيران).

شهد تاريخ العراق الحديث ثورة كردية بزعامة الشيخ محمود بعيد الحرب العالمية الأولى عندما هزّ هدوء كردستان اتجاهان مختلفان اختلافاً تاماً لإقامة دولة كردية مستقلة، يقود أحد هذان الاتجاهان الشيخ محمود، ويقود لإتجاه الآخر القادة المثقفون القوميون. أدى هذا الاختلاف إلى فشل قيام كيان كردي مستقل.

جرت محاولة أخرى أثناء انعقاد معاهدة سيفر للمصالحة بين تركيا من جهة واللفاء من جهة أخرى. استطاع الكرد إقناع الإنكليز لإدخال بند في بنود المعاهدة يمنح الكرد دولة كردية خلال عام واحد إذا ما رغبوا بذلك، لم يتحقق هذا البند بسبب الخلافات الكردية بالإضافة إلى الأعباء السياسية الدولية.

قاد الشيخ محمود اتجاهاً قومياً عشائرياً، التف حوله كثير من العشائر الكردية، أما المثقفون الكرد فقد تمسكوا بالأفكار التقدمية. أدى هذا التناقض إلى إضعاف حركة الشيخ محمود حتى وقع أسيراً بيد الإنكليز بمعركة دربندى بازيان. نفي إلى الهند مع محمد غريب زوج أخته. صدر بحقهما حكماً بالإعدام وأبدل بالسجن. أخيراً صدر عفواً خاصاً بموجبه عادا إلى العراق ومنح حكماً مستقلاً في السليمانية. إلا أن طموح الشيخ محمود لم يقف عند هذه الحدود بل امتد أوار ثورته إلى أكراد تركيا وإيران مما ألب عليه الدول المحيطة بكردستان العراق (إيران وتركيا) فأحبطوا عليه هذا الطموح المتعاضم وانتهت محاولته بالفشل.

من المفيد أن أشير هنا مادامت بصدد القضية الكردية إلى الحركات المتعاقبة بعد ثورة الشيخ محمود الفاشلة، لتلقي ضوءاً على أوضاع الكرد في العراق. ظهرت على

المسرح الكردي حركة كردية قادها إسماعيل أغا الملقب بـ(سمكو) صهر فارس أغا الزبياري جمع فيها أكراد منطقة أورميا داخل حدود إيران بالإضافة إلى أكراد العراق. لاقت حركته تأييداً واسعاً عند جميع الكرد حتى اشتد ساعده وامتد نفوذه. بدأ شاه إيران رضا شاه يخطط لضرب وتدمير هذه الحركة. في عام ١٩٢٦ دعاه الشاه إلى إيران بحجة التفاوض معه حول تحديد مصير الكرد. قبل إسماعيل أغا الدعوة مصدقاً زعم الشاه. اتجه الرجل إلى إيران. فاجأه كمين معاد فأرداه قتيلاً، وأرسل إلى طهران محمولاً على سهوة جواده. بهذا الحدث أنهى رضا شاه حركة سمكو.

عود على بدء لإكمال صورة نضال الشعب الكردي العراقي. عرض الملك فيصل الأول على الكرد اللقاء مع إخوانهم من القوميين العرب جماعة العهد والعلم. رفع الكرد برقية إلى مؤتمر باريس حولوا فيها فيصل بن الحسين ومولود مخلص وجودت علي الأيوبي كمثلين عن الكرد. كانت هناك رسائل متبادلة مع الزعيم الكردي رشيد برواري والزعيم التركماني نديم نبطجي لتوثيق أوأصر العلاقة بين العرب والكرد تحت مظلة الملك فيصل الأول أملاً باستقرار العراق بشماله وجنوبه.

منح الملك فيصل الأول (رحمه الله وأسكنه فسيح جناته) سيد طه محمد صديق حاكمدارية السليمانية وراوندوز في أول عهد تشكيل الحكومة العراقية الوطنية عام ١٩٢٢، إلا أن هذا العرض باء بالفشل حيث لم يجد قبولاً من الطرف الآخر. كما حالف الفشل عبدالكريم فتاح الهماوندي حليف الشيخ حفيد زاده. هاجم عبدالكريم الهماوندي الحامية الإنكليزية في جمجمال وقتل ضابطين وعدداً آخر من الجنود. رد عليه الإنكليز بقوة حتى انتهت محاولته بالفشل أيضاً. وهكذا تعثرت الحركات الكردية على مدار سنين نضالهم.

في الجارة إيران، تشكلت حركة كردية عام ١٩٤٣ في مها آباد المركز الحضري المهم في المنطقة الكردية سميت بالجمعية القومية الكردية "كوميل". قاد الحركة القاضي محمد حتى تمكن من إعلان تشكيل حكومة كردية مقرها مها آباد عام ١٩٤٦.

قوت الحركة واشتد ساعد القاضي محمد وأعلن استقلال حكومته. استجاب لثورته

رؤساء وشيوخ القبائل الكردية. وفي العراق أيد الملا مصطفى البارزاني القاضي محمد والتحق بحركته وعين رئيس أركان الجيش في الحركة. لم يكن لخانات الكرد حماساً بقيام هذه الدولة بحجة علاقة الدولة الكردية الجديدة بالاتحاد السوفيتي وبسبب أفكاره التقدمية أيضاً.

انفرط عقد تحالف خانات الكرد مع القاضي محمد بسبب التناقض الفكري العقائدي لكلا الطرفين مما أضعف الحكومة الكردية الجديدة وتبعثرت قواها. قام الجيش الإيراني بقلب نظام الحكم في مها آباد وبدأ بتصفية رموز الثورة. أعدم القاضي محمد وبعضاً من قياداته، أما الملا مصطفى فقد هرب إلى الاتحاد السوفيتي. وبهذه التصفية تلاشت أحلام الكرد مرة أخرى. وتعذر قيام دولة كردية في إيران بعد فشل حكومة مها آباد.

لعبت السياسة الدولية دوراً تخريبياً ضد الحركة الكردية، وكانت واحدة من أسباب هذه المأساة. إلا أن نضال الشعب الكردي ظل مشتتاً وأواره وظل الكرد يبحثون عن طرق نضالية جديدة لتحقيق أحلام شعبهم.

بعد هذه المقدمة المختصرة عن الحركات الكردية تواصلت لقاءات حزب البعث (القيادة السياسية) مع الحزبين الكرديين الرئيسيين. ظل المناضل صالح اليوسفي ممثل الحزب الديمقراطي الكردستاني على اتصال مستمر معي، وقد كاد يكون اللقاء يومياً. أما حزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني فقد أدام أواصر علاقاته مع حزب البعث، وكان السيد جلال الطالباني ممثلاً لحزبه في هذه المفاوضات.

لعبت العلاقات الودية الصميمية دوراً مهماً لبناء الثقة المتبادلة بين الأطراف المتفاوضة وسهلت بناء الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

عرض صالح اليوسفي استعداد حزبه لتقديم مساهمة فعالة إذا ما قرر حزب البعث القيام بالثورة، وحزبه يضع خمسمائة مقاتل تحت تصرف حزب البعث.

قامت حركة ١٧ تموز عام ١٩٦٨ بقيادة حزب البعث وبمعاونة بعضاً من ضباط الاستخبارات العسكرية وعلى رأسهم العقيد الركن عبدالرزاق النايف ورفاقه ذوي الاتجاه القومي الوحدوي، وقد أسهم ضباط القصر الجمهوري المسؤولون عن حماية

رئيس الجمهورية عبدالرحمن عارف بإنجاح حركة ١٧ تموز. وقد أسهم الرائد سعدون غيدان أمر كتيبة دبابات القصر الجمهوري بدعم هذه الحركة.

لم يجد حزب البعث حاجة للعرض الذي قدمه ملا مصطفى، لذلك لم تسهم قوات الكرد المقترح إشراكها بهذه الحركة. وهكذا أنجزت الحركة مهمتها بنجاح لتضافر جهود القوى المشاركة واستلم حزب البعث الحكم في العراق.

طالب ممثل الحزب الوطني الكردستاني المرحوم صالح اليوسفي بمقاعد وزارية، وقد ألح عليّ لألعب دوراً وسيطاً لإنجاح طلبه. اتصلت بالقصر الجمهوري في اليوم الأول من قيام الحركة، وقد عرضت على القيادة الأمر، فأرسلت سيارة خاصة لنقل المرحوم صالح اليوسفي والسيد حبيب كريم، وقد غادرا داري متجهين إلى القصر الجمهوري للاجتماع بمن يمثل مجلس قيادة الثورة الجديد. هناك جرت مفاوضات جديدة، وتوصل الطرفان إلى الحل المقبول لكليهما.

أبرق صالح اليوسفي عن طريق وزارة الداخلية إلى الشيخ ملا مصطفى البارزاني عندما كنت وكيلاً لوزارة الداخلية، وقد تضمنت برقيته:

- ١- احترام سيادة السلطة على مراكز المدن والقصبات ومنع فصائل الفرسان والجلالين من حمل الأسلحة داخل المدن وإعادة الحياة الطبيعية لكردستان العراق والسماح للقوات العراقية التابعة للجيش والشرطة والأمن للقيام بواجباتها لإيقاف جميع أعمال العنف وإيقاف الحملات الإعلامية المثيرة (الإذاعة والصحف) والعمل على الإشادة بروح الأخوة والتعاون العربي الكردي.
- ٢- عدم التعرض للقوات المسلحة الحكومية وطرق مواصلاتها ومنشآتها ومخافرها مع عدم قيام تلك القوات بأعمال تخريبية وعدائية وإيجاد روح من الود والوئام.
- ٣- إطلاق سراح كافة المحتجزين من مراتب القوات المسلحة مع أسلحتهم ومعداتهم المستولى عليها وإعادتهم إلى وحداتهم ومخافرهم وإخلاء سبيل جميع المحتجزين والموقوفين من جماعتنا (الكرد).
- ٤- تعيين لجنة مشتركة من قبل الإخوان المسؤولين ومن قبلكم ومن المكتبين السياسي والتنفيذي بحدود ثلاثة أشخاص أو أكثر للقيام بمواصلة ما تبقى من بيان ٢٩

حزيران كاملاً وعلى ضوء النقاط التي تباحثنا عليها وطرحناها عليكم بشكل جدي في بغداد. تقوم السلطة بالرعاية والحماية ويتعهد المسؤولون القيام بالالتزامات المذكورة من جانبهم. أرجو التفضل وأمركم بما يلي:

أ- إشعار كافة المقرات بتنفيذ الفقرات (١، ٢، ٣) بما يتعلق الأمر بنا.

ب- تعيين ممثلين من قبلكم وإعلامي فيما إذا أنضم إليهم أم أتوجه نحوكم أو أمكث في بغداد إلى إشعار آخر.

وقد وردتني البرقية التالية من الشيخ ملا مصطفى البارزاني إلى صالح اليوسفي سلمتها إليه في حينه.

«وافق الملا على ما جاء ببرقية الأخ صالح اليوسفي وأبدى استعداد واستعداد المكتبين السياسي والتنفيذي على تشكيل اللجنة المشتركة للنظر في تطبيق المقترحات التي ذكرتموها والعمل على تنفيذ بنود اتفاقية ٢٩ حزيران عام ١٩٦٦، نرجو أن تتوجهوا إلى طرفنا للتباحث حول هذا الموضوع واتخاذ القرارات اللازمة التي تضمن خدمة شعبنا ووطننا العراقي وترصين وحدته الوطنية: نرحب بممثلي الحكومة في اللجنة المشتركة إن أرادوا التوجه إلينا معكم، ونعتقد أن مجيئهم سيعطي طابعاً أكثر جدية للمداولات المزمع عقدها».

قدم الأخ صالح اليوسفي رسالة مطولة إلى الفريق الأول صالح مهدي عماد وزير الداخلية شارحاً فيها رأي الملا مصطفى ورأي المجلسين التنفيذي والسياسي للحزب الوطني الكردستاني. وقد طلب إرسال من يرافقه للتباحث مع القيادة الكردية في الشمال، وفضل أن يصطحبه السيد أحمد أمين لثقة الإخوان في الشمال برأيه ومواقفه الوطنية.

كتب السيد زير الداخلية بخط يده ما يلي رداً على رسالة المرحوم صالح اليوسفي: «إذا كان السيد اليوسفي يريد الذهاب بدون عودة فإننا نعلم بذلك. وإذا تصور أن الأمور ستسيء بيننا وبين الملا فإننا سوف لن نكون البادئين. وإذا تصور أن سوء الأحوال سيجلب له متاعب عندما يكون في بغداد فهو واهم، وإننا نرعى كل المواطنين». وللتوثيق، سأرفق كافة الوثائق والبرقيات في خاتمة هذه المذكرات.

كان جواب وزير الداخلية ضربة قوية ومفاجئة للأخ صالح اليوسفي، وبدأ يشعر بأن الأمور ستسيء بين الطرفين إذ حملت الإجابة رفضاً لمقترحات ملا مصطفى وكما رفضها إرسال من يمثل الحزب والثورة للمباحثات بغية تصفية الأمور في الشمال وإنهاء الخلافات بين الطرفين والعمل على استتباب الأمن وعودة الأمور إلى طبيعتها. كان موقف وزير الداخلية ضربة للجبهة الوطنية والقومية التقدمية أيضاً، وذهب نضال سنين من اللقاءات والتفاوض أدراج الرياح.

ظل الموقف غامضاً بانتظار ما سيقدره مجلس قيادة الثورة العراقي. تدهورت الأوضاع في شمال العراق شيئاً فشيئاً إلى أن بدأت العمليات العسكرية، وقام وزير الداخلية صالح مهدي عماش بقيادة وتوجيه المعارك على طول وعرض المدن في كردستان، وبدأ ضباط الجيش القادة يتقاطرون على وزارة الداخلية للتشاور ولاستلام التعليمات من وزير الداخلية، وصدرت التوجيهات والبرقيات من الوزارة نفسها. عاد العراق مرة أخرى إلى الصراع الدامي بين العرب والکرد أبناء الوطن الواحد، وتمزقت لحمة القوى السياسية مرة أخرى.

أخذ موقف القيادة السياسية لحزب البعث يتغير شيئاً فشيئاً نحو الابتعاد عن مفاهيم الجبهة الوطنية والقومية التقدمية خلافاً لما اتفقنا عليه مع القوى السياسية الفاعلة على الساحة العراقية. تأثرت علاقة حزب البعث تأثيراً ملموساً مع الحزب الوطني الكردستاني (جماعة ملا مصطفى). أخذ هذا التغيير أبعاده بعيد استلام حزب البعث للسلطة. أخرجني هذا الموقف، وبدأت أشعر بالخجل أمام المفاوضين الكرد، كما لم يكن لدي ما أدافع عنه، إذ أعيتني الحجة، فانفرط عقد الاتحاد الوطني الكردستاني، وانزوى رئيسه الأستاذ إبراهيم أحمد المفاوض الأول مع المكتب السياسي لحزب البعث. وسافر الأخ جلال الطالباني إلى الشمال والتحق بالشيخ ملا مصطفى البارزاني ولم يبق طرفاً مفاوضاً إلا جماعة الحزب الوطني الديمقراطي الكردستاني.

استمرت المفاوضات أسبوعياً، ولم يكن لدينا ما نبخثه مع أطراف الجبهة لا عقائدياً ولا تنظيمياً ولا سياسياً. ظلت الجلسات فارغة من أي حديث إلا حديث المجاملة. جرت هذه الأحداث قبل قيام الحرب على الكرد.

في إحدى اجتماعات المكتب السياسي لحزب البعث وفي مكتب وزير الثقافة والإعلام الأستاذ عبدالله سلوم -يوم كان يرأس المكتب السياسي- طرحت عليه النتائج الخطيرة المترتبة على تنصل الحزب من التزاماته، طرحت الموضوع بعصبية وبصوت عالٍ، قلت: إن حزبنا يلعب بالنار إذا ما تخلى عن الجبهة الوطنية والقومية التقدمية واختلف مع الكرد حيث سيعود العراق إلى فوضى عارمة وإلى اقتتال الشعب الواحد. وبدأت تتمزق اللحمة الوطنية وتهراً نسيجها للأسف الشديد، وابتعد العراق عن واجبه القومي وانصرف كلياً إلى القتال في الشمال. ضحك الرفيق عبدالله وقال: يا رفيق أحمد، لم يكن عندي إلا نصيحة واحدة أرجو قبولها "إن ما تقرره القيادة يكون ملزماً لكل رفاق البعث، وما عليك إلا أن تتقبل قرار قيادة الحزب، فهم أدري بشعاب مكة وإلا ستقع عليك عقوبة قاسية. أرجو أن تتفادى الإيذاء وغضب القيادة". واستمر الجدل بيني وبينه وانتقل الحديث لأمر أخرى تنظيمية دون استجابة لرأيي.

استلم الرفيق مرتضى الحديثي أمانة سر المكتب السياسي بدلاً من الرفيق عبدالله سلوم، واستمرت الاجتماعات خاوية هزيلة لا يحضرها إلا رفيقان من الحزب الشيوعي. بدأت أتغيب عن الاجتماعات بشكل منتظم مفضلاً إنجاز واجبي في وزارة الداخلية وكانت الأعمال كثيرة وخطيرة ومهمة، كما تفرغت لواجبي الحزبي كأمين سر مكتب قوى الأمن الداخلي بالإضافة لواجبي في المكتب العسكري أيضاً حيث كنت عضواً فيه وكان رئيس الجمهورية البكر على رئاسة المكتب وعضوية العقيد الركن محمد علي سعيد والعقيد علي هادي وتوت والنقيب المظلي فارس والرفيق الأول صالح مهدي عماش.

صدر قرار حزبي وقعه أمين سر القطر الرفيق أحمد حسن البكر يلزم أعضاء المكتب السياسي بالاجتماع أسبوعياً بالقوى السياسية، وسوف يفصل من المكتب كل من يتغيب أكثر من اجتماعين. وجدت في هذا القرار مخرجاً للهرب من المكتب السياسي، وفعلاً تغيبت عن اجتماعات المكتب أكثر من ثلاث اجتماعات. اتصل بي الرفيق مرتضى قائلاً: لم يكن أمامي إلا إخبار القيادة بتغيبك تنفيذاً لقرار الحزب، وهذه أمانة حزبية وأرجو أن لا يغضبك ذلك. قلت له: رفيقي، إن الأعمال المناطة بي

كثيرة، وليس لدي وقت أصرفه في اجتماعات لا تسمن ولا تغني من جوع فأرجو إعفائي من مهام المكتب. وفعلاً انقطعت علاقتي بالمكتب السياسي دون أن تتخذ القيادة العليا أمراً بفصلي، وكفى الله المناضلين شر النضال.

تدهورت علاقة حزب البعث بالحزب الوطني الكردستاني تماماً عندما وصلت الأمور إلى الاقتتال. كان صالح مهدي عمّاش وزير الداخلية ونائب رئيس الوزراء يقود القوات المسلحة للهجوم على مواقع الكرد في الشمال، وفعلاً بدأت المعارك ودخل العراق مستنقع الصراع، ووظفت إمكانات العراق بشراً ومالاً طعاماً لحرب لا طائلة منها. تقاطر بعضاً من القادة العسكريين من ذوي الرتب العالية على وزارة الداخلية لاستلام الأوامر (أوامر الحرب) من صالح مهدي عمّاش، وتعرفت على بعضهم من خلال زيارتهم لي وانتظاراً لمقابلة وزير الداخلية. تغير ربان سفينة الحزب وتغير شراعها وأخذت أمواج الصراع السياسي العراقي تضرب بعنف الوحدة الوطنية، وبدأت العداوات تعبت بمصير العراق.

حاول ملا مصطفى البارزاني تفادي الاصطدام بوسائل شتى، منها برقيته الموجهة إلى المؤتمر العالمي الثاني لنصرة الشعوب العربية، وكانت رسالة تأييد صريحة، جاء فيها: «كم كان يسعدني لو كانت الظروف تتيح لي التشرف بحضوره في مؤتمركم المقرر، لذا فقد أرسلت رسالتي هذه مع الأخ صالح اليوسفي لرفعها لمقامكم نعرب فيها عن تأكيد إخلاص الشعب الكردي ووقوفه دائماً وأبداً بجانب شقيقه الأكبر الشعب العربي في كل سرائه وضرائه من أجل نصرته قضيته العادلة في التحرير وإزالة العدوان الإسرائيلي والتصدي لكل التحديات الإمبريالية».

لم يكتف ملا مصطفى البارزاني بهذه المواقف بل تحين الفرص العديدة ليعرب عن موافقه المؤيدة لحزب البعث، ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح ولم يقو على وقف عجلة الحرب، كما لم يستطع درأ خطره. وقد بادر في بداية الحركة عام ١٩٦٨ وأرسل وفداً من المكتب السياسي للتفاوض مع الحكومة والحزب. غادر الوفد دون إحراز أي تقدم في مفاوضاته. دأب الشيخ ملا مصطفى البارزاني على فتح قنوات أخرى غير القناة الرسمية، فقد اختار مبعوثاً شخصياً له هو المهندس دارا توفيق، واتصل بي عن طريق الوسيط الأخ طاهر شاه باز الحيدري لتأكيد شرعية الاتصال متعهداً بأن

هذا الرجل مبعوث شخصي للملا. وفعلاً بدأت زيارته لي تتكرر للاستفسار عن أمور معينة تتعلق بعلاقة حزب البعث بالقوى السياسية وبحركة الضباط، وكذلك استفسار عن المواقف السياسية وطنياً وقومياً أملاً بتنسيق مواقف حزبه مع مسيرة حزب البعث قبل حركة ١٩٦٨، واستمرت العلاقات بعيد استلام حزب البعث السلطة في العراق. كان حديثي مع الرجل الفاضل داراً توفيق حديثاً صادقاً واعياً، وطلبت منه أن ينقل رأيي دون زيادة وبلا نقصان وعليه أن يعلق عليه ما يشاء وله إبداء الرأي. وفعلاً كان أهلاً للوساطة وكان مبعوثاً أميناً لنقل الرأي بين طرفي المعادلة.

لم يكن للمبعوث داراً أي تأثير أو تدخل بعلاقة الحزبين البعثي والكردي، وقد صرح لي بذلك بعد الاجتماع الأول به وأكد لي بأن لا دخل له في العلاقات الرسمية النضالية بين الحزبين وكانت مهمته تنحصر بالعلاقة الشخصية بين الملا مصطفى وبينني فقط. وفعلاً كنت أميناً على الإجابة بصراحة وأمانة على أي تساؤل حسب فهمي للأمور سواء كان هذا التساؤل يخص الوضع العراقي أو الإقليمي أو الدولي على قدر فهمي للأمور. كانت إجاباتي تلقى رضاً وقبولاً وتفهماً عند الشيخ ملا مصطفى، وعلى ما يبدو تتماشى مع ما لديه من معلومات استخباراتية، وقد نقل لي الأخ داراً توفيق هذه المعلومة بصراحته المعهودة.

بدأت طبول الحرب تدق في كل زاوية وفي كل مقام حزبياً ووظيفياً وفي صفوف قادة الجيش ووحداته، وقد أضفى ميشيل عفلق أمين سر القيادة القومية شرعية الاقتتال بتصريحاته المعادية للشعب الكردي واتهام قيادته بالعمالة والعداء للأمة العربية. وقد صبّ بتحريضاته المعادية زيت الحقد على نيران الصراع بين أبناء الشعب الواحد المتطلع إلى البناء والوحدة والحرية. وهكذا ضاعت الفرصة لمواكبة شمس الحضارة العالمية ولمواجهة أعداء الأمة العربية بدلاً من صراع القوى السياسية أبناء الشعب الواحد. وبهذا استبدل الصراع الأساسي بصراع جانبي كما دأبت عليه الحكومات العراقية السابقة رغم خطورة هذه الأحداث ورغم انفراط عقد الجبهة الوطنية ورغم تمزق اللحمة الأخوية بين العرب والكرد. أقول لازال حبل الود يربطني برفاقي وإخواني الكردي حيث استمرت علاقات الصداقة مورقة ليومنا هذا أملاً بتحقيق الأمل الأسمى للشعب العراقي في الوحدة الوطنية بتلاحم القوميتين

العربية والكردية لبناء مستقبل مشرق للعراق العظيم.

كان نقاشي مع رفاقي في المكتب السياسي عند بحث القضية الكردية ينطلق من ثوابت وحقائق لا يمكن التصدي لها أو نكرانها. قلت أن الكرد في كردستان العراق هم عراقيون، هذا لا جدال فيه يقطنون شمال العراق في محافظات محددة ويتكلمون لغة خاصة بهم ولهم تاريخ هم صنعوه وهم مسؤولون عنه ويختلفون عن العرب من حيث العرق. العرب قوم ساميون والكرد آريون، يجمع القوميتين الدين الإسلامي والمجاورة والتلاحم التاريخي والتآخي عبر العصور وكلاهما ساهما في صنع حضارة وأمجاد العراق. من هذه الحقائق انطلقت لإقناع رفاقي ممن يحمل آراء متطرفة مناوئة للأخوة العربية الكردية. كنت أعتبر الآراء المناهضة للكرد انحرافاً عن الخط النضالي للعراق وتدميراً لهوضه الحضاري وهدراً لثرواته العظيمة ودعوة للتخلف والدمار وخدمة لأعداء العراق وأعداء الأمة العربية.

الكرد عراقيون، لهم كامل الحقوق للمشاركة بثروات العراق وبأرضه وسمائه وبناء تاريخه كما للعرب العراقيين حقاً في كردستان أرضاً وماءً وثروة وتلاحماً لبناء عراق حضاري بكل ما في الكلمة من معنى.

بعضاً من رفاقي يعتبرونني منحازاً للكرد، وأن حماسي ودفاعي يؤكدان هذا التحيز. مثل هذه الآراء أراء بعض الرفاق كانت ضعيفة الحجة وفيها كثير من قصر النظر وتحمل بذرة القصد والجهل وتدفع لدمار العراق. إن تمسكي بهذه الآراء والدفاع عنها ينبع بالأساس من مصلحة العراق ومصلحة الأمة العربية، وأن خندق النضال يسع العرب والكرد للدفاع عن مصالحهما ويفتح الباب أمام عراق ديمقراطي حضاري يليق بالإنسانية وما تصبو إليه. هذه الحقائق ترسخت في ذهني وقلبي وأخذت تؤرقني كلما أصابها الوهن والأذى وتكبر عندي بواعث التحدي فكان العمل السياسي في حزب البعث العربي الاشتراكي فرصتي الوحيدة لتحقيق ما أمنت به، ولكن الواقع السياسي كان مناهضاً لما أؤمن به لذا واجهت تحدياً كبيراً وخطيراً أثناء عملي الحزبي، وأكاد أقول أنني لم أجد عضيداً ولا مناصراً ضمن المكتب السياسي لتسويق هذه الآراء ومناصرتها.

الفصل الرابع كنت سفيراً في الأردن

صدر أمر تعييني سفيراً للعراق في الأردن، بعد أن أفضل الرهط المعادي تنسيبي الأول إلى برلين كسفير في ألمانيا الديمقراطية، وأفضل الرهط نفسه تنسيبي إلى طهران سفيراً للعراق في إيران. استلمت الأمر الجديد ولم أكن مستراً بهذا التعيين. كانت الأحداث الدامية بين الأردنيين والفلسطينيين لها وقع مؤثر على نفسي وعلى نفس كل عربي. أحسست أن وراء هذا التنسيب أصابع الشر وأعداء الأمم. حزمت أمري وتوكلت على الله واعتبرت التعيين خيراً وفيه خدمة للعراق وللأمة العربية وما عليّ إلا أن أكون عند حسن ظن الجميع (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم). وفعلاً كان خيراً.

أعددت نفسي للوظيفة الجديدة واطّلت على سجل الهاشميين في الوثائق البريطانية، ومن مذكرات عبدالله فليبي ومذكرات "لورنس الأعمدة السبعة" ومن مذكرات مس بيل. كانت الدعاية المناوئة للهاشميين سواء بالعراق أو بالأردن تغرق الشارع العربي بما يسيء للعائلة الهاشمية الحاكمة في بغداد وعمان. كانت الحركة القومية الصاعدة على أشدها من الغليان حتى أصبحت تياراً جارفاً قوياً لم تصمد أمامها الحكومات العربية المحافظة في الشرق الأوسط، فسقط نظام الحكم في العراق أولاً وأماً بسقوط الأنظمة الأخرى وخاصة الأردن.

أشعل عبدالناصر بخطاباته الحماسية نار الثورة في نفوس كل العرب، وتأثر بهذه الخطابات دول الشرق الأوسط ودول الخليج العربي بصورة مباشرة. إن علاقة الهاشميين بالإنكليز كانت من أقوى الحجج الدافعة للرئيس عبدالناصر لمهاجمة وشم العائلة الحاكمة في الأردن. كان عداً عبدالناصر للإنكليز واضحاً منذ أن تولى الثورة في يونيو عام ١٩٥٢.

ظل العداء مستحكماً بين الطرفين حتى تفجر يوم الهجوم الثلاثي عام ١٩٥٦ من قبل إنكلترا وفرنسا وإسرائيل على قناة السويس. كان عداء القوى الوطنية المصرية للإنكليز مستمراً بسبب احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ ، ظلت القوات البريطانية جائمة على أرض الكنانة حتى قيام الثورة. وكان المطلب الأول لرجال الثورة جلاء القوات البريطانية عن الأراضي المصرية.

سبق ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ثورات مصرية عديدة منها ثورة أحمد عرابي باشا عام ١٨٨١ بمعاونة مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم من المفكرين السياسيين والوجوه الاجتماعية السياسية البارزة، تلتها ثورة سعد زغلول وإسماعيل صدقي. ظلت أرض مصر تتدفق بالحماس والثورة لتحرير أرضها حتى قبض الله لها ثورة عبدالناصر ورفاقه وانسحب آخر جندي بريطاني عن مصر بعد جهد مرير من النضال الشاق الدامي.

توجهت الثورة المصرية إلى القضايا القومية العربية، ووضع عبدالناصر ثقل مصر في خدمة هذا الاتجاه. كانت أوضاع المنطقة العربية عاملاً مساعداً ومهماً لاندفاع عبدالناصر نحو الأمة العربية، فالتخلف والمرض والجهل والاستعمار والقضية الفلسطينية، كل هذا وذاك صعّد من وتأثر النضال ضد المستعمرين وألهم حماس الجماهير.

شجع موقف عبدالناصر القيادة الفلسطينية على مناهضة الحكومة الأردنية، فأشعل القتال بين الطرفين وياتت عمان تغلي في أتون هذا الصراع، وكانت الأوضاع في الأردن تضع أي مسؤول أو سفير في مواقع الإحراج والقلق.

قبل أن أستلم منصبي الجديد في عمان، وبعد اطلاعي على كثير من الحقائق والوثائق، وجدت في مراسلات الشريف حسين بن علي مع السير مكماهون في تموز عام ١٩١٥ علاقة إستراتيجية بين الطرفين. وجد الشريف حسين بن علي فرصة ثمينة لتحرير العرب من قبضة الأتراك، كما كان للحلفاء هدفاً مهماً للانتصار على الأتراك في الحرب العالمية الأولى. قاد الشريف حسين الثورة العربية ضد تركيا أملاً بدولة عربية حدودها منطقتي مرسن وأطنة شمالاً وصولاً إلى خليج البصرة شرقاً ويحدها المحيط الهندي جنوباً والبحر الأحمر والبحر الأبيض يكونا الحد الغربي لهذه الدولة

العربية الجديدة. تأملت وبصرت كثيراً في طموحات الشريف حسين وفي عظمة هذه المملكة، والوقوف إلى جانبه، وتمنيت لو تحققت أحلام الشريف حسين، وجاء نضاله معضداً لهذه الآمال لكانت أمة العرب من أقوى دول العالم وأكثرها تطوراً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، ولتحررت فلسطين من الانتداب البريطاني في خاتمة المطاف. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان وللأسف الشديد.

خبيت معاهدة سايكس-بيكو آمال الشريف حسين، وهشمت أحلام العرب جميعاً، حيث قسمت الوطن العربي خلافاً لما اتفق عليه الشريف حسين مع السير مكماهون. خان الحلفاء عهودهم، وتكروا لطلبات الشريف حسين دون خجل وبلا حياء. عقدت معاهدة سايكس-بيكو عام ١٩١٦ في ١٧ مايس سرأ. وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني، وبلاد الشام تحت الانتداب الفرنسي. كرس معاهدة سان ريمو ومعاهدة سيفر ومؤتمر فرساي تجزئة الوطن العربي رغم الجهود المصنية المبذولة من قبل الشرفاء كمفاوضات الملك فيصل الأول مع الحلفاء، ولكن لم تجد نفعاً. كان فيصل الأول رحمه الله مفاوضاً ذكياً ألعياً باعتراف الأجانب، وقد كسب ودهم وحصل على ثقتهم.

دحض عوني عبدالهادي ما قيل عن أن الملك فيصل الأول وقع اتفاقية تعاون مع اليهود كتبها لورنس بخط يده، وأكد هذا المؤرخ بأن لا صحة لوجود مثل هذه الاتفاقية، ولم يجد مؤشرات ولا دلائل تؤكد تلك الإشاعات، كما لم يرد في الوثائق البريطانية ذلك.

ومن الحقائق التاريخية الموثقة ما جاء بمذكرات عبدالله فليبي من أن رئيس الدولة الإسرائيلية الأول حاييم وايزمان أشار في كتابه (الخطأ والصواب) بأنه قابل ونستون تشرشل وفاتحه بتأسيس دولة يهودية وطلب معاونته على تحقيق ذلك. وافق تشرشل من حيث المبدأ على هذا الطرح ويفكر في الوقت الحاضر لمساعدته وعليه مفاخرة روزفلت. كما طلب تشرشل من وايزمان العمل على توثيق العلاقة مع الأطراف العربية لتحقيق هذه الرغبة. وأكد تشرشل مساعدته بعد أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها.

موقف الشريف حسين من الخلافة الإسلامية في اسطنبول:

عندما سيطر يهود الدونما على القوى الفاعلة في تركيا، عملوا على خلع السلطان عبدالحميد الثاني وتنصيب أخيه محمد رشاد لخلافة المسلمين، كان ذلك في يوم ١٣ نيسان عام ١٩٠٩. عملت جمعية الاتحاد والترقي على تتركيب العرب وفسح المجال أمام الهجرة اليهودية إلى فلسطين والقضاء على مظاهر الديانة الإسلامية. وتأسست أول حكومة علمانية، وبدأت عملية التتركيب، وتحقق شعار (الدين لله والوطن للجميع). هذه المتغيرات حفزت الشريف حسين بن علي فاتخذ موقفاً مشرفاً أنقذ فيه أمة العرب وحمى الدين الإسلامي من التشويه والتنكيل. لم لا، وهو شريف مكة وحامل مفاتيح الكعبة وواحد من أحفاد هاشم بن عبدمناف بن قصي. أخذته الغيرة والحمية، فوجد حليفاً مهيباً للتعاون معه، فكانت مراسلاته مع السير مكماهون صريحة ومعبرة بصراحة عن طموحاته وأهدافه، لذلك اندفع ضد الوضع المشين في تركيا.

هاجم السعوديون معاقل الشريف حسين بن علي في الحجاز يوم كانت الحركة الوهابية نشطة وبمعاونة الإنكليز، ضيقوا الخناق على الشريف حسين حتى أجبروه على التنازل لابنه الأكبر الشريف علي. نفى الإنكليز الشريف حسين إلى قبرص مع عائلته على ظهر باخرة إنكليزية خلافاً لما اتفق عليه، حيث أراد أن يكون منفاه في العراق ضيفاً على ابنه فيصل الأول. كذبوا عليه وأنزلوه هو وعائلته في قبرص. طلب الشريف حسين من الحاكم البريطاني في قبرص قرضاً بخمسمائة باون لتمشية أمور حياته اليومية. قدم رحمه الله خنجره ضماناً لتسديد المبلغ أملاً وصول مساعدة ابنه فيصل الأول ملك العراق له. دفع الحاكم العسكري البريطاني الخنجر بقلمه وقال للحسن: (هذا لا قيمة له عندي). حزن الحسين واعتبر معاملة الحاكم البريطاني إهانة له لأن خنجر الحسين يمثل الشرف الذي آل إليه من أجداده وهو عنوان كرامته وسلطاته الدينية والدنيوية.

لم يكن مصير الشريف حسين أفضل حالاً من أبنائه، فقد أجبر الملك علي على التنازل ونفي إلى العراق عند أخيه الملك فيصل الأول. تمت السيادة للسعوديين على

كل تراب الجزيرة العربية، وبهذا حقق تشرشل كل ما كان يهدف إليه.

توفى الله الشريف حسين بن علي في منفاه في قبرص، ومات الملك فيصل الأول في سويسرا، وقتل ابنه الملك غازي غدرًا، وأخيراً انتهى حكم الهاشميين في العراق بفاجعة قصر الرحاب، وقضى عبدالستار العبوسي الضابط المتهور برشاشته على الملك فيصل الثاني وكل العائلة رجالاً ونساءً وأطفالاً. دفع أشرف مكة أحفاد الرسول محمد (ص) أغلى وأعز ثمن في سبيل الأمة العربية. حلت لعنة الهاشميين على الشعب العراقي منذ أن اختفى آخر هاشمي عن العراق وإلى يومنا هذا.

هنا أود أن أسأل: ماذا قدم العرب للهاشميين مقابل كل هذه التضحيات؟

من الحقائق التي مرت بي عندما قرأت أعمدة الحكمة لمؤلفها لورنس إذ قال: "سافرت إلى جدة لتوقيع اتفاقية بين الشريف الحسين بن علي وبريطانيا مقابل عشرين مليون باون إسترليني، وتتعهد بريطانيا بدعم وتعزيز نفوذه. رفض الشريف حسن التوقيع على الاتفاقية بسبب وجود نص يلزم الحسين بالموافقة على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وهو هدف مهم وأساس في الإستراتيجية البريطانية لعزل الشرق العربي عن غربه خوفاً من قيام دولة عربية متحدة قد تهدد المصالح البريطانية والغربية يوماً ما. إن نظرة الشعب العربي لهذه المعاهدة كانت بنظرهم خطيئة كبرى إذا ما وافق الشريف حسين بن علي على نص يلزم العرب على قبول وطن قومي لليهود في فلسطين، لذلك رفض الحسين المعاهدة.

استمرت نظرة العرب على أساس الرفض المطلق لتقسيم فلسطين لقدسسية الأراضي الفلسطينية واحتراماً لأولى القبليتين وثاني الحرمين (المسجد الأقصى). ألزم الشارع العربي القادة السياسيين بهذا الموقف المبدئي، وكانت القضية الفلسطينية محوراً للقضية العربية وهدفاً مركزياً في التعامل الدولي.

ظلت الحكومات العربية ملتزمة بموقفها المبدئي من الصراع العربي-الإسرائيلي رغم قرار الأمم المتحدة القاضي بقيام دولتين في فلسطين (دولة عربية ودولة يهودية). لكن الصراع العربي-الإسرائيلي ظل مستمراً إلى يومنا هذا بسبب تعنت إسرائيل ورفضها قيام دولة عربية فلسطينية ضاربة بعرض الحائط الشرعية الدولية وقرار الأمم المتحدة وبالأخص قراري ٢٤٢ و٣٣٨، ولا زالت نيران الحرب مشتعلة بين

الطرفين مادام التعنت اليهودي قائماً ومعتماً على النفوذ الكبير لليهود في العالم وعلى اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية.

كان للدعم الأمريكي المتواصل لإسرائيل وزناً كبيراً وخطيراً في معادلة القوى، فرجحت كفة إسرائيل منذ قيامها وحتى يومنا هذا بسبب فقدان التوازن بين طرفي الصراع. وهكذا استمر الغرور والتعالي والتعنت صفات لازمة لإسرائيل.

أخيراً تجاوز الإنكليز شريف مكة الحسين بن علي لموقفه المتشدد والمناهض لرغبة الحلفاء ومخططاتهم السرية فوجدوا ضالتهم في المراسلات المتبادلة بين عبدالعزيز آل سعود ونائب الملك في الهند مستر هاردنك، وبدأوا يعملون حثيثاً لتحقيق حلمهم لتقسيم الوطن العربي واستحالة إقامة دولة عربية موحدة قد تناهض مصالحهم يوماً ما.

ظل النضال العربي متواصلاً يقدم أعلى التضحيات أملاً بتحقيق الوحدة العربية. وبقي حلم العرب في الوحدة هدفاً أساسياً وإن كان صعب المنال، لكن إرادة الشعب العربي بقيت ثابتة تتصاعد يوماً بعد يوم حتى يهيب الله ظرفاً مناسباً فيتحقق أمل العرب في وحدتهم وعزتهم.

انخرط الشباب العربي في صفوف جميع الأحزاب الوطنية التي ترفع شعار الوحدة العربية. كنت واحداً ممن اندفع بحماس للتحزب من أجل تحقيق حلم جميع العرب.

دأب عبدالعزيز آل سعود على مواصلة النضال من أجل تحقيق حلمه الكبير لتأسيس المملكة العربية السعودية على كامل تراب الجزيرة العربية. استمرت المراسلات بينه وبين نائب الملك البريطاني في الهند المستر هاردنك. أثمرت هذه المراسلات، فتعزز موقفه السياسي بعد أن كسب ثقة الحكومة البريطانية كما أشارت على ذلك المراسلات بين الطرفين. كان لرفض الشريف حسين بن علي كسباً لموقف عبدالعزيز، فعزز موقفه مع بريطانيا. سافر كوكس إلى (العجير) -المصيف المفضل لعبدالعزیز في الأحساء- وهناك عقد معاهدة بينهما، وبهذه المعاهدة عبّد الطريق لتتويجه ملكاً على كامل تراب الجزيرة العربية، وبدأت خطوات إنشاء المملكة السعودية حثيثاً لصيرورتها. وفعلاً تم ما أراداه الطرفان.

مذكرات مس بيل:

كانت دهشتي واستغرابي شديداً كلما واصلت قراءة مذكرات هذه الأنسة. دافعت مس بيل بحرارة عن حقوق العرب وأخذت تطالب الحكومة البريطانية بتنفيذ التزاماتها إزاء العهود المعطاة للعرب. خابت كل الجهود المضنية لمس بيل المبذولة مع الحكومة البريطانية، وبهذه المواقف اصطدمت مع السفير البريطاني في بغداد بسبب مواقفها الجادة. استحکم الخلاف مع السفارة البريطانية، فقد تشبثت بنقل السفير. رغم كل هذه المواقف الموالية لحقوق العرب، لكنها عجزت عن تحقيق أي هدف من أهداف الهاشميين.

لقد أدرك أعداء الهاشميين عقلية السواد الأعظم من العرب آنذاك، حيث كان الجهل والمرض والفقر مخيماً على العرب أيام الحكم العثماني، فقد أتقنوا اللعبة، وسهل عليهم تشويه سمعتهم بوسائل شتى. كلما طالب الهاشميون بحقوق العرب زاد العداء لهم سراً وعلناً، وظل الشارع العربي مناهضاً للشرقاء لكونهم حلفاء بريطانيا، فهذا التحالف أضعف موقف الشرقاء الهاشميين.

ألح الأمير عبدالله بن الحسين على مطالبة بريطانيا بنصيبه من تراب الأمة العربية. طالب بفلسطين عندما كانت تحت الانتداب البريطاني. اصطدم طلبه هذا بمقاومة عنيدة بسبب نوايا بريطانيا، حيث كانت تهدف إلى تحقيق وطن قومي لليهود. وبعد إلحاح عنيد ومتواصل، نصب الأمير عبدالله أميراً على شرقي الأردن، وتطورت الأحداث حتى توج ملكاً على كامل تراب المملكة الأردنية الهاشمية.

كان نصيب الملك فيصل الأول عرش العراق، ونصيب الأمير عبدالله إمارة الأردن، وهذا كل ما حققه الهاشميون، وراحت طموحاتهم وأحلامهم أدراج الرياح، وظل الوطن العربي مجزأً إلى يوم كتابة هذه المذكرات عام ٢٠٠٣.

هذه المطالعات غيرت كثيراً من معلوماتي، وبدأت أفكر بشكل جديد على ضوء الحقائق والوقائع التاريخية، ولم أعد أتقبل شتم الهاشميين دون تروي وبلا تحليل. بهذه العقلية الجديدة استلمت منصبى الجديد سفيراً للعراق في الأردن. سبقتني أخبار سيئة ومعلومات كثيرة مشينة إلى الأردن صورتنى متأمراً على عرش الأردن،

وجئت لأنفذ المخطط الجديد لقلب نظام الحكم وفق مشروع روجرز القاضي بإنهاء حكم الهاشميين وإقامة دولة فلسطينية.

لم أكن متحمساً ولا مندفعاً لتنفيذ هذا المخطط، بل على العكس تماماً، معارضاً للمشروع الأمريكي لأنه يهدف إلى إلغاء فلسطين من الخارطة العربية باستحواذ إسرائيل تدريجياً على الضفة الغربية وتشكيل دولة بديلة في الأردن.

كانت الصفقة دسمة بالنسبة لبعض القادة في منظمة التحرير الفلسطينية نظم غزة والأردن إلى الدولة الجديدة، وأما الضفة الغربية فستكون موضع مساومة ونقاش ومفاوضات لا يعرف نتائجها أحد.

حقق فيصل الأول رحمه الله استقلال العراق عندما عقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٩٣٠، ودخل العراق عصبة الأمم كأول دولة عربية مستقلة في المنظمة الدولية يوم كانت الدول العربية الأخرى كمصر وسوريا ولبنان والدول العربية في المغرب ترزخ تحت الانتداب وأخرى تحت الاستعمار.

بعد هذا التاريخ المحزن من الصراع والتضحيات الجسام كان مرده تنكر الحلفاء للشريف الحسين بن علي. أجد ألسنة السوء تتناول على عترة الرسول أحفاد النبي محمد (ص). وما مجزرة الرحاب التي أودت بالأسرة الهاشمية رجالاً ونساءً وأطفالاً إلا امتداداً لمجزرة الطف التي أودت بأحفاد الرسول الحسين وأهله عليهم أفضل الصلاة والسلام. وقد كان هذا هو مصير الأئمة المعصومين والشرفاء الهاشميين أحفاد هاشم بن عبدمناف بن قصي.

أدخلت السياسة لعبة الصراع العربي-العربي، فأجبر الهاشميون على الوقوف بوجه أي تأمر يطالهم من العرب وغير العرب. لجؤوا مضطرين أو مختارين إلى حلفاء لحماية عروشهم وتحقيق أحلامهم بعدما خسروا كامل التراب في الجزيرة العربية.

استلمت السفارة، ولم أجد موظفاً واحداً له إلمام أو معرفة بأوضاع الأردن، فقد نقل الجميع -رغم قلتهم- واستبدلوا بعناصر مخبرانية إلا واحداً فقد كان لا حول له ولا معرفة إلا مصالحه الشخصية كأني عراقي متواضع. أخذت البرقية التي أرسلتها إلى الحكومة العراقية والتي أشرت فيها على قبول المرحوم عبدالناصر لمشروع

روجرز عندما كان في موسكو بعد أن أُلح القادة السوفييت على قبوله للمشروع لحسم الصراع في المنطقة العربية. وافق الرئيس على رغبة السوفييت. لم يعاضدني أحد من موظفي السفارة الثلاثة مطلقاً، بل كانوا عبثاً على السفارة. كان أحدهم يعيثُ بسمعة السفارة، وعلمت بعدئذ أنه من منتسبي المخابرات وهو إبراهيم النجار. أما الآخرون فكاننا موظفين تقليديين لا حول لهما ولا قوة. إن المعلومة التي أوردتها في برقيتي كان مصدرها السيد زيد الرفاعي رئيس الديوان الملكي مؤكداً صحة المعلومة، وقال أن المخابرات الفرنسية أبلغتنا عن طريق سفارتهم في عمان بهذه المعلومة. وصلت أخبار موافقة الرئيس المرحوم عبدالناصر إلى الحكومة الأردنية عندما كان في موسكو وقبل أن تطأ قدماه أرض القاهرة. كانت معلومة مهمة جداً ومصيرية.

مقابلاتي مع الملك حسين:

استدعاني الملك حسين بن طلال لمكتبه وشرح لي موقف حكومته وشعبه من حرب ١٩٦٧. قال لي: ذهبت إلى القاهرة قبيل الحرب المشؤومة ورجوت السيد عبدالناصر أن يستمع لوصفي التل. قال لي الملك: اصطحبت السيد وصفي التل بناءً على إلحاحه شخصياً كي يشرح للرئيس عبدالناصر النية المبيتة لإسرائيل. بدأ السيد وصفي التل بالحديث قائلاً للرئيس عبدالناصر: سيادة الرئيس، إن إسرائيل تخطط لابتلاع الضفة الغربية، وبالتالي تعمل على تهويدها. هذه المعلومات أكيدة ولا ريب فيها، وما علينا إلا أن نفوت الفرصة على إسرائيل. وأردف قائلاً لي: إن الرئيس عبدالناصر لم يقبل هذا الطرح، وبدت عليه علامات الغضب. تناول الحديث الملك حسين وقال: أردت إنقاذ الموقف لإزالة الحرج وقلت للرئيس عبدالناصر: أنا مستعد أن أوقع اتفاقية دفاع مشترك ثنائية، ونحن على استعداد لتسليم الجيش الأردني لقيادة مصرية. وفعلاً وقعنا الاتفاق، وعدنا إلى عمان، وسلمت الجيش العربي الأردني لقيادة مصرية قاده الفريق عبدالمنعم رياض، وهو من خيرة القادة العسكريين. وخاب رجاء وصفي التل، ودفع حياته ثمناً لطروحاته هذه، فقد قتل في القاهرة رمياً بالرصاص عند خروجه من الفندق الذي نزل فيه.

أرسل الملك حسين في طلبي، وكان الاجتماع في قصر رغدان هذه المرة. أطلعني على بعض الأحداث في عمان والأعمال التي قام بها الفدائيون، وعلى ما يبدو، أن مثل هذه المعلومات ترفع يومياً لجلالته ليطلع على أحوال شعبه وبلاده.

من هذه الأحداث المهمة التي أفضت مضاجع الأردنيين - كما سردها لي جلالة الملك - اعتداء بعض المحسوبين على العمل الفدائي على زوجة أحد القواد العسكريين (لا يحضرني اسمه لمرور ما يقارب أربعين عاماً على الحدث). ذهبت زوجة هذا الضابط إلى المعسكر مولولة باكياً وقصت على زوجها ما بها من مصيبة. ثار هذا القائد وجنوده وأصروا على اجتياح عمان. كانت العاصمة عمان تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية تماماً، إذ انسحب الجيش الأردني خارج عمان، وبقي على مشارفها منتظراً ساعة الصفر. وأردف الملك قائلاً: هرعت أنا وأخي الأمير حسن وأوقفنا الرتل المتقدم إلى عمان. وبعد توصلات كثيرة وامتداد الأمير الحسن على الأرض قائلاً للقائد: والله لن تمروا إلا على جسدي. أتت توصلات الملك وأخيه بالتمر، وعادت الوحدة إلى قواعدها منتظرين ساعة الاصطدام في ظرف مناسب آخر.

والحادثة الثانية قيام ممن كان يحسب على العمل الفدائي بالاعتداء على وزير الزراعة - وهو شركسي -، كان رجلاً وقوراً وكبيراً في السن. أوثق هذا نفر المتشع بملابس العمل الفدائي يد الوزير وزوجته بعد أن أخذوا منه مفاتيح سيارته. أثار هذا الاعتداء حفيظة السلطة الأردنية التي لا حول لها ولا قوة سوى الرضوخ للأمر الواقع.

والحادثة الثالثة أثار اهتمام الملك حسين والعائلة المالكة جميعاً وهو قصف قصر الملكة الأم بصاروخ، فأحدثوا أضراراً بسيطة بحديقة القصر. اعتبر هذا الاعتداء أمراً خطيراً بالنسبة للملك لأن الاعتداء امتد إلى العائلة المالكة وعلى الأخص الملكة الأم التي كانت تتمتع بجاه عريض.

امتألت سجلات السلطة الأردنية بأحداث يومية، أطلعني الملك على أهمها - كما ذكرت -، نقلت للأخ أبو عمار رئيس منظمة التحرير بما حدثني به الملك وسألته فيما إذا كان بالإمكان وقف مثل هذه الأعمال التي تتنافى مع شرف وأهداف الثورة. رد عليّ بشيء من اليأس وقال: تعدد المنظمات الفدائية ضيع فرصة السيطرة على

الأفراد وعقد عليّ محاسبتهم، لأن المحاسبة تعني اصطدام المنظمات بعضها ببعض وتذر الفتن قرونها بين القيادات، وهذا يعني تفتيت العمل الفدائي. وسكت الأخ أبو عمار ولم يدر ماذا يفعل. خرجت منه بائساً يائساً أجر أذبال الخيبة وأنا أحمل صورة الصراع الدامي المستمر وصورة الفشل المحيق بمستقبل القضية الفلسطينية. كل يوم أسمع لعلعة الرصاص ليلاً بكثافة وغزارة وكأن الدنيا انقلبت في عمان. وعند الصباح لم أجد أي أثر أو سبب لهذا الرمي الكثيف، كما لم أجد له ما يبرره، كما لم يعلن عن وقوع ضحايا.

اجتماعات في القصر الجمهوري:

بعد كل تقرير أكتبه للحكومة العراقية -عندما كنت سفيراً في الأردن- استلم برقية من بغداد للحضور فوراً. يبدأ الاجتماع في غرفة المرحوم الرئيس أحمد حسن البكر لمناقشة التقرير الذي أرسلته لما فيه من معلومات وشواهد خطيرة تتعلق بمستقبل الأمة العربية، وكلها تؤكد على مناهضتي لمشروع روجرز. كان الرئيس البكر يتصدر الجلسة وعلى يمينه المرحوم حردان التكريتي يجاوره صالح مهدي عماش يجلسان على أريكة مقابلة للأريكة التي يجلس عليها صدام حسين وأنا بجانبه. وبعد أن أسرد للحاضرين موجز التقرير يسأل من لديه استفسار لتوضيح بعض النقاط. للحقيقة والتاريخ كنت أتمسك بالرضا الكامل عند السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر، وألمس انشراحاً مرتسماً على وجه الفريق حردان التكريتي، وأستقرأ عدم الرضا على وجه صالح مهدي عماش لدرجة الغضب. وبعد مناقشة أهم تقرير رفعتة للحكومة العراقية أشير لي السيد أحمد حسن البكر بعد مغادرته الاجتماع سرا إلى الطابق الأول من القصر الجمهوري، وكانت غرفة للرئيس معدة لنومه. وقد لفت نظري استعماله للمصعد بدلاً من السلم المجاور له تماماً. وعلى ما يبدو، أراد الرئيس أن لا يعلم أحداً من المجتمعين بهذا اللقاء الثنائي. قال لي الرئيس: (والله يا أبو ليث لم أقرأ تقريراً أخلص وأدق من هذا الذي كتبتة). فأجبتة: والله يا سيدي كتبتة بقلبي وليس بقلمي. وأردف قائلاً: أتعلم لماذا أرسلت بطلبك، لأنني أريد أن أسمع المجتمعين برأيك مباشرة لعلهم يقتنعون بما تقول.

انصرفت وحمدت الله على ما حققته من رضا واستحسان رؤسائي وأن أغضب بعضهم.

لقاء مع مرتضى الحديثي في الأردن:

استلمت برقية لإستقبال السيد مرتضى الحديثي، واتجهت إلى الحدود العراقية. وبعد استقباله ركبت سيارته متجهين إلى عمان، كان يحمل رسالة إلى الملك الحسين بن طلال. قال لي مرتضى: "أبو ليث، حظك عدل، وإلا كان حبل المشنقة في رقبتك". ضحكت وقلت: والله كل هذا الجهد والعمل المنفرد حصيلته الإعدام. قال: كنت جالساً مع السيد رئيس الجمهورية نستمع لخطاب الرئيس عبدالناصر بمناسبة ذكرى ثورة يوليو. وبعد هنيهة، سحب الرئيس البكر برقية من تحت مصباح المنضدة وكتب العبارة التالية: والله صدق السفير. أدركت السبب، كان صالح مهدي عمّاش غير راضٍ عن موقف المتشدد، فاستغل برقيتي على أنها كاذبة وبدفع من الأردنيين لإخراج موقف العراق.

توقع صحيح:

راقبت بدقة أحداث الأردن، وأخذت أطل هذه الأحداث وأترقب نتائجها لتأكيد صحة التحليل أو خطأه. توقعت اعتداء الفدائيين الفلسطينيين على موكب الملك حسين، وبعد أسبوع على هذا التوقع حدث ما كنت أراه، كان هذا الاعتداء بمثابة عود ثقاب لإشعال نار الفتنة المستعرة بين الطرفين. سبق هذا الحدث اعتداء آخر على موكب خال الملك الشريف ناصر، ولكن الجيش لم يتحرك دفاعاً عن الشريف ناصر. هذا ما جعلني أتوقع الاعتداء على من يحترمه الجيش ويرعى مصالحه ويمده بعطفه وسلاحه وتطوير كفاعته ورمزه الأعلى. هذه الشرارة أشعلت نيران أيلول الأسود كما أطلق عليه في حينه بين الأردنيين والفلسطينيين. وقد كتبت لحكومتي بهذا التوقع والاستنتاج قبل حدوثه، وصدق قولي والحمد لله.

المشروع الأمريكي:

كان الأردن خلال عام ١٩٧٠ مسرحاً لأحداث سياسية هامة تركت بصماتها على

الواقع الأردني والفلسطيني. طرحت عدة مشاريع تسوية، كان أهمها مشروع روجرز. احتوى هذا المشروع على أحد عشر بنداً تتضمن انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وضم قطاع غزة إليها وإبقاء القدس موحدة على أن تكون الضفة الغربية منزوعة السلاح مع تواجد قوات دولية على أراضيها. وتضمن المشروع أيضاً انسحاب القوات العربية من الأردن وعودة لاجئي عام ١٩٤٨ إلى ديارهم على أن لا يزيد مجموعهم على مئة ألف لاجئ وتعويض بقية اللاجئين الذين لا يرغبون بالعودة إلى فلسطين. وتضمن المشروع أيضاً إلزام الأردن على إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل والاعتراف بحدود أمنة يضمن أمن واستقرار الدولة العبرية، يتم ذلك عن طريق التفاوض بين الدولتين، وأبدت أمريكا استعدادها لتقديم معونة مادية عاجلة للأردن لمساعدته على التغلب على ما يحدث لها من مضاعفات قد تحصل أثناء عملية التسوية. تبنى المشروع الأمريكي قيام كيان فلسطيني خاص معترفاً به ويترك للشعب الخيار لتحديد نوع العلاقة التي ستربطه بكل من إسرائيل والأردن مستقبلاً. والحقيقة كان المشروع يهدف إلى إنهاء العرش الهاشمي.

من خلال اتصالاتي بالحكومة الأردنية تبين أن لا مانع لديهم من قبول المشروع ماعدا قضية القدس، عرض وزير خارجية الأردن المشروع على الحكومة المصرية لمعرفة وجهة نظرها حياله. وعقد الملك حسين عدة اجتماعات مع قادة الجيش شارحاً لهم تفاصيل ما ورد بالمشروع، ووجه الملك أيضاً دعوة لأعضاء مجلسي النواب والأعيان وزعماء الضفة الغربية لبيان رأيهم بالعرض الأمريكي (مشروع روجرز). وعلى مستوى الشارع الفلسطيني وفلسطيني الأردن كان الرفض هو المطلب الوحيد الذي نادوا به وأعلنوا تمسكهم بالكفاح المسلح ضد إسرائيل. كما أجمعت جميع المنظمات الفدائية عدم قبولها للمشروع ورفضه رفضاً باتاً. أدى هذا الرفض إلى تصاعد نشاط العمل الفدائي داخل الأردن.

النشاط الدولي:

على إثر الإعلان عن مشروع روجرز قام الرئيس التركي جودت صوناي بزيارة الأردن، واطلع على وجهة نظر الحكومة الأردنية لعرضه على الحكومة الأمريكية. تحفظ الأردن بشأن القدس. استوعب الرئيس التركي الموقف الأردني والقاضي

بالحاق القدس بالأردن وتشكيل مجلس أعلى مشترك من العرب واليهود والمسيحيين لإدارة القدس الموحدة.

قام وزير خارجية أسبانيا بزيارات متعددة إلى مصر عارضاً على الحكومة المصرية ما اتفق عليه مع وليم روجرز من مقترحات لحل القضية الفلسطينية. بعثت هذه الزيارات على كثير من التساؤلات عند الحكومة الأردنية وبصورة خاصة اهتمام الملك حسين بذلك، وارتبطت هذه الزيارة بزيارة وزير خارجية اسبانيا السابق عام ١٩٥١ السيد أرتاخو يوم كان يحمل اقتراحاً يدعو الدول العربية إلى حلف عربي ضد الشيوعية، لكنه فشل في حينه لقناعة قيادات بعض الدول العربية بأن الخطر على الأمة العربية يأتي من الدول الاستعمارية والصهيونية وليس من الدول الشيوعية.

لأسبانيا علاقة خاصة مع أمريكا والعرب، ولذلك خول لها أن تلعب دوراً لعقد صفقة ناجحة، ومع هذا، أحيطت زيارة برافو بالسرية التامة لأهمية الموضوع وحساسيته. إن ما يجري وراء الكواليس بين القاهرة وأسبانيا أكبر بكثير مما يبدو لأي عين مراقب، ولعل ما يبدو منها اليوم لا يزيد عن ذلك الجزء الطافي من جبل الجليد الغاطس في خضم المشاكل الدولية المعقدة.

زرت رئيس وزراء الأردن السيد عبد المنعم الرفاعي وفاتحته بوجود معلومات عن زيارة الدكتور فيشر للأردن، وسألته عن النتائج التي طلع بها السيد فيشر. فتح السيد عبد المنعم الرفاعي الصندوق الموضوع في مكتبه وأخرج منه ملفاً وقال: هذا ما كتبه قادة المنظمات الفدائية للدكتور فيشر مبعوث وزير خارجية أمريكا هنري كيسنجر، وأردف قائلاً: لقد طلب الدكتور فيشر من رؤساء المنظمات الفلسطينية رأيهم في إنهاء الصراع الإسرائيلي الفلسطيني كل حسب اجتهاده دون أن يبدي المبعوث أي رأي أو تدخل بما يرتأونه. وفعلاً قدم سبعة من رؤساء المنظمات الفلسطينية آراءهم في الصورة التي يرتأونها لإنهاء الصراع في المنطقة. أخيراً، كتب الدكتور فيشر كتاباً شرح فيه مهمة بعثته في المنطقة العربية، وإن خلاصة ما جاء بمؤلفه عدم إمكانية قيام دولتين في الأراضي الفلسطينية من حيث جغرافية المنطقة والكثافة السكانية وضيق الموارد الاقتصادية.

توالت زيارات المسؤولين الأجانب على الأردن سعياً لإيجاد صيغة حل يرضي

الأطراف المتصارعة كي تساعد على إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي. وأهم من زار المنطقة الدكتور "بست" والسيد "مورفي" وهما أمريكيان. اصطدم بست بإصرار إسرائيل على الاحتفاظ بشرم الشيخ، وهذا ما يغضب مصر والسعودية. وأردف قائلاً من خلال تصريحاته أن حلاً وسطاً يرضي الأطراف الثلاثة يكون بإيجاد قوات دولية ترعى مصالح الجميع، وهذا أهم مدخل لحل القضية الفلسطينية تنتهي بقيام دولة فلسطينية تجمع شتات المشردين الفلسطينيين، وأن نصف العالم مهياً للإعتراف بالدولة الفلسطينية إذا ما ظهرت للوجود.

احتج الأردن على ضم الضفة الغربية للدولة الفلسطينية المقترح قيامها لأنها جزء من الأراضي الأردنية. رد بست بأن هذه أراضٍ فلسطينية وليست أردنية ولا يمكن إقامة دولة فلسطينية بدون الضفة الغربية. وأكد بأن أمريكا ستدعم الأردن مادياً وعسكرياً وتقوم بتعويضه اقتصادياً. هذه العروض أقنعت الملك حسين بقبول الحل المقترحة.

عند مقابلتي للسيد رئيس الوزراء عبدالمنعم الرفاعي قال أنه يفضل الاحتفاظ بنصف عرض بدلاً من أن لا يقدم أي عرض، وهذا يحمي وجه الأردن. يبدو أن أمريكا مهتمة جداً بإيجاد صيغة حل لقضية الشرق الأوسط سلمياً. حمل السيد السقف الوزير السعودي وجهة النظر الأمريكية للملك حسين لأخذ رأيه بإمكانية تطبيق الحل على أرض الواقع والنتائج المحتمل وقوعها إذا ما أخذ الحل مكانه على الخارطة العربية.

على إثر زيارة الساسة الأجانب للأردن زرت المطران نعمة السمعان الذي له علاقة وثيقة بالفاتيكان، فقد أشار بشكل واضح وصريح بأن البابا مهتم بقضية القدس ويحاول إعادة المقدسات لأصحابها الشرعيين. وقال إن السوق الأوروبية المشتركة اتفقت على وضع خطة لحل عادل وستضع جهودها لإحلال السلام في الشرق الأوسط. أخذت إيطاليا على عاتقها السعي لحل مشكلة القدس لقربها من البابا، وأعطى دور لفرنسا يتمثل ببذل الجهود لفتح قناة السويس بخبرتها وعلاقتها القديمة بالموضوع، وأخذت ألمانيا الغربية باب التسليح والقوات الأمنية الدولية. وتكفلت بلجيكا بحل قضية اللاجئين وكل ما يتعلق بشؤونهم.

مشروع الدولة الفلسطينية:

خلال شهر كانون الأول عام ١٩٧٠ ظهرت فكرة إنشاء دولة فلسطينية والعمل على إيجاد كيان فلسطيني يرضي العرب وتقبله إسرائيل. قام بعض زعماء الضفة الغربية بإجراء اتصالات واسعة بهذا الشأن وكذلك زعماء بعض المنظمات الفلسطينية، وكان لمنظمة فتح الدور الأكبر في هذا المجال. قام أبو عمار بزيارة كل من القاهرة وتونس والسعودية والكويت لاستطلاع آرائهم حول الموضوع وتقييم ردود الفعل العربي الرسمي والجماهيري.

أكد لي اللواء علي أبو نوار اهتمام الشخصيات الفلسطينية بإخراج فكرة الدولة الفلسطينية إلى الواقع، وأشار أن هذه العملية ستكون على حساب الأردن، وهذا ما يغضب السلطة ويسبب للعلاقات الأردنية الفلسطينية. بدأ النشاط يدب في الضفة الشرقية والغربية معاً. كما أشار رئيس الديوان الملكي هاني الخصاصونة إلى هذه الفكرة، وقال إن الدولة الفلسطينية ستنشأ برغبة الدول العربية لحل مشكلة الشرق الأوسط، وإن بعض المنظمات الفدائية تعمل بهذا الاتجاه. كما أكد السيد إبراهيم بكر الناطق الرسمي باسم اللجنة المركزية لحركة المقاومة على صحة قيام نشاطات واتصالات المبعوث الأمريكي فيشر أستاذ القانون الدولي في جامعة هارفارد الأمريكية ومبعوث المستشار كيسنجر، وقد خول باستطلاع آراء السياسيين العرب حول إيجاد صيغة قانونية للكيان الفلسطيني، كما اتصل فيشر باللجنة المركزية حسب ما قاله السيد إبراهيم بكر.

اتصل بي رئيس وزراء الأردن السيد عبدالمنعم الرفاعي بعد الساعة العاشرة ليلاً. ذهبت لمنزله حسب طلبه، قدم لي ضيفه السيد حكمت المصري أحد وجوه الضفة الغربية ورئيس مجلس النواب الأردني عندما كانت الضفة الغربية جزء من الأردن، وبعد انفصالها عُين رئيساً لبلدية نابلس. جرى حديث عام. أذفت الساعة، وجاء موعد مغادرتي، طلب مني السيد حكمت المصري إيصاله إلى فندق الأردن بسيارتي، وفعلاً أوصلته. تحدث السيد حكمت المصري معي بجدية قائلاً: علينا العرب أن نعمل على إيجاد صيغة حل سلمي مع إسرائيل، وبهذه الطريقة لا نحتاج إلى الاتحاد السوفيتي

ولا إلى الدول الغربية لأن النفوذيين اليهودي والعربي سيكونان قوة فاعلة في العالم، أضف إلى إمكانية المنطقة إستراتيجياً واقتصادياً وبشرياً. ضحكت قائلاً: هذا أمر خطير ولم يسبق لي سماعه. قال: يا سعادة السفير، إن اليهود يهود العالم ولهم نفوذ هائل في الشرق والغرب، وهم على استعداد للقيام بهذه المهمة، وأكد لي بأنه قادر على الاتصال بموشي دايان متى ما يشاء وقادر على الاتصال بالرئيس عبدالناصر أيضاً في كل وقت وهما على استعداد لإستقبالي، وقد طرحت عليهما فكرة التسوية السلمية وإقامة دولة فلسطينية. وأردف قائلاً: إن موسى دايان يرحب بفكرة المصالحة، وكذلك وزير الشرطة ممثل كولدا مائير في الضفة الغربية، وأنا مخول - كما يدعي حكمت المصري- بأن أجري مباحثات مع المسؤولين العرب لتحقيق السلام بالمنطقة.

استغربت لهذا العرض مع سفير عربي عراقي، وقلت له: تعرف يا أخ حكمت أنا سفير، والأمانة تقتضي أن اكتب لحكومتني بما أسمع من شخص مسؤول ومعروف عربياً. رد علي وقال: نحن أرسلنا بطلبك حتى أصرح لك بما أفكر فيه، وبأحبذا أن تكتب لحكومتك بما سمعته مني. ثم أفاض قائلاً: لقد اتصل الوزيران موسى دايان ووزير الشرطة بكل من الدكتور قدري طوقان والحاج محمد علي الجعبري وأنور نسيب وحمدي كنعان لنفس الغرض. وقال حكمت المصري: إن موسى دايان أسره بأن ليس في نيّة إسرائيل بعدوان على الدول العربية في الظروف الحاضرة، وإن إسرائيل عازمة على إقامة صلح دائم ومشرف للطرفين مع التأكيد على حقوق الشعب الفلسطيني.

زار الأردن السيد هاترسلي النائب العمالي في مجلس العموم البريطاني على رأس وفد ضمن جولة لعدد من الأقطار العربية للتعرف على وجهات النظر إزاء تشكيل الدولة الفلسطينية. إن هذا الوفد البريطاني ثاني وفد برلماني إنكليزي يزور الأردن والمنطقة العربية خلال شهر كانون الثاني عام ١٩٧٨.

وعند مقابلتي للسيد وصفي التل رئيس وزراء الأردن، تحدث عن وجود نشاط كبير وواسع في أوروبا لإنشاء دولة فلسطينية من قبل بعض القادة الفلسطينيين من الضفة الغربية وبعضاً من قادة العمل الفدائي الفلسطيني. واعترف بنشاط الفياض الدكتور

المهندس زاعماً أن الأخير حاول مقابلة جلالة الملك حسين لنفس الغرض.
اقترح توفيق طوقان على ياسر عرفات بالسفر إلى سويسرا للاجتماع ببعض اليهود المنتفذين للاطلاع على وجهة نظرهم في التسوية السلمية.
قام الدكتور وليد القمحاوي وبعضاً من وجوه الضفة الغربية والاتصال بقيادة المنظمات الفدائية وبعضاً من أعضاء اللجنة المركزية لإيصال رسالة موشي دايان الشفهية حول رغبة إسرائيل في إرضاء الفلسطينيين واستعدادها لإجراء مفاوضات بين الجانبين مباشرة، وأن لا جدوى للتفاوض مع الدول العربية في الوقت الحاضر. كما أشار موشي دايان إلى أطماع الدول الكبرى في المنطقة، وأن التسوية كفيلة لوقف هذه الأطماع، وأن العرب هم الضحية، فلا جدوى من الصراع العربي-الإسرائيلي.

توسعت دائرة الموافقة على إنشاء دولة فلسطينية بين الفلسطينيين وخاصة في الضفة الغربية، وأصبح هذا الموضوع من مواضيع الساعة. قدم الحزب الشيوعي الأردني إلى اللجنة المركزية السيد حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس السابق للمشاركة في المجلس الوطني الفلسطيني المقرر عقده في القاهرة في أواخر شباط. وكان السيد حمدي كنعان من المتحمسين لفكرة إنشاء دولة فلسطينية. وأخيراً أدخل أحد الأشخاص عن الحزب الشيوعي إلى المجلس الوطني الفلسطيني. وفي عمان، أجرى ممثلو الطبقة المنتفذة في المجتمع الفلسطيني اتصالات مع قادة المنظمة بغية الحصول على تحويل رسمي لإجراء اتصالات رسمية مع القادة الإسرائيليين بهذا الشأن.
سعت فتح إلى تمتين علاقاتها بالقاهرة، حيث سافر السيد ياسر عرفات إليها سراً، وعقد اجتماعاً مطولاً يوم ٢٦/٢/١٩٧١ مع الفريق محمد صادق. وفي الأمم المتحدة، أعلنت مصر عن رغبتها في إنهاء إدارة قطاع غزة ومنحه حكماً ذاتياً تمهيداً لضمه إلى الدولة الفلسطينية، وأن منظمة الصاعقة تؤيد موقف فتح من التسوية، إلا أن الجبهتين الشعبية والديمقراطية تعارضان هذا الاتجاه وتدعوان إلى الاستمرار في النضال ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

يبدو مما تقدم أن اختيار سويسرا بلداً للتفاوض ليس مرده حياد هذه الدولة فحسب، بل أن رئيس المجلس اليهودي ناحوم كولدمن في هذه الدولة مما يسهل

للجانين التفاوض دون ضغوط خارجية ويتحاوران بحرية تامة.

حملني السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر رسالة إلى ملك الأردن وحكومته، وأبلغتهم بمضمونها شفهيًا بالإضافة إلى الرسالة الخطية. كانت الرسالة تؤكد على حماية المقاومة الفلسطينية وعدم تصفية عناصرها، وأن العراق منزعج تماماً للأحداث الجارية في الأردن، وأبلغتهم بالإجراءات المنوي اتخاذها من قبل الحكومة العراقية في حال عدم قبول الأردن وقف العمليات العسكرية ضد الفدائيين. دافع رئيس الوزراء الأردني وصفي التل بحضور وزير خارجيته عبدالله صلاح عن موقف الحكومة الأردنية، واتهم بعضاً من الفدائيين بإنساسهم داخل صفوف المقاومة، وهم مطلوبون لدوائر الأمن الأردنية. سبق زيارتي هذه وفد سوري عسكري برئاسة اللواء الدرديري للتوسط بين الفلسطينيين والأردنيين لوقف نزيف الدم والجلوس على مائدة المفاوضات. وأكد لي السيد وصفي التل بأنه اتصل بالسيد مصطفى طلاس مؤكداً له استعداد الأردن للدخول بمفاوضات مع المنظمات الفدائية. كما أشار إلى عدم رضا حكومته على مقررات المجلس الفلسطيني الجديد وأنه يعارض ما جاء في تلك المقررات.

وفي هذه المقابلة مع السيد وصفي التل اتصل بالمشير حابس المجالي طالباً منه اصطحابي لزيارة منطقة القتال، لكن الأخير اعتذر بسبب التجارب التي يقوم بها الجيش الأردني للأسلحة الجديدة المهداة من الحكومة الأمريكية. كما حصل الأردن على منحة قدرها خمسة عشر مليون دولار. ووافق السيد وصفي على وساطة العراق على أن يتضمن مبدأين أساسيين هما سيادة الدولة الأردنية وحرية العمل الفدائي، وكان ذلك يوم ١٦/٧/١٩٧١.

قابلت صاحب الجلالة الملك حسين وعرض عليّ ذات المواضيع التي طرحها رئيس وزرائه تماماً وأضاف: أن الفلسطينيين عازمون على إسقاط نظام الحكم، ويعتقد أن مصر وليبيا وراء هذا التخطيط. وأشار إلى أحداث المغرب وقال: إن الرئيس القذافي وراء عملية الانقلاب الفاشلة، ويعني بها محاولة انقلاب أبو فقير بالمغرب.

وفي بغداد، استدعى وزير الخارجية العراقي السفير الأردني وأبلغه قلق العراق البالغ مما يجري على الأراضي الأردنية من عمليات عسكرية بقصد تصفية قواعد

الفدائيين في جرش وعجلون. صدرت هذه البيانات في تصريح السيد وزير خارجية العراق، كما أشار إلى اجتماع مجلس قيادة الثورة والقيادة القومية لبحث الموقف الخطير في الأردن، وإن اتصالات سريعة ستجري مع العواصم العربية لاتخاذ موقف عربي موحد. جاء هذا التحرك السريع على ضوء رسالة المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد في القاهرة.

هكذا باتت العواصم العربية في شغل شاغل وحركة دبلوماسية دائبة ليل نهار بحثاً عن صيغة لوقف الصراع المسلح بين الفدائيين الفلسطينيين والأردنيين جيشاً وحكومة.

هذه مجمل الأحداث البارزة على الساحة الأردنية عام ١٩٧٠ وبداية عام ١٩٧١، حتى مؤتمر القمة العربية الذي عقد في القاهرة حيث دعا السيد عبدالناصر رئيس جمهورية مصر العربية لانعقاده، فأعلنت إذاعة القاهرة دعوة ياسر عرفات بالالتجاء إلى السفارة المصرية في عمان لتأمين حضوره إلى المؤتمر طالباً الحكومة الأردنية عدم التعرض للسيد ياسر عرفات حيث احتل الجيش الأردني الضواحي وأعلن راديو عمان إصرار الملك حسين على حضور مؤتمر القمة، وفعلاً نفذ قراره.

هنا أود أن أذكر ما قاله لي جلاله الملك في إحدى مقابلاتي له لأهمية الحدث. كان الملك يتكلم معي بمرارة. قال عند وصولي القاهرة استقبلني الرئيس عبدالناصر في المطار وقال لي: أعتقلك الآن؟ فرد عليه الملك مصطنعاً الضحك: أنا في ضيافة قائد عربي وليس هذا من شيم العرب. ضحك عبدالناصر وقال: كنت أمزح معك. وعلق الملك على ذلك وقال لي: أن كلام عبدالناصر كان جاداً لكنني أخرجته، وجرت الأمور على نحو رسمي وقفزنا من فوق المزاح.

بعد انفضاض مؤتمر القمة في القاهرة وتعاقبت الوفود العربية على عمان لتهدئة الأوضاع وإيجاد صيغة حل. في خضم الصراع الدامي بين الفلسطينيين والحكومة الأردنية، وصل وفد عربي برئاسة النميري رئيس السودان بتكليف من مؤتمر القمة. أدان النميري الحكومة الأردنية في بيان صحفي وهو في عمان على إثر ما توصل إليه من معلومات. احتجت الحكومة الأردنية على هذه التصريحات واعتبرت النميري متحيزاً ولم يكن محايداً. عاد النميري إلى القاهرة ومؤتمر القمة لازال منعقداً، وقدم

تقريراً عن مهمته. توصل مؤتمر القمة إلى تشكيل وفد ثانٍ برئاسة الباهي الأدغم رئيس وزراء تونس. قام الأدغم بمهمة الوساطة وتقريب وجهات النظر دون أن يوجه أي نقد لكل من الطرفين.

تشبث الأردن بموقفه وقد حددها بالنقاط التالية وهي ذات النقاط التي قدمها للوفد السوري برئاسة الفريق الدريديري:

- ١- يخضع كل فرد إلى أحكام النظام وسيادة القانون في الأردن.
- ٢- يجب تواجد قواعد الفدائيين خارج المدن.
- ٣- على كل فدائي ارتداء الملابس المدنية ويحمل هويته الرسمية أو جواز سفره وأن لا يحمل سلاحاً أثناء تركه قاعدته.
- ٤- إيقاف جميع وسائل الإعلام ضد الأردن.
- ٥- لا يسمح إلا بالسلاح الفردي والمتفجرات اللازمة أثناء عبوره خط وقف إطلاق النار.

- ٦- تخزين الأسلحة والذخائر والمتفجرات في المناطق المعينة من قبل مكتب الارتباط.
- ٧- تتخذ الإجراءات القانونية بحق أي عنصر من الفدائيين يعتدي على أي مواطن.
- ٨- تتعامل القوات المسلحة الأردنية مع أشخاص معروفين من ذوي النوايا الحسنة.
- ٩- لا يسمح بدخول أي فرد إلى الأردن إلا بموافقة رسمية.
- ١٠- لا يسمح بالرعي شرق النهر مطلقاً.
- ١١- تتم جميع العمليات الفدائية داخل المنطقة المحتلة.

قبل أحداث أيلول الدامية، استدعاني السيد ياسر عرفات إلى مقره في عمان. ركبت سيارة الفدائيين المسلحين واتجهت السيارة بي إلى المخبأ الذي يتواجد فيه رئيس منظمة التحرير. واجهت السيد عرفات، وطلب مني أن أبرق إلى حكومتي لتنفيذ ما تعهدت به وفق الاتفاقية السرية الموقعة بين الطرفين. إن هذه المعاهدة تلزم العراق بحماية المنظمات الفدائية وعناصرها إذا ما تعرضت لهجوم من الجيش الأردني. كان الجيش العراقي متواجداً في الزرقة وفي المفرق وعلى الحدود الأردنية-الإسرائيلية في أم قيس. كنت يومها معبأً ضد اصطدام الجيش الأردني مع العناصر الفدائية.

استفزني الطلب، وقلت للأخ أبو عمار: إن تدخل الجيش العراقي لضرب الجيش الأردني له نتائج خطيرة وتداعيات دولية، وليس من مصلحة الأمة أن تخوض القوات العربية حرب تصفية بين الأشقاء العرب. رجوته أن يعدل عن طلبه، فرد عليّ بغضب: يا أخي هذه المهمة لا تعنيك، أنت سفير وعليك تنفيذ الطلب. قلت له: يا أخي أنا أتكلم معك بصفتي عربي لا كسفير، وأرى مصلحة الأمة العربية بهذا الطرح. باعته جهودي معه بالفشل، وخرجت مكسوفاً، وبدأت رحلة الخلاف بيني وبين الأخ أبو عمار تزداد شيئاً فشيئاً لأن العراق لم يلتزم بالمعاهدة السرية المعقودة بينه وبين أبو عمار. تحملت مسؤولية هذا الموقف سواء رضيت أم لم أرض وقد وقعت الواقعة. تدخل الأخ الدكتور منيف الرزاز وخفف من تشنج الموقف محاولاً إزالة التوتر بيننا. جرى هذا بحضور كافة قادة المنظمات الفدائية حيث كانوا يتواجدون في مقر الأخ أبو عمار السري. إن وساطة الدكتور منيف الرزاز لم تأت أكلها لحراجه وحساسية الموقف العربي والفلسطيني.

وللإيضاح، أنني سفير معتمد لدى الحكومة الأردنية ولست سفيراً لدى منظمة التحرير، ومع هذا ذهبت بسيارة عسكرية بصحبة أناس مدججين بالسلاح لمقابلة الأخ أبو عمار، وكانت مجازفة مني أن أوافق على مثل هذا الطلب من أناس لا أعرفهم ولم يسبق أن طلب مني مثل هذا الإجراء. فعلاً كانت مغامرة غير محسوبة، ولكن جاءت الأمور سليمة بإستثناء توتر الجو مع الأخ أبو عمار.

الأوضاع في الأردن عام ١٩٧٠ وأحداث أيلول الأسود عام ١٩٧١

كانت الأردن خلال عام ١٩٧٠ مسرحاً لأحداث سياسية هامة خاصة بالنسبة للقضية الفلسطينية. فقد طرحت في الساحة العربية مجموعة من المشاريع التي تتبناها الدول الغربية وخاصة أمريكا والدول السائرة في ركابها لتسوية مشكلة الشرق الأوسط بالطرق التي تضمن مصلحة إسرائيل. فقد قدم مشروع أمريكي في بداية عام ١٩٧٠ إلى وزارة الخارجية الأردنية يتألف من أحد عشر بنداً يتضمن انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية مع ضم قطاع غزة إلى الضفة وربطه بممر وإبقاء القدس موحدة، وتكون الضفة الغربية منزوعة السلاح مع تواجد قوات دولية

فيها. وتضمن المشروع أيضاً انسحاب القوات العربية من الأردن وعودة لاجئي عام ١٩٤٨ إلى ديارهم على أن لا يزيد مجموعهم على مئة ألف لاجئ مع تعويض بقية اللاجئين، وعلى أن يعمل الأردن على إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل وتعترف بالحدود الإسرائيلية الآمنة نهائياً، وأن جميع ما جاء في أعلاه يتم بالتفاوض بين الأردن وإسرائيل وإن أميركا مستعدة لتقديم عون مادي عاجل للأردن لمساعدته للتغلب على المضاعفات التي قد تحصل. كما تضمن المشروع الأمريكي إيجاد كيان فلسطيني خاص بالفلسطينيين يتألف من قطاع غزة والضفة الغربية ويترك لهم الخيار لتحديد نوع العلاقات التي ستربطهم بكل من الأردن وإسرائيل مستقبلاً.

يبدو أن السلطات الأردنية وافقت على هذا المشروع إلا فيما يتعلق بمدينة القدس. فقد أرسل وزير خارجيته إلى القاهرة لعرض المشروع عليها وبيان وجهة نظرها. كما عقد الملك عدة اجتماعات مع كبار العسكريين لشرح المشروع، كما وجه دعوة إلى نواب وأعيان وزعماء الضفة الغربية يطالب فيها منهم الحضور إلى عمان لعرض المشروع عليهم وبيان الرأي فيه، رفض النواب وأعلنوا أن طريق التحرير والكفاح الدامي ضد إسرائيل هو طريقهم الوحيد، هذا وقد تعهد الرئيس التركي جودت صوناي لدى زيارته للأردن بالضغط على أميركا بغية تغيير البند المتعلق بوضع القدس العربية، حيث أشيع بأن أميركا قدمت إلى الأردن تعديلاً حول موضوع مدينة القدس يتضمن إلحاق القدس العربية بالأردن وتشكيل مجلس أعلى مشترك من العرب واليهود للإشراف على إدارة القدس بوحدتها العربية واليهودية. لقد كان الملك ميالاً أكثر من ذي قبل بعد التعديل لقبول المشروع الأمريكي، وأنه اتخذ خطوات منها:

- ١- السعي لإسناد رئاسة الوزراء إلى أحد زعماء الضفة الغربية.
- ٢- أوفد السيد زيد الرفاعي إلى السعودية وحمله صيغة المشروع الأمريكي بعد التعديل لعرضه على الملك فيصل.
- ٣- أجلت سفرة الأمير حسن إلى أنقرة لحين معرفة ما توصل إليه صوناي من جهود مع أميركا.

٤- أرسل الملك وزير داخلية محمد رسول الكيلاني إلى لبنان لعرض المشروع المعدل على الرئيس حلو.

على أثر ما أشيع عن قبول الملك للمشروع الأمريكي في شباط الماضي، فقد أوضحت جميع المنظمات الفدائية عن عدم قبولها ورفضها رفضاً باتاً لهذا المشروع مما أدى إلى تصاعد العمل الفدائي، كما نشطت المقاومة الفلسطينية وازداد النشاط السياسي مما أخذ يشكل خطراً على الحكم فآثار مخاوف الملك من استفحال المقاومة وعدم تمكنه من السيطرة عليها مما حدا بمجلس الوزراء الأردني بتاريخ ٢٠/٢/١٩٧٠ اتخاذ قراراً يحد من نشاط العمل الفدائي ويستهدف عملياً وقف النشاط المسلح، حيث جاء في هذا القرار ما يلي:

١- على كل مواطن أن يحمل هوية شخصية في جميع الأوقات.

٢- يمنع إطلاق النار داخل حدود المدن والقرى.

٣- يمنع منعاً باتاً تأخير أو تعطيل أو منع المسؤولين من تنفيذ واجباتهم المشروعة.

٤- يمنع التجول بالسلاح داخل حدود أمانة العاصمة كما يمنع تخزين المتفجرات والذخائر.

٥- على كل سيارة أو مركبة أن تحمل الرقم الرسمي المخصص لها من دائرة السير.

٦- يمنع منعاً باتاً جميع المظاهرات والتجمهرات والاحتجاجات والندوات غير المشروعة.

٧- تمنع النشرات والصحف والمجلات الصادرة خلافاً للقانون.

٨- تمنع النشاطات الحزبية.

أحدث هذا القرار ردود فعل قوية لدى كافة الأوساط الوطنية، فقد وزعت المنظمات الفدائية بياناً هاجمت فيه بعنف البيان المذكور وأعلنت أن جميع فصائل المقاومة ترى في بيان الحكومة الأردنية خطراً على عناصرها، وأن الحكومة الأردنية بموقفها هذا تريد زج البلاد في معركة دموية يتقاتل فيها أبناء الشعب الواحد. وإن حركة المقاومة ستواصل كفاحها ضد المشروع رافضاً تطويقها وتصفيتها كخطوة على طريق تصفية القضية الفلسطينية، وأنها سوف لن تتنازل بوصة واحدة عن حقوقها التي

ناضلت من أجلها منذ هزيمة حزيران ودعت جميع الدول العربية إلى إعلان موقفها بوضوح عن إجراءات السلطة الأردنية.

واجتمع قادة كافة المنظمات الفدائية وقرروا تشكيل لجنة سياسية من المنظمات وتشكيل قيادة عسكرية موحدة وقيادة للمليشيا والتنظيم الشعبي. لقد توتر الجو في عمان وبقية المناطق، حيث استنفر الجيش وقوى الأمن العام وأخذوا يفتشون جميع السيارات العائدة للفدائيين لمنع دخول السلاح والمسلحين إلى مدينة عمان، كما استنفرت المنظمات الفدائية وأخذت تتجول مفارز من الكفاح المسلح الفلسطيني في سياراتها المسلحة داخل العاصمة عمان وحولها. وأصبح احتمال وقوع صدام شديد بين الطرفين وارداً، وأخذ الفدائيون بوضع المتاريس في الشوارع وسيطروا على مفارق الطرق الداخلية. وعلى إثر هذا التوتر الشديد أصدرت الحكومة الأردنية بياناً أعلنت فيه تجميد قراراتها الأتفة الذكر وانفجرت الأزمة.

وقد شهد الأردن نشاطاً سياسياً واسعاً في نهاية نيسان عام ١٩٧٠، حيث اجتمع الملك بروساء ومسؤولي المنظمات الفدائية، وأشاد الملك بالعمل الفدائي، وكذلك قام الأمير حسن يصحبه وزير الخارجية بزيارة تركيا وإيران، وكانت أسباب هذه الزيارة هو تشجيع تركيا لإيجاد صيغة أفضل للحل السلمي عن طريق الضغط على حليفها أمريكا. كما قام الشريف ناصر بزيارة للقاهرة لطلب مساعدة عسكرية سوفيتية بوساطة العربية المتحدة وكذلك للتعرف على وجهة نظرها بخصوص مقترحات سيسكو.

وفي أواسط شهر مايس قامت الحكومة الأردنية بحملات إعلامية الغرض منها رفع معنويات القوات المسلحة الأردنية، إذ بدأت هذه الحملات بسلسلة من الجولات قام بها الملك لمراكز القوات المسلحة حيث ألقى خطاباً بصفوف القوات المسلحة لرفع المعنويات وبت روح الحماس فيهم وشدهم إليه. إذ قال لهم: "أنكم بالنسبة لي كل شيء، فأنتم شرف الحسين وشرف الوطن وشرف أبناء قواتنا المسلحة وأمتنا العربية وأملها". وتعزى هذه الزيارات التي قام بها الملك في هذه الظروف إلى ما يدور حول وجود خلاف بين السلطة والمقاومة الفلسطينية وأن هدفه من ذلك هو تهديد المنظمات الفدائية مما حدا بالفدائيين إلى استنفار قطعاتهم بكامل أسلحتها في عمان

وخارجها. وقد أخذت بعض المنظمات تتجهج على السلطة علناً، وقد كان شعار (من يحكم الأردن هو الذي فجر الصراع آنذاك بين السلطة والفدائيين).

وكانت عمان تعيش خلال تلك الفترة حالة من التوتر الشديد بين الفدائيين من جهة وقوات الحكومة من جهة ثانية. وقد وقعت عدة حوادث زادت من حدة التوتر. وكانت حادثة الزرقاء يوم ١٩٧٠/٦/٧ الفتيلا لإشعال نار الفتنة، وأدت إلى تطور الوضع إلى الأسوأ، حيث وقعت يوم ٦/٩ اشتباكات عنيفة بين الطرفين في عمان استعملت فيها مختلف الأسلحة وبصورة كثيفة وشديدة وذلك على إثر ضرب القوات الحكومية لإحدى سيارات الفدائيين.

بادرت المنظمات الفدائية بإستنفار قواتها، وكذا فعلت القوات الحكومية، حيث نزلوا إلى الشوارع وبدأت الاشتباكات العنيفة، وباتت عمان وكأنها تعيش في حرب أهلية رهيبية. وفي صبيحة يوم ٦/١٠ تجددت الاشتباكات واشتدت ظهراً، وكانت عمان خلال ذلك اليوم مشلولة الحركة بالرغم من قيام مفارز مشتركة من القوات الحكومية والكفاح المسلح تجوب شوارع عمان وتدعو المواطنين إلى الهدوء والسكينة وضبط النفس. وقد وقع عدد من القتلى في هذه الحوادث بلغ أكثر من خمسين قتيلاً وحوالي مائتي جريحاً.

وعلى إثر هذه الحوادث بادر العراق بإرسال الفريق صالح مهدي عماد إلى عمان على رأس وفد لتهدئة الحالة وتطويق الأزمة. وحال وصول الوفد قام بإتصالات مع المسؤولين الأردنيين وقادة حركة المقاومة لتقريب وجهات النظر بين الطرفين. وأبدى الطرفان تجاوباً تاماً لما عرضه عليهم الفريق صالح، وتم الاتفاق على إنهاء حالة التوتر. وبالرغم من هدوء الوضع إلا أنه بقيت آثار التواجد العسكري الحكومي في البلاد، منها الفرقة الثالثة المدرعة في مشارف عمان، ومفارز من الجيش، وقوة من البادية في مداخل المدينة، وإدخال عناصر من القنصاة إلى عمان، وإثارة الجنود وتحسيسهم بشتى الدعوات، وكذلك قامت السلطة بتحريض العشائر وتسليحها.

من كل هذا، يمكن القول أن الوضع آنذاك كان متوتراً وقابلاً للانفجار بسبب تصاعد التعبنة النفسية في نفوس الطرفين واشتداد النعرة الأردنية والفلسطينية، وكذلك الرسائل التي كان يوجهها الملك إلى قواته المسلحة وإلى أجهزة الدولة الأخرى.

كل ذلك كان يشير إلى أن الصراع المقبل سيكون بين الملك والقوى الأردنية عسكرية ومدنية من جهة، وقوى المقاومة الفلسطينية من جهة أخرى. وعلى إثر ذلك انبثقت لجنة رباعية من مؤتمر القمة الأول في طرابلس الغرب لغرض التوسط وحل الأزمة الناشئة بين الفدائيين والسلطة الأردنية. هذه اللجنة مؤلفة من الجزائر وليبيا والعربية المتحدة والسودان.

تدارست اللجنة الرباعية الأوضاع الراهنة مع ممثلي الحكومة الأردنية واللجنة المركزية الفلسطينية، كما استمعت إلى وفد من أعضاء مجلس الأمة الأردني وممثلي المؤتمر الوطني الأردني وتوصلت إلى أن الجميع متفقون على تظافر القوى العربية كشرط أساسي لإننتصار الأمة العربية في معركة المصير. ونتيجة مباحثات اللجنة مع الأطراف المعنية تم الاتفاق على أن تكون اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية هي المسيطرة والمسؤولة عن جميع التنظيمات الفدائية، وإن ما تلتزم به اللجنة نحو الحكومة يكون ملزماً لجميع المنظمات الفدائية. واتفق كذلك على حرية وحماية العمل الفدائي وتعضيد وتصعيد المقاومة الفلسطينية وسحب التعزيزات العسكرية من حول عمان وحل التنظيمات الخاصة التابعة للحكومة ومنع تواجد الفدائيين بأسلحتهم في الأماكن العامة ومنع التظاهرات العسكرية وإطلاق الرصاص. كما يجب على الفدائيين احترام الأنظمة المرعية وعدم قبول الهاربين من الجيش في صفوف المنظمات الفدائية.

لقد كانت ظاهرة الارتياح العام لدى سائر المواطنين من جراء التوقيع على الاتفاق بين الحكومة الأردنية والمنظمات الفدائية واضحة، كما كانت النتائج الأولية لهذا الاتفاق مرضية ومشجعة للمواطنين الأردنيين، وبالإمكان ملاحظة ذلك من خلال عودة الطمأنينة إلى النفوس وإلى الروح الإيجابية الجديدة التي أخذت تعالج بها الأمور، وغرس الاتفاق الثقة والمحبة بين القوات المسلحة والفدائيين.

رحبت جريدة فتح الناطقة باسم اللجنة المركزية بهذا الاتفاق وأشادت بالروح التي سادت المباحثات، وأوجبت ضرورة إيجاد صيغة للتعاون تسهم في تفويت الفرصة على العناصر المتآمرة لئلا تغرق الأردن في بحر من الدم.

أما باقي المنظمات الفدائية فقد كان رد الفعل لديها هو التحفظ على هذا الاتفاق

بسبب الغموض الذي يشوب بعض النصوص الواردة فيه. حتى فتح عادت وأيدت هذه التحفظات. ومن نتائج هذا الاتفاق ازدياد نشاط الفدائيين ضد العدو، وطلب الدعم الشامل للمقاومة من قبل الدول العربية والعمل على عودة الثقة تدريجياً بين الجيش الأردني والفدائيين.

وفي أواخر شهر تموز ١٩٧٠ شهدت الأردن نشاطاً سياسياً واسعاً وذلك على إثر إعلان مصر قبولها لمشروع روجرز، وقد حدثت في الأردن ردود فعل قوية في الأوساط الرسمية والشعبية وحركة المقاومة. فقد عقدت قوى المقاومة اجتماعات على مستوى عالٍ، كما عقدت مؤتمرات صحفية أوضحت فيها رفضها التام لهذا المشروع. وقد مورس ضغطاً شيعياً وناصرياً واضحاً داخل حركة المقاومة لمنع التحرك الجماهيري ضد المشروع. أما ردود الفعل لدى الأوساط الشعبية الأردنية فقد كانت متأرجحة بين مؤيد ومعارض. وقد كانت الحكومة الأردنية وغالبية الأردنيين تمثل الفريق المؤيد للمشروع. وقد حدثت مضاعفات لتوتر الموقف ثانية بين قوى المقاومة من جهة والسلطة الأردنية من جهة أخرى بعد أن أعلن الملك حسين قبوله للمشروع الأمريكي ببرقيته التي طيرها إلى الرئيس المصري والتي قال فيها أننا نقبل ما تقبلونه ونرفض ما ترفضونه في معركة المصير الواحد والعزة القومية.

وعلى إثر ذلك طافت شوارع عمان صبيحة يوم ٧/٣١ أكبر تظاهرة شعبية صامتة معلنة رفضها القاطع والحاسم للمشروع الأمريكي. وألقيت الخطب في هذه التظاهرة، وكان أبو عمار أحد المتكلمين حيث قال: إننا سنخوض المعركة بكل قوانا ومعنا يد قوية ويد كل الجماهير العربية. وقد أصدرت المنظمات الفدائية في الأردن وغيرها من المنظمات المهنية والتجمعات الوطنية بيانات عديدة تستنكر فيها قبول بعض الدول العربية لمشروع روجرز الاستسلامي وتندد بأدعاء السلام مع إسرائيل والصهيونية.

وقد بات في حكم المؤكد أن خيوط مؤامرة تحاك ضد الشعب العربي والأمة العربية وخاصة بعد أن أعلنت بعض الدول العربية موافقتها على مشروع روجرز -على حد زعم قيادة المقاومة- وقد انعكس ذلك بوضوح على موقف حركة المقاومة التي أخذت تدرك حقيقة الموقف وخطورته وأنها مقبلة على أبواب معركة.

وقد ظهرت بوادر جديدة على المسرح الأردني، إذ أخذت السلطة الأردنية تحشد

قواتها على مشارف عمان وبرزت من جديد الحرب النفسية والإعلامية التي نشطت بها السلطة الأردنية.

اجتمعت اللجنة المركزية في نهاية شهر آب عام ١٩٧٠ اجتماعاً مطولاً قررت فيه رفض قرار مجلس الأمن والمقترحات الأمريكية ورفض وقف إطلاق النار وجميع الإجراءات التنفيذية الجارية لتصفية القضية الفلسطينية سلمياً.

أخذت الحكومة الأردنية بسحب قطعات عسكرية من الأغوار في نهاية آب عام ١٩٧٠ وذلك لتعزيز سلطة الدولة وحماية بعض المنشآت الحيوية. وقد بررت السلطة الأردنية هذه الإجراءات كحماية الأمن والمواطنين وبسط سيطرة القانون والنظام.

عقدت عدة اجتماعات بين كبار المسؤولين قبل زيارة الملك إلى القاهرة يحمل ما عنده من مشاريع إلى الرئيس عبدالناصر، وبحث تواجد الجيش العراقي في الأردن.

قامت (منظمة الأسرة الأردنية) بعقد مؤتمرات عشائرية على غرار المؤتمرات التي سبقت أحداث ٦/٧، إضافة إلى ما قامت به السلطة من دعم بعض المنظمات الفدائية التي أيدت مشروع روجرز.

أما الطريق الثاني وهو طريق الحل البطيء الذي يهدف إلى إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. جاء بعض زعماء الضفة الغربية إلى عمان للقيام ببعض الاتصالات اللازمة واستطلاع رأي بعض المنظمات الفدائية حول الموضوع. وأجروا اجتماعاً على مستوى عالٍ، حيث كانت هذه الاجتماعات تمول من الحكومة الأردنية والسفارة المصرية في عمان، كما أشارت صحيفة فتح إلى ذلك صراحة. وقد كان رد الفعل في الضفة الغربية لما جاء أعلاه يتمثل في إصدار الحزب الشيوعي الفلسطيني بياناً الذي أعلن فيه قبوله لمشروع روجرز، وقيام بعض زعماء الضفة الغربية بالتنسيق مع الحكومة الأردنية بتوزيع الهبات المالية الكبيرة مما خصص من أموال الصمود العربي على أبناء الضفة لكسبهم واستمالتهم إلى قبول الحل الأمريكي. يضاف إلى ذلك، ما قامت به السلطات الإسرائيلية من بث فكرة إقامة الكيان الفلسطيني في الضفة واعتقالها لمعارضيه الحل المقترح وإبعادهم إلى الضفة الشرقية. وعقد في عمان بتاريخ ٢٧ آب ١٩٧٠ المؤتمر الوطني الفلسطيني في جو مشبع بالتفاؤل بسبب الظروف الراهنة التي كانت تمر بها الأمة العربية عامة

وفصائل المقاومة بصورة خاصة. وقد حضر هذا المؤتمر عدد كبير من الوفود التقدمية العربية والصديقة، وحضره أيضاً حشد كبير من ممثلي القوى الوطنية في البلاد. وقد أعلن السيد يحيى حمودة رئيس المجلس الوطني الفلسطيني بكلمة ألقاها، قال: إن قضية فلسطين تمر بأخطر مراحلها بدخول قرار مجلس الأمن لعام ١٩٦٧ دور التنفيذ، وإن على المؤتمر أن يتخذ خطة عمل يلتزم بها الجميع لإسقاط الحل التصفوي الاستسلامي وإفشال محاولة إقامة دولة فلسطينية. وتحدث بعد ذلك رئيس الوفد العراقي السيد عبد الخالق السامرائي حيث أيد نضال الشعب الفلسطيني في الكفاح المسلح، وأعلن رفض حزب البعث العربي الاشتراكي للحل السلمي، ووقوفه الكامل بجانب الثورة الفلسطينية حتى تتحقق أهدافها.

تقدمت الجبهة الشعبية الديمقراطية إلى المجلس الوطني الفلسطيني بمشروع قرار استنكرت فيه مشروع روجرز الإمبريالي وأعلنت أن التسوية الاستسلامية تعني التصفية النهائية للقضية الفلسطينية والاعتراف بإسرائيل وضمان حقها المزعوم في حدود آمنة والمرور في الممرات المائية العربية مقابل الانسحاب من بعض الأراضي العربية المحتلة ولتعويض اللاجئين، إلا أن هذا المشروع لم يحض بموافقة أغلبية المنظمات الفدائية مما أدى إلى عدم البت فيه. وتليت بعد ذلك مقررات المجلس الوطني الفلسطيني المتضمنة رفض قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في تشرين ثاني عام ١٩٦٧ ورفضه القاطع للمؤامرة الأمريكية المسماة بخطة روجرز، ومؤكداً جميع القرارات التي صدرت مؤخراً بهذا الشأن عن اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية. كما أكد المجلس على رفضه تقسيم البلاد إلى دويلة فلسطينية ودويلة أردنية. وطالبت بعض المنظمات توجيه نداء إلى الدول العربية التي وافقت على مشروع روجرز بالعدول عن رأيها والاعتراف بخطئها وشجبها للمشروع. لكن بعض المنظمات وخاصة فتح، رفضت ذلك. وقد كانت مقررات هذا المؤتمر لا تتعدى كونها حبراً على ورق ولا تختلف عن مقررات المؤتمرات السابقة.

بعد انفضاض المؤتمر الوطني الفلسطيني توترت الحالة في عمان وبعض المدن الأردنية، فقد شهد يوم ٨/أيلول اشتباكاً قوياً بين السلطة وبين قوى المقاومة في عمان حيث ادعت الحكومة أن اعتداء وقع على موكب الملك، وقد استمرت الاشتباكات

وبصورة متقطعة طيلة يومي ٢ و٣/٩/١٩٧٠، واشتد إطلاق النار وبصورة كثيفة ليلة ٩/٤ وذلك على إثر مهاجمة القوات الحكومية لمواقع الفدائيين في منطقة رأس العين. وعلى إثر هذه الحوادث وجه الملك حسين مساء يوم ٩/٣ كلمة بمناسبة الأحداث الدامية حيث طلب من حكومته ممارسة سلطاتها الدستورية بأمانة لتتمكن من خدمة الشعب على الوجه الصحيح. أعقب ذلك سلسلة من الاجتماعات الطارئة لمجلس الوزراء بغية السيطرة على الموقف. كما شكل الملك مجلساً يسمى مجلس الملك الخاص لمعاونته وإبداء المشورة والرأي. ويتألف المجلس من عدد من شخصيات الدولة الأردنية، كما أخذت الحكومة الأردنية إجراءات لتهيئة عقد مؤتمراً وطنياً بعمان وذلك لدراسة الموقف العام من جميع الوجوه وإصدار ميثاق وطني ينبثق عن هذا المؤتمر. إلا أن المؤتمر المذكور لم يكتب له النجاح، وأصدرت اللجنة المركزية بياناً طلبت فيه من الحكومة إزالة جميع المظاهر العسكرية داخل المدينة مقابل قيام قيادة الكفاح المسلح بالتقيد بالنظام والمحافظة على سلامة ممتلكات المواطنين. وبالرغم من كل هذه الإجراءات إلا أن التوتر بقي في العاصمة وغيرها من المدن الأردنية وكان ينذر بانفجار الموقف بأية لحظة.

وفي خضم هذه الأحداث والتوتر الذي كان يسود البلد، فقد وجهت الحكومة العراقية مذكرة حول خطورة هذه الأحداث والخوف من نوايا الأردن بتصفية العمل الفدائي. كان لهذه المذكرة صداها لدى الأوساط الشعبية والمنظمات الفدائية، إذ قوبلت بالترحاب والتقدير لموقف الجمهورية العراقية الحازم تجاه السلطة الأردنية.

إن الحكومة الأردنية لم تخفِ عدم ارتياحها لهذه المذكرة، وكان هذا واضحاً في مذكرتها التي أذاعتها من راديو عمان والتي ردت فيها على المذكرة العراقية بالشجب. وقد استدعى الملك سفراء الدول الأربع الكبرى وطلب دعم دولهم سياسياً وعرض عليهم ما يواجهه من ضغوط في الداخل والخارج، وشرح لهم موقف العراق ودعمه للعمل الفدائي المعادي للأردن.

استمر الوضع في الأردن متناً طيلة الأسبوع الثاني من أيلول ١٩٧٠، إذ وقعت عدة حوادث واشتباكات بين الطرفين، وحملت الحكومة الأردنية الفدائيين مسؤولية هذه الحوادث والتي أدت إلى تصاعد الموقف مما حدا بالطرفين إلى إصدار بيان

مشترك أعلننا فيه إيقاف القتال وسحب قواتهما المسلحة من الشوارع. كل ذلك أدى إلى زيادة توتر الموقف إلى درجة الخطر. وفي يوم ١٩٧٠/٩/٩ استنفر الفدائيون عناصرهم خوفاً من حدوث هجوم على مراكزهم في عمان. وطلبوا من الأهالي إخلاء الشوارع من المارة ومن السيارات خلال ساعتين، فأخلت الشوارع فعلاً من كل حياة وبدأ إطلاق النار بصورة كثيفة وشديدة بعد ظهر ذلك اليوم حيث ساد جو من الخوف والقلق حتى أن عمان عاشت ليلة من ليالي الحرب الساخنة. وعلى إثر ما ساد البلد من توتر وقلق أصدرت كل من الحكومة الأردنية وحركة المقاومة بيانات أعلنوا فيها إيقاف القتال. وفعلاً ساد الهدوء مدينة عمان، مع أن الجو بقي متوتراً طيلة اليوم الثاني.

وصلت اللجنة العربية الخماسية وعقدت عدة اجتماعات مع الطرفين، وبعدها أعلن رئيس اللجنة أنه متفائل للوصول إلى تحقيق الوحدة الوطنية في الأردن.

وفي يوم الأحد المصادف ١٣/أيلول قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بإختطاف أربع طائرات تابعة إلى أمريكا وإنكلترا وسويسرا. وكانت هذه العملية تهدف إلى المساومة لإطلاق سراح الفدائيين المسجونين والموقوفين في كل من ألمانيا وسويسرا وإنكلترا وإسرائيل. وقد سارت الأحداث سريعة، إذ أصدرت الولايات المتحدة تهديداً بالتدخل في حالة عدم إطلاق سراح الركاب المحتجزين. وعقب ذلك تحرك الأسطول السادس الأمريكي، كما تحركت الدول المعنية دبلوماسياً، وقامت إسرائيل بإعتقال عدد كبير من العرب كرد فعل على احتجاز ركاب الطائرات. وبنتيجة الجهود التي بذلها العراق ببيان مجلس قيادة الثورة الذي تبرأ فيه من عملية خطف الطائرات، إلا أن الجبهة الشعبية أطلقت سراح راكبي الطائرات عدا خمسين شخصاً بضمنهم الإسرائيليين، وأصدرت اللجنة المركزية الفلسطينية بياناً استنكرت فيه عملية الخطف، وذكرت أن كافة المعلومات تشير إلى أن هناك مؤامرة إمبريالية صهيونية قد تؤدي إلى إنزال قوات أجنبية لتصفية العمل الفدائي وتصفية القوات العسكرية المتواجدة في الأردن وفي الجبهة الشرقية، لذلك قررت تجميد عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من اللجنة المركزية لتجاهلها لقرار اللجنة. وبعد ذلك تم الاتفاق بين اللجنة المركزية والحكومة الأردنية على صيغة اتفاقية ترضي الطرفين

وتعيد الأمور إلى نصابها. وشكلت لجنة متابعة لتنفيذ الاتفاقية، إلا أن الرأي العام فوجئ في اليوم التالي لتوقيع الاتفاقية صباح يوم ٩/١٦ بتشكيل الحكومة العسكرية الجديدة برئاسة محمد داود، وأن باكورة أعمال هذه الحكومة هي الطلب من الميليشيا تسليم أسلحتهم، إلا أن هذا الطلب قوبل بالرفض من قبل اللجنة المركزية. وبدأت حملات إعلامية من قبل المقاومة تهاجم السلطة، وتطالب بسقوط الحكومة الجديدة. وقامت اللجنة المركزية بنشاط سياسي واسع، وطلبت من بعض الدول العربية الضغط سياسياً على الملك لمنع وقوع أي صدام. وبات الوضع خطيراً جداً، وأصبح وقوع الصدام حقيقة ظاهرة، وأن المقاومة أصرت على عدم تسليم أسلحتها حيث أنها علمت بأن تشكيل الحكومة العسكرية الجديدة ما هو إلا تصفية لحركة المقاومة.

وقد أصبح موقف اللجنة المركزية آنذاك يسير باتجاه إعلان العصيان المدني والاستعداد للمجابهة المسلحة التي ستكون مفروضة من اليوم الذي شكلت فيه الحكومة العسكرية. وعلى إثر ذلك انفجر الموقف في صبيحة يوم ٩/١٧ حيث قامت أعداد كبيرة من الجيش الأردني بأسلحتها المختلفة الثقيلة منها والخفيفة بالزحف على عمان وبعض المدن الأردنية الأخرى، فدخلت عمان من أماكن مختلفة وأخذت نيران المدفعية والدبابات تنطلق من جميع الجهات وبصورة كثيفة وشديدة على مراكز تجمع الفدائيين ومقراتهم، ولم يكن أمام المقاومة إلا الرد على النار بالمثل مما أدى إلى تصاعد الموقف واشتداد الاشتباكات، فانقطع الأردن على إثر ذلك عن العالم الخارجي. واستدعت الحكومة الأردنية قواتها المتمركزة خارج المدن للمساهمة في هذه العمليات لإنهاء المقاومة خلال ساعات من ذلك اليوم حسب تقدير السلطة. إلا أنها فوجئت بمقاومة شديدة من رجال المقاومة والميليشيا الذين قاوموا هجوم الجيش الأردني. واستمر القتال على هذا المنوال لمدة اثني عشر يوماً.

إثر الدعوة التي وجهها الرئيس التونسي، فقد اجتمع بعض الملوك والرؤساء العرب في القاهرة، فشكلت لجنة برئاسة اللواء جعفر النميري وجاءت إلى عمان واتصلت بالملك حسين وتعذر عليها الاتصال بالسيد ياسر عرفات فغادرت اللجنة إلى القاهرة وهي تحمل معها صورة سوداء عن الوضع في الأردن، فاجتمع على إثر ذلك الملوك والرؤساء العرب في القاهرة وتقرر تشكيل لجنة للمتابعة برئاسة اللواء النميري

أيضاً، ووصلت إلى عمان ثانية، واجتمعوا بالملك حسين والسيد ياسر عرفات، واطلعوا على الوضع المتأزم والخطير، ومن ثم عادوا بعدها إلى القاهرة وقدموا تقريراً إلى الملوك والرؤساء المجتمعين هناك، ثم عقد النميري مؤتمراً صحفياً شرح فيه الموقف بالتفصيل وحمل فيه على الملك حسين والحكومة الأردنية وحملهم مسؤولية استمرار إراقة الدماء. قام على إثرها الملك بتوجيه رسالة إلى الرئيس جمال عبدالناصر يرد فيها على ما جاء في المؤتمر الصحفي، وقرر السفر إلى القاهرة لشرح وجهة نظره. وسافر فعلاً واجتمع هناك بالملوك والرؤساء العرب. وقد تم عقد اتفاقية لتسوية الخلافات القائمة بين الحكومة وحركة المقاومة وقع عليها جميع المجتمعين بضمنهم السيد ياسر عرفات. ومما جاء في هذه الاتفاقية تشكيل لجنة للمتابعة برئاسة الباهي الأدغم.

بقي الجو في الأردن متوتراً، وكانت تقع حوادث فردية بسبب اعتصام عدد كبير من الفدائيين ورفضهم تسليم أنفسهم وأسلحتهم إلى اللجنة العربية. وأخذت اللجنة المذكورة توالي اجتماعاتها مع الحكومة الأردنية وممثلي اللجنة المركزية بغية تقريب وجهات النظر والسيطرة على الموقف وإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي. ولذا شكلت عدة لجان فرعية وأهمها اللجنة العسكرية، وهدف هذه اللجنة دراسة الخطط لتطبيق البنود المتعلقة بالمسائل العسكرية.

وبالرغم من الجهود المبذولة من قبل اللجنة العربية العليا للمتابعة فلا زالت تقع يومياً حوادث فردية وغير فردية في عمان وغيرها من المدن الأردنية مما أدى إلى وقوع عدد من القتلى والجرحى بسبب هذه الحوادث، وهذا ناتج عن عدم التزام الطرفين بنصوص اتفاقيتي القاهرة وعمان وخاصة السلطة الأردنية إذ يظهر أنها عازمة على الحد من تصرفات العمل الفدائي وبالتالي تصفيته نهائياً. وفي بداية شهر كانون الأول بدأ النشاط السياسي المحموم يلعب دوراً بارزاً لحسم الموقف، وقام المهندس الدكتور محمد الفياض (فلسطيني من أهالي غزة) بطرح مشروع الدولة الفلسطينية، فقام بنشاطات واسعة في باريس قابل خلالها رئيس المجلس اليهودي العالمي ناحوم كولدمن. وسافر إلى الضفة الغربية وقابل بعض الشخصيات الفلسطينية أمثال السادة قدرى طوقان وأنور نسيبة وحمدى كنعان وعزيز شحادة

وحمدي التاجي وحكمت المصري ومحمد علي الجعبري وتباحث معهم حول نفس الموضوع. وقام الدكتور محمد الفياض بزيارة بروكسل مع وفد مرافق يضم ممثلاً عن الفدائيين هو السيد محمد يوسف النجار عضو اللجنة المركزية للمنظمات الفدائية لإجراء مشاورات مع وفد يهودي، ولاحظنا أن بعض قادة القوى الفلسطينية يؤيد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية بعد انضمام قطاع غزة إليها مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة على الحدود على أن يكون للقدس وضعاً خاصاً يتفق عليه في حينه، والبعض الآخر يؤيد تشكيل الدولة الفلسطينية بالشكل آنف الذكر على أن يرتبط بنوع من أنواع الاتحاد مع الأردن.

وقد أشار السيد رئيس وزراء الأردن وصفي التل وأكد على وجود تلك النشاطات لإقامة الدولة الفلسطينية وخاصة في أوروبا، وأن هناك بعض القادة الفلسطينيين في الضفة الغربية وكذلك بعضاً من أعضاء المنظمات الفدائية على اتصال بهذه النشاطات، واعترف بنشاط الدكتور محمد الفياض وقال أنه أراد أن يقابل الملك ليعرض عليه المشروع، وقد علمنا بأن السيد ياسر عرفات وافق على عرض أحد رجال الأعمال الفلسطينيين المدعو توفيق طوقان بالسفر إلى سويسرا للاجتماع ببعض اليهود المتنفذين.

نلاحظ بأن تلك النشاطات والزيارات التي قام بها (بعض) السياسيون العرب في الآونة الأخيرة لعواصم أوروبية وعربية مختلفة تشير كلها إلى وجود مخطط لحل قضية الشرق الأوسط بالطرق السلمية.

من ناحية أخرى، هناك بوادر عداء شديدة وانشقاق عميق بين الأردنيين والفلسطينيين مما أثر كثيراً على حركة المقاومة ورجال العمل الفدائي في الأردن، فأخذت تتكشف بوضوح بوادر هذا العداء في المضايقات التي يتعرض لها الفلسطينيون ليس من السلطة فقط بل ومن المواطنين الأردنيين مما اضطر رجال العمل الفدائي إلى الانسحاب خارج المدن الكبيرة. وفعلاً انسحبوا من كافة المدن الجنوبية وغالبية المراكز المهمة من المدن الشمالية، فأخذت عمان تخلو من رجال المقاومة، وهكذا انسحبت من جرش وأربد والزرقاء، وخلت تماماً من رجال المقاومة، وبدأت السلطات الأردنية والفدائيون جدياً بتجريد الميليشيا التابعة لحركة المقاومة

والمقاومة الشعبية التابعة للسلطة من أسلحتها في المدن وتخزين الأسلحة في مناطق متفرقة عليها مع اللجنة العربية العليا للمتابعة برئاسة الباهي الأدغم التي استمرت بدورها لتسوية الخلافات بين الطرفين بالطرق السلمية وتطوير الحوادث أنياً.

تشددت الحكومة الأردنية بمواقفها بعد أن اكتسح الجيش الأردني قوى المنظمات الفدائية المتواجدة بالمدن والعاصمة عمان، واستلم مقاليد الأمن، وعزز مواقع الحكومة، وانسحبت عناصر الفداء إلى قواعدها، أما قياداتها، فقد غادر البعض منهم الأردن إلى الدول المجاورة.

مرّت أيام عصيبة على السفارة العراقية أبان الاقتتال. حاصر الجيش الأردني مدينة عمان، وفرض منع التجوال، وبقيت محاصراً في دار السفير بلا كهرباء وبلا ماء ولا خط تلفوني، إذ قطعت هذه الخدمات جميعاً عن البيت الذي أسكن فيه. ولست أدري ما إذا كانت بقية البيوت قد حرمت من هذه الخدمات.

اتصل بي السفير الفرنسي وعرض عليّ استعداداه لتقديم معونة غذائية من الملبات التي استلمها من حكومته والتي وصلت على متن الخطوط الجوية الفرنسية. شكرته على حسن صداقته وطيبة قلبه وقلت له لقد استلمت من حكومتي ما يكفيني ويكفي العراقيين العشرة المتواجدين معي في الدار. والحقيقة المرة لم أستلم أي معونة من العراق ولا من الجيش العراقي المرابط في المفرق. كما لم يتكرم عليّ بكوب من الماء قادة الجيش وعلى رأسهم الفريق حردان التكريتي على بعد مرمى حجر من موقعي والحمد لله.

لقد ارتكبت حماقة إذ بعثت برقية إلى الفريق حردان، كانت تحمل بشدة على الموقف السلبي من السفارة. طلبت من الحكومة الأردنية الموافقة على إيصال أربعة من ضباط الجيش العراقي الدارسين في كلية الأركان، حيث سمح للتجوال لمدة ساعتين. سهلت الحكومة الأردنية أمر وصولهم إلى المفرق حيث تتواجد القطعات العراقية.

وقبل أن أختتم ملف الأحداث الأردنية فاتني أن أذكر حادثة مهمة تستحق التسجيل. توافد على عمان مئات من الصحفيين والإعلاميين، إذاعيين ورجال تلفزة، كان من بينهم الصحفي الفرنسي الشهير أرك رولو. اتصلت بالسفير الفرنسي في

عمان ورجوته أن يرتب لي موعداً مع هذا الرجل. اعتذر بادئ الأمر قائلاً أن لا علاقة رسمية تربطه مع هذا الصحفي. رجوته ثانية أن يرتب لي الموعد، وفي ذلك خدمة للعراق وللمنطقة. استجاب السفير لرجائي واتصل بآرك رولو ووافق الأخير على موافقتي. اتصل بي السفير الفرنسي تلفونياً وقال لي: إن الصحفي آرك رولو سيوزورك للسفارة، ولا تكلف نفسك مشقة الذهاب إليه.

زارني آرك رولو في مقر السفارة وبحثت معه تصوره للأحداث وتوقعاته وتداعيات الموقف. قال لي: لقد واجهت الملك حسين وصارحته بما أتوقع. قلت له: أنا ومئات من الإعلاميين والصحفيين جننا نشهد سقوط المملكة الأردنية الهاشمية وقيام دولة فلسطين، وهذه لحظات تاريخية.

استغربت من صراحته، وقلت له: بهذه الصراحة تحدثت مع الملك حسين. قال: نعم، ولم لا، وأن الموضوع يتعلق بحياته وحياة أسرته ونظامه. قلت له: إن الحكومة العراقية تقدم لك دعوة عاجلة لزيارة بغداد، فهل أنت على استعداد لقبول الدعوة؟ رد عليّ قائلاً: لا مانع من ذلك ولك أن تبرق لحكومتك بالموافقة.

أبرقت إلى بغداد بملخص موضوع السيد آرك رولو، وطلبت من حكومتي قبول زيارته. كانت الفكرة من اجتهادي، ولم يسبق أن فاتحت بغداد بذلك.

إن أهمية ما يحمل هذا الرجل من معلومات شجعتني على أن أقدم على هذه الخطوة، وكانت حقاً فكرة ناجحة ومثمرة.

رفض السيد آرك رولو أن أحجز له بطاقة سفر على حساب السفارة، وقد أخرج من جيبه من النقود ما يكفيه لعدة سفرات، وقد شكرني على ما عرضته عليه، وهو يتكلم اللغة العربية بطلاقة.

بعد هذه الأحداث المؤلمة والمؤسفة قررت الحكومة العراقية نقلي إلى يوغسلافيا، وتركت السفارة إلى الشخص الثاني من بعدي. كانت هذه خاتمة المطاف الوظيفي في الأردن. تذكرت وأنا أغادر عمان الحديث الشجي بيني وبين الملك يوم قلت له: يا صاحب الجلالة إن إسرائيل عازمة على تنفيذ مخططها لإنشاء إسرائيل الكبرى، وشاهدت في تلفزيونهم لوحة كبيرة من المرمر في صدر الكنيست لتلك الخارطة

وعليها أسماء عبرية، وكان الملك يصغي إلي. وأكملت الحديث قائلاً له: قرأت وأنا شاب مذكرات هرتزل، وقد توقع إنشاء إسرائيل الكبرى عام ١٩٩٧ أي بعد مرور مئة عام على مؤتمر بازل. وقد تحقق شيئاً من نبوعته، وأخشى أن تتحقق كل نبوعته لا سامح الله في التاريخ المقترح. رد علي بكل هدوء وارتياح قائلاً: نعم، أنا أعلم هذا تماماً، ولكن السؤال هل أن حكومتك تعلم ذلك؟ ففضلت السكوت على الاستمرار بالحديث لأن مرارة الواقع عقدت لساني. خرجت وقلت في نفسي أفوض أمري وأمر الأمة إلى الله.

كانت مقابلاتي مع الملك أكثر من مقابلاتي مع وزير الخارجية وبناءً على طلبه. وكانت كل المقابلات ودية بإستثناء واحدة كان الحديث فيها محرراً لي، وعلى ما يبدو أن سؤالي لم يرض الملك، ولذلك صغته بأسلوب أوضح. ارتاح الملك كثيراً، وأدرك نوايا سؤالي وأبعاده. أشرت إلى حديث أرك رولو معي بعد مقابلته للملك، وقصدت معرفة موقفه وموقف حكومته من الخاتمة التي أشار إليها الصحفي الفرنسي. سكت وفي ذهنه أفكار متضاربة وحادة بحيث كدت أرى الشرر يتطاير من عينيه فكان السكوت خير جواب على سؤال محرر مثل إنهاء الملكية في الأردن وإقامة جمهورية فلسطينية أردنية بدلها. شغلت هذه المقابلة أفكاري، وحزنت يومها لحراجه الموقوف، وكان علي أن أتجنب الإحراج مع الملك.

موقف السفارة العراقية في عمان الرسمي، وقد وافقت الحكومة العراقية على كل ما جاء به

م/ العراق بين رفض التدخل العسكري وقبوله

الأحداث الدامية التي جرت في الأردن تطرح السؤال الكبير التالي.

هل أصاب أم أخطأ العراق حين رفض الاصطدام عسكرياً بالجيش الأردني؟

وهل الأمانة للثورة العربية وأهدافها كانت تقتضي هذا الصدام أم تعارضه؟

أن الإجابة على هذين السؤالين توجب الرد على سؤال آخر مرتبط بها ومكمل السؤال

هو هل الثورة مغامرة أم خطة شاملة محكمة محسوبة لها بدقة؟

من المؤكد أن تغليب عنصر المغامرة في حساب الثورة يقودها إلى الانتحار كما أن

مجرد غلبة هذه الصفة يحول الحركة الثورية إلى حركة فوضوية مدمرة ذلك أن الثورة مع اعتزازها بإستراتيجية أهدافها فهي تهتم كثيراً بالتكتيك أي طريقة الوصول إلى الهدف.

وإذا كان الهدف وإستراتيجية واضحين وثابتين وغير قابلين للتغيير فإن التكتيك على العكس من ذلك كلية فهو متغير حسب تغير الظروف الموضوعية المحيطة به وهو يتقدم ويتراجع حسب طبيعة الظروف المحيطة بالثورة مع الحفاظ على الأمانة في الوصول إلى هدف الثورة وتحقيق إستراتيجيتها.

وهذا لا يعني أبداً أن الثورة "هجوم" دائم ومستمر. بل هي قد تتراجع وتأخذ دوراً دفاعياً. وذلك حين تشعر أن مصير الثورة قد يتعرض إلى خطر الفناء.

إن الجوهر دائماً هو الحفاظ على الثورة وترسيخ جذورها ولف الجماهير حولها بشكل مستمر ومتنام.

لقد أوضح لينين هذه الحقيقة في كتابين (خطوة إلى الأمام... وخطوتان إلى الوراء وما العمل) ولئن كان المقصود بالكتابين هو التنظيم الحزبي، وخلق حزب طليعي قيادي، فإن ارتباط هذا الموقف بالثورة واضح أيضاً فالثورة ليست هي الجماهير الخام بل قيادتها الطليعية التي تدرس الجماهير بالثورة والعمل الثوري من خلال الممارسة اليومية.

والخطوة إلى الوراء التي عناها لينين تعني التثبيت من الخطوات التي قطعتها الثورة، والتأكد من صلابة الأرض التي تقف عليها حتى لا تجد الثورة نفسها على أرض رجراجة أو سبخة تغرق أقدامها فيها وتمنعها عن الحركة وتعرضها إلى التصفية.

ولعل موضوع "تصفية الثورة" هو أكثر المواضيع التصاقاً بالثورة فأعداء الثورة لا يلقون أسلحتهم طواعية ولا يستسلمون بسهولة وإنما يدافعون عن مصالحهم بقوة السلاح، أو بالتسرب إلى الثورة وضربها من الداخل. ومن هنا كانت التصفية الثورية من العمليات المستمرة داخل الثورة سواء في دور الإعداد لها أو في دور السلطة وتنفيذ الأهداف.

وهنا تبرز أهمية الوحدة الداخلية في الثورة، ووحدة القوى في الثورة، وضرورة

تصفيتها من العناصر الانتهازية والضعيفة والمتردة والمغامرة وبقدر ما تكون النوعية ممتازة يكون تحقيق أهداف الثورة أقرب مثلاً. ذلك أن النوعية وحدها هي القادرة على أن ترفع الجماهير إلى مستواها ولا تنحدر إلى مستوى الجماهير، وتقود الجماهير وفق ما أوضحه ستالين في مقال شهير له بعنوان من قيادة الجماهير والنوعية الرديئة تهبط إلى مستوى الجماهير فتفقد مبادرة القيادة بل القدرة على المبادرة وتدفع الجماهير نحو التطرف والمغامرة.

وقد اهتم الحزب الشيوعي البلشفي بالنوعية فقد استطاع أن يحطم إمبراطورية روسيا القيصرية التي يزيد عدد قواتها المسلحة على مليون جندي تحت السلاح، مع أن أعضائه المنظمين لم يكن عددهم يتجاوز مائتي ألف معظمهم من العمال والفلاحين وبعض جنود البحرية.

وما كان بمقدور الحزب الشيوع البلشفي أن ينتصر وأن يحافظ على الثورة وأن يحطم الأعداء في الداخل (الأحزاب اليمينية والحرس الأبيض والكولاك وكبار الأغنياء والنبلاء الخ. والأعداء في الخارج. التدخل العسكري البولندي والفرنسي والبريطاني) أعني تدخل ١٤ دولة لولا ما كان يتمتع به من دقة في التنظيم وقدر عالٍ من الوحدة الداخلية التي حققها لينين بفضل عقلية العلمية الموضوعية.

حدثنا ستالين عن الثورة فيقول "الثورة ليست الاندفاع نحو قلعة العدو لاحتلالها إنها دراسة قلعة العدو ومعرفة المواطن القوية المنيعة فيها والبحث عن أضعف ثغرة في القلعة ثم محاولة العبور من تلك الثغرة".

ويحدثنا في مقال آخر عن الثورة فيقول "ليكن نبراسنا الصخرة الرابضة على شاطئ البحر فهي تقاوم الأمواج في كل لحظة بهدوء وثبات. ولكنها لا تسمح للموج أن يغرقها وللبحر أن يبتلعها. أنها رمز للصمود والنموذج للتحدي".

وقد قدمت لنا الثورة الروسية بعد انتصارها نماذج ومواقف كثيرة تؤكد أن المهم ليس الولاء للهدف المثالي للثورة فحسب بل الأهم الحفاظ على الثورة واستمرارها وترسيخها.

إن القضاء على الثورة يؤدي تلقائياً القضاء على كل مكتسبات الجماهير وعلى كل

منجزات الثورة. ويعني بالتالي تعريض الجماهير إلى ردة رجعية بوليسية تعسفية لا مثيل لها.

القضاء على ثورة ١٧٨٩ الفرنسية بعد هزيمة نابليون سنة ١٨١٥ أدى إلى ردة رجعية رهيبة وإلى قتل المواطنين لمجرد الشبهة والشك. أما استمرار الثورة وبقائها فهو الضمانة الوحيدة دون ردة إرهابية ضد الجماهير والشعب. وكذلك فإن القضاء على الثورة الروسية سنة ١٩٠٥ أعقبه حكم بوليس أسود تعرف له روسيا القيصرية مثيلاً يمكن الإطلاع على ظلمه من خلال دراسة تاريخ الحزب الشيوعي البلشفي ولعل الردة الرجعي في اندونيسيا تعطي مثلاً أوضح في تاريخنا المعاصر القريب.

ومن المؤكد أن ثورة ١٩١٧ كانت ستعرض إلى نفس الردة الرجعية لولا أن قادة تلك الثورة كانوا موضوعيين حريصين عليها لذلك تجنبوا كثيراً من المغامرات التي تعصف بالطليعة وتعاني الأمة ما تعانيه من حكم فاشستي رهيب مدمر.

لذلك نجد الثورة الروسية أبت الانسياق وراء أحلام نرونسكي ورفضت تخطي حدود روسيا لتحرير العمال في بولندا وألمانيا وفرنسا حفاظاً على مصيرها وكان هذا بنظر البولشفيك رفضاً للمغامرة.

(إن هذه الأمثلة لا أريد بها القياس على أحداث اليوم بالنسبة لموقف العراق من القضية الفلسطينية حيث لكل ظروفها الخاصة بل أريد بها التذليل على حرص الثورة على بناء قلعته ومن ثم الانطلاق نحو أهدافها الواحدة تلو الأخرى).

في تلك اللحظة أطلق لينين والحزب الشيوعي شعار "انتصار الثورة في قطر واحد" وترسيخها في ذلك القطر تعني حاجة الثورة لبناء قلعة حصينة وترصين أسسها.

ولو لم تفعل روسيا ذلك لسحقت الثورة تحت أقدام الجحافل المعادية وخاصة القوات الغازية ولكن المكاسب التي حققتها للجماهير خلال تلك الفترة جعلت الجماهير تتعلق بها وتدافع عنها ضد الغزاة والأعداء في الخارج والداخل على حد سواء.

لقد كان الشاغل الأول للحزب الشيوعي هو الحفاظ على الثورة وضمن استمرارها وفي سبيل ذلك كان الحزب يتصرف تصرفات يمكن اعتبارها بنظر

الآخرين ابتعاداً عن الهدف المثالي للثورة وأحياناً خيانة للثورة ولكن الأيام أثبتت أن ذلك التصرف هو الذي أنقذ الثورة وحال دون وقوعها في الشرك الذي كان يعده الخصم لها ولعل من الخير أن نسوق بعض الشواهد عن هذه المواقف وتحكم عليها من خلال التطور التاريخي اللاحق لها:

١- توقيع لينين على معاهدة بريست- لثوفسك والتي بموجبها سلم أراضي روسية واسعة إلى ألمانيا الإمبراطورية، لقد اعتبرت هذه المعاهدة في حينه خيانة وطنية واستسلاماً قذراً للعدو. ولكن لينين كان يفكر في انتصار الثورة وترسيخها "البطل الثوري يستطيع أن يصل إلى سلام ثوري" كما يقول.

وقد جاءت الأحداث التي تلت انتصار الثورة لتؤكد أنه لولا ذلك الموقف لما أمكن لروسيا فيما بعد أن تحرر كل هذه المناطق وتعيدها إلى الوطن الأم. وأن تضيف إليها مناطق أخرى كونت حزاماً واقياً أو أمناً قومياً للوطن السوفيتي. ولو أن لينين انساق وراء الأدغال التروتسكي بالقوة والكرامة يحرر كل ما دعي إليه لاضطرت روسيا إلى مواجهة قوى التحدي المتواجدة في أوروبا آنذاك ولربما أعطت تنازلات أكبر وعرضت مصير الثورة إلى الخطر.

٢- معاهدة مولوتوف-روبنتروب التي اعتبرت في حينها خيانة لألماني الشعب البولندي القومية وتمزيقاً لوحده الجغرافية وتفاهماً مع ألمانيا الهتلرية وأعطت ذريعة لأعداء روسيا ليتحدثوا عن التزاوج الشيوعي- النازي لإبتلاع أوروبا. ولكن تطور الأحداث أثبت أن مهادنة هتلر وعدم استفزازه كان ضرورياً ليكتمل الاتحاد السوفيتي تسليحه وتدريب جيشه الأحمر استعداداً للمعركة التي كان لا مناص من خوضها ضد ألمانيا النازية التوسعية.

٣- المعاهد الروسية- اليابانية سنة ١٩٣٨ تقدم دليلاً أوضح فقد اشتملت تلك المعاهدة التزام روسيا بعدم تزويد الحزب الشيوعي الصيني الذي كان يحارب اليابان بأي سلاح.

وهذا الموقف يعتبر من الناحية العقائدية خيانة للثورة الشيوعية العالمية ومع ذلك فإن هذه المعاهدة وذلك الالتزام بالذات هو الذي أتاح لروسيا أن تجند كل قواتها

- وتحشدتها على الجبهة الغربية لمقاومة أي زحف ألماني.
- ولعل الاتحاد السوفيتي كان سيهزم لو أن قواته حاربت على جبهتين عريضتين هما عدوان أقوى وأحسن منه تسليحاً وتنظيماً (ألمانيا واليابان).
- ٤- الحروب الكورية وحرب فيتنام امتنع الاتحاد السوفيتي عن التدخل العسكري لمساعدة كوريا الديمقراطية وفيتنام الشمالية ضد العدوان الأمريكي حيث كان يوازن بين قوته ونتائج الحرب وبين قوة خصومه لذلك كان غير مستعد للمغامرة في حرب غير متأكد من الفوز بها.
- ٥- حرة أنصار الإسلام ذاتها كانت مناورة سوفيتية ضد مجانين الحرب الأمريكيان سنة ١٩٤٨ للحيلولة دون شن هجوم ذري ضد الاتحاد السوفيتي وتصفيته كما حدث مع اليابان وكان الهدف من تلك الحركة عزل الولايات المتحدة والضغط عليها لتقبل التعايش مع الاتحاد السوفيتي الذي كان ضعيفاً نووياً آنذاك وأن موضوع التعايش السلمي ما كان الاتحاد السوفيتي ليطرحة لو كان واثقاً من قوته. ومع ذل فإن ما حققه من تقدم خلال التعايش السلمي لإبعاد شبح الحرب المروع لا مجال لنكرانه أو تجاهله.
- ٦- لم يتدخل الاتحاد السوفيتي في اندونيسيا وغانا ومصر وسوريا حيث قامت الانقلابات- الثورة لن تكون رجعية في اندونيسيا وغانا ومصر وسوريا حين قامت إسرائيل بعدوانها على مصر وسوريا والأردن في سنة ١٩٦٧ حيث تحاشى الاتحاد السوفيتي مجابهة الولايات المتحدة.
- ٧- في المقابل لم تتدخل الصين في كمبوديا حين دخلت القوات الأمريكية في شهر حزيران الماضي وطهرت تلك المنطقة من الثوار واستولت على أسلحتهم وذخائرهم لأنها تخشى مجابهة الولايات المتحدة في وقت ليست واثقة فيه من قدراتها على التصدي لهذه الهجمة الاستعمارية أو استعداده لدخولها. هذه المواقف تؤكد حقيقة واحدة وهي أن المهم بل الأهم هو صيانة الثورة واستمرارها وليس تمزيقها وبعثرة قواها في معارك جانبية هنا وهناك.
- وقد دلت أحداث الخمسين سنة الماضية من تاريخ الاتحاد السوفيتي على صواب

سياسة عدم التصادم مع العدو لابتعاد عن الحرب وانتهاج سياسة النفس الطويل لتمكين الثورة من تطوير المجتمع وتصنيعه وتقنيته.

ولو أن الثورة الروسية انجرفت وراء مغامرات في إسبانيا وألمانيا وبولونيا وكوريا وفيتنام ومصر وغانا والكونغو وغيرها لتمكن خصومها من امتصاص ومن خلق وضع داخلي هو أقرب إلى التذمر والسخط منه إلى الثقة والاستعداد على البذل من أجل حماية الثورة واستمرارها وترسيخها.

أما موقف العراق بالنسبة للقضية الفلسطينية فهو يختلف اختلافاً جديراً وأساسياً إذا ما قورن بموقف الاتحاد السوفيتي من القضايا العالمية الأخرى رغم أن الحزب الشيوعي الروسي يؤمن بالأممية وهذا ما يدعو للتوضيح من أجل تحقيق إيمانه العقائدي بأمميته.

يبدو أن روسيا من خلال تجاربها الواسعة بدأت تعكس واقعاً معيناً في سياستها الخارجية يختلف عن منطلقاتها النظرية ويبتعد عن فكرها العقائدي كما يبدو وكثير من رواد الفكر والسياسة العالميين كما أوضحنا سابقاً ولكن سرعان ما قدم قادة الحزب الشيوعي المبررات لهذه المواقف وقد انعكست هذه المبررات على الأحزاب الشيوعية العالمية وكان لها ردود فعل متباينة ابتداء من المؤيدين وانتهاء بالمعارضين ناهيك عن موقف الحزب الشيوعي الصيني الذي لازال يحمل راية العداء ضد قادة الحزب الشيوعي السوفيتي.

إن ما يهمنا هنا ليس دراسة أوجه الخلاف بين الأحزاب الشيوعية ولا نريد أن نبرر سياسة الاتحاد السوفيتي إن كانت مصيبة أو مخطئة ولا نحن بصدد تقييم هذه السياسية لكن الذي يعنينا هو دراسة خطوات التجارب الاشتراكية العالمية لمعرفة مواضع الخطأ والصواب في هذا التجارب والاستفادة منها ولا يمكن لأي تجربة اشتراكية في العالم أن تعيش بمعزل عن التجارب الاشتراكية العالمية فكل تجربة تؤخذ من تجارب الآخرين بقدر ما تعاطيه هي لهذه التجارب لأن الفكر الاشتراكي الماركسي هو فكر عالمي وأن الماركسية هي فلسفة العصر كما يقول سارتر وان أي ثورة تضع الاشتراكية منهجاً لتحقيق أهدافها تحتاج بالضرورة لمعرفة تجرب الثورات الاشتراكية الأخرى ولا يمكن أن تعيش بمعزل عنها إن الأسرة الاشتراكية

في عالمنا يجب أن تخلق أجواء معينة من التعايش السلمي لخلق أفضل الظروف لتطوير العالم الاشتراكي وتعزيز مواقعه أمام المعسكر الامبريالي المعتدي .

وربما تكون هذه الدراسة العاجلة عن الاتحاد السوفيتي ذات جدوى في مناقشة السؤال الكبير الذي طرحناه في مطلع حديثنا .

"هل أصاب العراق أم أخطأ حين رفض الاصطدام العسكري مع الجيش الأردني".

وهنا أيضاً يحسن بنا أن ندرس أوضاع العراق وأوضاع الثورة فيه قبل أن نسوق الثورة إلى مصادمات خارج أرض العراق!!!!!!

إن خصوم العراق يحاولون عزله وتمزيقه وإرباكه اقتصاداً ومنعه من إحراز الانتصارات وكانت مشكلة الأكراد سلاحاً رهيباً في يد أعدائه.

واليوم يستخدم أعداء العراق الأسلحة العديدة لعزله وخلق ثورته، حيث أن العراق يتناقض مع الأساس مع سياسة التحالف السعودي- الإيراني- الكويتي من حيث اعتبار هذه الأقطار الوحيدة المسؤولة عن حفظ الأمن والاستقرار في منطقة الخليج وحيث أن بريطانيا المحافظة تفكر في الحفاظ على نوع من الوجود العسكري في المنطقة بعد انتهاء عام ١٩٧٨ وحيث أن حزب البعث القومي سيستجيب ويتبنى مطالب العناصر القومية الثورية المناهضة. فقد سارعت القاهرة إلى اتهام بعث العراق بأنه عميل لبريطانيا لأن تشجيع العناصر الوطنية- في رأيها سيكون ذريعة لبريطانيا لكي تظل في الخليج. وهذه السياسة بنظر القاهرة سد الطريق بوجه البعث القومي لئلا يكون القائد لحركات التحرر في هذه المنطقة في العالم العربي وبالتالي تسعى القاهرة لتعزيز سيطرتها على هذه القوى.

ومع أن هذا الاتهام مفضوح ومعروف إلا أن الاوركسترا الإعلامية الحاقدة ضد العراق والتي كانت تشن يومياً على صفحات الجمهورية والأهرام المصريتين وعلى صفحات المحرر اللبنانية كانت تساهم في عزل العراق وتشويه مواقفه.

الفصل الخامس

يوغسلافيا

بعد الأزمة السياسية والمنحة النفسية في عمان بسبب الصراع الدامي بين الجيش الأردني والمنظمات الفلسطينية، نقلت إلى بلغراد العاصمة اليوغسلافية. وصلت، وكان في استقبالي أعضاء السفارة وهم قلة لا يتجاوز عددهم ثلاث موظفين. بعد أن جرت مراسيم الخروج من المطار وجدت ما لم يكن في الحسبان ولا يتصوره سفير، كانت سيارة الأجرة في انتظار سفير العراق ممثل رئيس الجمهورية العراقية، سألت القائم بالأعمال عن سيارة السفارة فقال: لقد سرقت، وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء وعدم اكتراث. أثار جوابه استغرابي وقلت: كيف سرقت وعلامة الهيئة الدبلوماسية مثبتة في مقدمتها وفي مؤخرتها؟ ظل صامتاً وكأنه جدار من طين.

اتجهت بنا سيارة الأجرة إلى دار السفير، وكانت ترسم بذهني صورة قصر جميل لممثل رئيس الجمهورية وبيت العراقيين يملي ما عليه من طيبة واحترام، وأخذتني الدهشة عندما وجدت نفسي أمام شقة متواضعة معزولة في منطقة شعبية، قلت للقائم بالأعمال: أنت متأكد هذا هو دار السفارة العراقية؟ قال: نعم. قلت: وأين العلم العراقي؟ ألم تقض الأعراف الدبلوماسية رفع العلم كمؤشر على السيادة العراقية وأنه جزء من أرض العراق؟

دخلت الشقة، وإذا هي أفقر رؤية من مظهرها الخارجي، ثلاث غرف صغيرة متداخلة ومطبخ صغير جداً وحمام أصغر منه، تمنيت أن تبتلعني أرضية الشقة ولا أرى رمز الجمهورية العراقية ومعلمها البارز على هذا النحو من الانحطاط، وجن جنوني، وأخت أبحث عن مخرج لهذه الأزمة، أزمة السيارة وأزمة الدار.

تجولت في حي دور السفراء، وكانت أعلام الدول ترفرف فوق هامة كل دار ولافتة برونزية على باب حدائق تلك المنازل، وأخذت أقرأ لافتة بعد لافتة، ولم يلفت نظري

دار السفير الأمريكي ولا دار السفير الروسي ولا دار السفير البريطاني ولا دار السفير الصيني لأنها كانت تليق بدولهم العظيمة وتدل على مكانتهم الدولية، ولكن ما لفت نظري دور سفراء الدول الأفريقية والدول العربية التي لها تمثيل مع يوغسلافيا، كانت دور محترمة ومستوفية للشروط الدبلوماسية مع حدائق جميلة ومنسقة. لا سامح الله سفراء العراق ممن ارتضى إهانة سمعة العراق وداس كرامة الأمة وأنزلها إلى الدرك الأسفل من النسيان والإهمال. هذا ما قلته علناً وبصوت مرتفع.

بدأت أعمل على تجاوز المحنة خطوة خطوة، وكانت استجابة وزارة الخارجية العراقية بطيئة جداً ارتفعت لحدود الإهمال. كان أمامي تقديم أوراق اعتماد لوزارة الخارجية، وبعدها للرئيس تيتو، ومن ثم زيارة زملائي السفراء كما تقتضي به المراسيم المتعارف عليها دولياً. تقتضي المراسيم عند زيارة أي سفير عليه اصطحابي إلى خارج سفارته عند التوديع وحتى أمتطي سيارة السفارة مشرعاً على مقدمتها العلم العراقي. أخلتني هذه المواقف وأخرجتني بشكل مخجل، إذ لا سيارة ولا علم. كان السفراء الأجانب المعتمدين في بلغراد يقيمون احتفالاتهم ودعواتهم في دار السفارة تعبيراً عن اعتزازهم بسيادة دولهم وكرم ضيافتهم تعزيراً لمنزلة السفراء واحتراماً لوجهة بلادهم المشرق لأنه ممثل رئيس الدولة.

اشترى العراق دار سفير إحدى الدول الأفريقية وكان مهجوراً، عبثت بجدرانه تأسيسات التدفئة، عمرت ما أفسده الإهمال، وعلى كل حال عادت الحياة والهيبة لهذه الدار، وكان من الدرجة الثالثة قياساً على دور السفراء الأجانب.

اعتادت بريطانيا مثلاً على تجهيز السفير بسيارة (رولز رويس) وهي أضخم وأعلى سيارة تنتجها بريطانيا تعبيراً عن هيبة الدولة، وكذلك الدول العظمى والدول الأخرى التي تحترم شرف الأمة وكرامة حكومتها تجهز بسيارة تليق بها. مرت الأيام وجاءت موافقة الخارجية بعد إلحاح شديد، وتم شراء سيارة للسفارة.

بدأت نشاطي الدبلوماسي، وتعرفت على موظفي وزارة الخارجية اليوغسلافية، وبرزت دهشتي حينما سألتني الموظف مسؤول دول الشرق الأوسط (بضمه العراق) عن أحوال صاحب الجلالة الملك وصحته وسلامته، ضحكت، وقلت له: أي ملك تقصد؟ قال: الشاه (شاه إيران). وأجبتّه ببساطة وهدوء ممزوجاً بأسف ومرارة: أنا سفير

الجمهورية العراقية، وقد يكون تقارب اسم البلدين فوت عليك الأمر إذا لم تكن تمزح. ابتلع (سفيروفيج) الموظف المسؤول موقفه المرحج وبدأ يتحدث عن بلده واستعداده للتعاون معي لإنجاح مهمتي لإرساء علاقات متطورة بين البلدين.

حدثت السيدة (دراكانا) سكرتيرة السفارة -وقد استلمت واجبها منذ اليوم الأول لافتتاح السفارة- بما دار بيني وبين الموظف المسؤول عن إدارة مهام العراق، أجابت بشيء من الحرج: بأن التقصير يقع على عاتق زملائك السفراء العراقيين السابقين لانعدام زيارتهم لوزارة الخارجية والتعرف على موظفيها، وقالت: من النادر أن يطلب مني السفراء السابقين موعداً لزيارة وزارة الخارجية.

أردت بهذا توضيح حقيقة وضع السفارة في يوغسلافيا وأبين بعضاً من السفراء العراقيين عافاهم الله. وأما مكتب السفارة فقد كان أحسن حالاً مما ذكرته عن الدار والسيارة لكن باستثناء أكداش الكتب المبعثرة في حمام السيارة. لقد نسبت أحد الموظفين لتنظيم هذه الكتب وترتيبها بعد أن ابتعت مكتبتين لحفظ الكتب المرسله من وزارة الخارجية وقد اعتادت على توزيعها لتوسيع ثقافة ومعارف موظفيها في الخارج.

ألف عين مراقبة وعين:

كثيراً ما ينظر عامة الناس إلى الأمور السياسية المهمة والمتعلقة بمصالحهم نظرة سطحية ومتواضعة لذلك يأتي الحكم عليها مخطوءاً وضاراً ومن الصعوبة بمكان تقبل العقل الشرقي وجهة نظر مغايرة وإن كانت صائبة لأنه مؤمن بما وصلت إليه قناعته. عانيت كثيراً في أحاديثي مع أصدقائي ومعارفي أو ممن يفرض عليّ الحديث معه حتى توصلت إلى نتيجة واحدة أن أقطع لساني وأحتفظ برأيي حتى أتجنب الاتهام وأظل موفور الكرامة أمام أولئك الناس وإلا فقدت احترامي. هذه النتيجة التي توصلت إليها قاتلة لأن كثير من ألسن العارفين الخيرين اختفت وبعضها وري التراب دون أن يقول كلمة حق.

وصل مدير المراسيم في وزارة الخارجية ودود الشبخلي إلى بلغراد وكنت في استقباله، جاء لترتيب زيارة السيد النائب صدام حسين. قدمت الحكومة اليوغسلافية

فلتين جميلتين لإسكان الوفد العراقي. ارتأى مدير المراسم العراقي تخصيص فلة للسيد النائب ولوزرائه الأربعة المرافقين له، وخصصت الفلة الثانية للحماية والحاشية. وبعد مغادرة ودود الشبخلي بلغراد استلمت برقية تفيد تعديل ما اتفق عليه وطلب مني تخصيص فلة للسيد النائب ولأفراد حمايته والفلة الثانية للوزراء المصاحبين له. تم تنفيذ ما ورد بالبرقية ونزل الوفد كل في فلتته.

قدم السيد النائب هداياه الثمينة للشخصيات المهمة في الحكومة اليوغسلافية وكانت كلها من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة. عرض عليّ رئيس الوزراء اليوغسلافي جمال بيدج هدية السيد النائب وكانت بندقية صيد ومزهرية كريستال، وأخذ رأبي بالهدية، ونصحته أن يعيد النظر بالهدية لتواضعها وأنها لا تليق بمنزلة السيد النائب، وفعلاً صارت الهدية وسام رفيع وإن كان هذا يحتاج لمراسيم طويلة وأخذ موافقة الرئيس تيتو، وتم الأمر تلفونياً اختصاراً للإجراءات الرسمية في منح مثل هذا الوسام.

بعد مرور سنتين وعند عودتي بإجازة لبغداد سألني واحداً من العيون المراقبة وقال لي: بمن اتصل السيد النائب من وزراء هناك؟ كان سؤالاً غريباً جداً، ولم أجد ما يبرره بعد مرور كل هذا الزمن على الزيارة، أجبتة بما حصل إذ لم يتصل بأحد سوى أفراد حمايته، علم وهز رأسه دليل على صحة ما أقوله، وقبل زيارة الوفد أبلغني السفير الأمريكي بالزيارة في إحدى المناسبات الرسمية وكان يعلم بذلك قبل الإعلان عنها، وقال لي: أنا أعرف أنك لا تعلم بذلك.

تقديم أوراق اعتماد للرئيس تيتو:

نقلتنا طائرة خاصة إلى كرواتيا أنا وستة من السفراء المعتمدين حديثاً لدى الحكومة اليوغسلافية، كنت أول من قدم أوراق اعتماده من السفراء السبعة، رافقني موظف التشريفات واستعرضت الحرس الجمهوري واتجهنا إلى قاعة الاستقبال وإذا بالرئيس تيتو مرتدياً بدلة بيضاء يحف به وزير خارجيته ومستشاره السياسي ومترجم يجيد العربية بطلاقة.

كان موعد تقديم الأوراق صباحاً، بعد تقديم مشروبات الضيافة تناولت قدحاً من

العصير بينما فضل الرئيس تيتو قدحاً من الويسكي. نظر إلى مع ابتسامة قائلاً: أنت مسلم؟ عزفت عن شرب الويسكي لأنه من المحرمات؟ أجبت: نعم، أنا مسلم، ولكن لا أشرب الويسكي إلا قليلاً وفي المناسبات الرسمية أو ليلاً. إن أول سؤال فاجأني به وقد أخرجني قليلاً، قال: كيف قتلتم رجل وطني وزعيم عراقي معروف دولياً سيق لي أن قابلته في لوساكا عند انعقاد مؤتمر رؤساء دول عدم الانحياز؟ أخذني تفكيري إلى كل اتجاه أبحث عن اسم هذا القائد الذي عناه الرئيس تيتو، وأسعفني المترجم قال: يقصد الفريق الطيار حردان التكريتي، أجبت الرئيس: كنت يومها سفيراً في عمان، ولا علم لي بتفاصيل الحادث، وليس لدي أي معلومات رسمية سوى ما كتبه الصحف، وقد يكون لهذا الرجل خصوم في السياسة أو له خصومات شخصية، وبأدب جم مع ابتسامة لطفت الجو استطردت بالحديث وقلت له: يا سيادة الرئيس، هموم الشرق الأوسط كبيرة وعميقة جداً تجاوزت الأفراد. سكت الرئيس اليوغسلافي وبدأنا نتحدث عن شؤون العراق، وانتهت مراسيم تقديم الأوراق وتعاقب بقية السفراء الستة الآخرين لإكمال مراسيم تقديم أوراق اعتمادهم إلى بلغراد.

حزت على رضا الرئيس تيتو في المقابلة الأولى كما صرح لي وزير خارجيته، ودأبت على تمتين العلاقة مع وزارة الخارجية للدرجة التي بات معها إجابة طلبي لأي أمر بسهولة ويسر، كان اليوغسلاف متعاونين جداً معي، وهم رجال يحبون وطنهم ويعملون بإخلاص لبناء يوغسلافيا الحديثة تحت قيادة حكيمة وقوية مجربة وذات خبرة عالية تمتد إلى عقود من الزمن ذلك الرجل القوي الرئيس يوسيب بروز تيتو.

قابلتني السكرتيرة دراكانا، وهي أكفأ من عرفت، كانت كفاءة نادرة، وخلق رفيع، وثقافة عالية. عندما سألتها مرة عن أصلها فإذا هي من كرواتيا، ومن طبقتها الأرستقراطية، هذه الجمهورية من جمهوريات يوغسلافيا المتقدمة اجتماعياً وصناعياً، ومن الجمهوريات الواقعة شمال نهر الدانوب الذي يقسم بلغراد إلى نصفين، الجزء الشمالي أقرب إلى دول أوروبا، وتأتي بعدها جمهورية سلوفينيا. قالت السكرتيرة إن مستشار الرئيس تيتو دعاك إلى غداء هذا اليوم فهل لديك ما يمنع من ذلك؟ رحبت كثيراً بالموعد لأنني متشوق لمتنق علاتي بالقادة اليوغسلاف أكثر فأكثر. تم الموعد، وذهبت إليه، رأيت مشغولاً بإعداد بريد الرئاسة، ويعد قليل اتجهت سيارته إلى خارج

بلغراد، ظننت أن الغداء في محل ما خارج العاصمة، واستمرت المسيرة حتى وقفت في باب المطار، نزلت وقلت يبدو أن الدعوة في مطعم المطار، لا بأس مادام معي رجل دولة كبير. واتجهنا إلى طائرة خاصة خلقت بنا نحن الاثنين، وسألته: إلى أين نحن ذاهبون؟ قال: هل لديك مانع في أن يكون الغداء في بريوني؟ أجبته -والفرحة تبتسم على وجهي-: والله إنها دعوة كريمة من رجل كريم في مكان مكرم. وصلنا جزيرة بريوني حيث مقر الرئيس تيتو المفضل. وبريوني هي واحدة من خمسة آلاف جزيرة يوغسلافية أخرى ترقد على ضفاف بحر الأدرياتيك الجميل. ولهذه الجزر مهمة تخفيف أمواج البحر لكثرتها وتقاطعها مع الأمواج حيث تصل الأمواج إلى الساحل هادئة ناعمة.

انتظرت في بهو الفندق لحين عودة المستشار وحسب طلبه لتقديم البريد السياسي للرئيس تيتو كما علمت منه. عاد وأخذني، واتجه بي إلى ساحل الجزيرة وركبنا زورقاً بخارياً باتجاه مقر الرئيس تيتو تاركين الفندق الضخم الأنيق خلفنا. وبعد دقائق، رسا الزورق على ساحل بريوني ونزلنا وإذا بي أرى الرئيس تيتو يتمشى في طارمة القصر المتواضع وكانت واجهة الطارمة زجاجية. رحب بي الرئيس تيتو بعد السلام عليه، رافقته حيثما يسير حتى وصلنا إلى أن وصلنا نهاية القاعة أو الطارمة المذكورة. جلست في زاويتها، لم يكن فيها من الأثاث إلا قليلاً من الكراسي، ولم يجلب انتباهي أي ديكور أو أثاث تشير إلى البذخ والترف سوى الكراسي القليلة المكونة في زاوية الطارمة رغم سعة الطارمة.

تحدثنا عن العراق، وسألني عن سير عملي وتعاون وزارة الخارجية اليوغسلافية معي، شكرته كثيراً لما ألقاه من رحابة صدر واحترام كبير من لدن وزارة الخارجية وبصورة خاصة السيد الوزير. وعدني بأنه سيوصي وزارة الخارجية خيراً أكثر مما هو عليه، وسألني من ترى قتل الملك فيصل بن عبدالعزيز السعود؟ وبعد صمت قليل أدركت أن هذه الزيارة تعني هذا السؤال. قلت مبتسماً: لم يكن لدي أي معلومات من حكومتي، لكن متابعتي للصحف والأخبار العالمية جعلني أحلل أسباب مقتل الملك فيصل رحمه الله. استطردت قائلاً: إن وزير خارجية أمريكا كيسنجر يصرح بأنه كلما يزور منطقة الشرق الأوسط يقوم بزيارة صديقه الملك فيصل بن عبدالعزيز

للتشاور معه، وإن الملك فيصل -على ما يبدو- يفضي برأيه إلى كيسنجر أملاً أن يتوصل معه إلى حل للقضية الفلسطينية بإعتباره موضع ثقته، وأشارت إلى ما صرح به الملك في إحدى المجلات قائلاً: (على إسرائيل أن تنسحب من الأراضي المحتلة، وأن تترك مقدسات المسلمين، وتطلق أسر بيت المقدس، وحدد زمناً لذلك كان آخره عام ١٩٧٥ وإلا سوف يلجأ إلى قيادة جيش من الدول العربية والإسلامية لتحرير بيت المقدس، وأنه عازم على أن يصلي هناك في العام المشار إليه). قلت: على ما يبدو أن صراحة الملك فيصل رحمه الله أصابت منه مقتلاً. وإذا بالرئيس تيتو يربت على كتفي بيد متعبة قائلاً: هذا هو المقتل الذي أصابه. أسف تيتو لتصريح الملك، قال: إن مثل هذا التصريح خطير، بل خطير جداً وقد عجل في مقتله، وأردف قائلاً: أنا أعرف الملك فيصل منذ العام ١٩٤٨، تعرفت عليه في الأمم المتحدة، ولست فيه الذكاء الخارق وقوة الشخصية، ولربما ثقته بنفسه دفعته إلى أن ييوح برأيه إلى وزير خارجية أمريكا كيسنجر.

كان الرئيس تيتو ممتناً من حديثي الصريح معه، وقال لي: إنك الوحيد من السفراء العرب قابلته لهذا الغرض، شكرته على حسن ظنه، وانصرفنا إلى دعوة المستشار السياسي، لفت نظري الساحة الفسيحة أمام القصر المتواضع في الجزيرة وهي خالية من أي بناء أو شارع سوى بيت الرئيس، وفي ساحتها عدد قليل من الغزلان وبعير واحد وقليل من الكلاب. كانت سفرة ممتعة، شرفتني بمقابلة رئيس الجمهورية اليوغسلافية تيتو حيث وطدت علاقتي به كثيراً وسهلت علي مهامتي وكانت منطلقاً لتطوير العلاقة بين بلدينا.

استلمت برقية عاجلة من وزارة الخارجية تطلب مفاتيح الحكومة اليوغسلافية باستعداد العراق بيع مليون طن نפט إلى يوغسلافيا بأسعار مناسبة وبأقساط مريحة، كانت البرقية مكررة وكانت إلى سفارتنا في الهند تعرض بيع خمسة ملايين طن نפט عراقي بنفس التسهيلات. اتخذت الحكومة العراقية هذا الإجراء بعد تأميم النفط. قابلت وزير الخارجية اليوغسلافية لهذا الغرض، وبعد صمت قصير قال: يجب عرض الأمر على الرئيس تيتو أولاً. شجعت الوزير على الاستفادة من العرض، وهذا مؤشراً على تحسين وتطوير العلاقة بين البلدين. وأخذت العلاقات العراقية

اليوغسلافية بالنمو والازدهار ونشطت السفارة لاستثمار هذه البادرة، وانفتح العراق على الشركات اليوغسلافية في البناء والصناعة والزراعة والسياسة معاً وفي مجالات أخرى.

مصنع رقم ١:

جرت مفاوضات بين الوفد العراقي برئاسة طه الجزراوي والجانب اليوغسلافي، واتفق الطرفان على إنشاء المصنع في الإسكندرية جنوب بغداد، وطلب الجانب اليوغسلافي مبلغ أربعمائة وخمسون مليون دولار. ذهب الوفد العراقي إلى بغداد للحصول على موافقة الحكومة العراقية. بعد أسبوع وردت برقية بالموافقة على طلب الحكومة اليوغسلافية وطلب مني توقيع العقد. بقي أعضاء الوفد الفني في بلغراد لدراسة تفاصيل المشروع من الناحية الفنية. أخبرت الدكتور عامر السعدي بمضمون البرقية وموافقة الحكومة العراقية على توقيع العقد. أخبرني الدكتور عامر السعدي بأن إيران أقامت مثل هذا المشروع قبل سنوات بصفحة موفقة مع ألمانيا الغربية وبأجهزة ومكانن غربية وبمبلغ مائتي مليون دولار، وأن عرض اليوغسلاف مبالغ فيه، ومكانن المشروع وأجهزته يوغسلافية وبعضها من دول شرقية وأخرى من دول غربية. كان المشروع واسعاً، ولعدم إمكانية الحكومة اليوغسلافية من تغطية المشروع، لذا اضطرت للتعاون مع دول أخرى لإنشائه. إن هذه المعلومات جعلتني أتردد من توقيع العقد فأبرقت إلى بغداد لإرسال مسؤول لتوقيع العقد وإجراء مباحثات تفصيلية بما يتعلق بسعر المشروع. جاء طه الجزراوي وشرحت له الأمر وعقدت جلسة مشتركة مع اليوغسلاف لم تأت بنتائج إيجابية حيث أصر الجانب اليوغسلافي على موقفه ووقع العقد بين الطرفين وبالسعر الذي أراده اليوغسلاف.

وفود عراقية متعددة:

تقاطرت على بلغراد وفود عراقية عديدة، زراعية وصناعية وعسكرية وغير ذلك، وجرى مفاوضات متعددة مع الجانب اليوغسلافي انتهت بإتفاق الطرفين. وفي إحدى الحفلات الرسمية أسر بأذني مساعد وزير الخارجية اليوغسلافي أمراً مهماً، قال: يا سعادة السفير، إن أعضاء الوفود العراقية تتقبل هدايا متواضعة مقابل توقيع أي

عقد دون منافسة الأسعار بما لا يضمن مصلحة العراق. شكرته على ملاحظته ووعده بأنه سأتخذ ما يلزم. رد علي وقال: لم يكن لي أي هدف سوى توضيح الأمر لك والحكومة العراقية، وهنا في يوغسلافيا أصبح الأمر مجالاً للتندر والاستغراب. هكذا كانت قابلية أعضاء الوفود العراقية وهذه هي معرفتهم المتواضعة وأسلوب تعاملهم.

دولاندرز سكرتير عصابة الشيوعيين اليوغسلاف:

استقبلت الأستاذ الرفيق شبلي العيسمي وعائلته في مطار بلغراد، رافقتنا ممثل عصابة الشيوعيين اليوغسلاف إلى الفندق المعني لضيافة الأستاذ شبلي. تصرف اليوغسلاف حيال ضيافة الرفيق شبلي العيسمي وعائلته بشيء من عدم الاهتمام بما لا يتناسب ومنزلة الضيف لكونه أمين مساعد في القيادة القومية لحزب البعث. بذلت جهوداً مضمّنة لتعديل موقف الحكومة اليوغسلافية ومع سكرتير عصابة الشيوعيين اليوغسلاف السيد دولاندرز. نجحت جهودي، وخصص سكن أنيق للرفيق شبلي وعائلته، كما أقام السيد دولاندرز حفلة عشاء على شرف الرفيق شبلي. جرى حديث متبادل بين الطرفين يخص حزب البعث وعصابة الشيوعيين اليوغسلاف. قدم السيد دولاندرز نصيحة للضيف، قال: عرضت علينا ألمانيا مشروع إقامة مصنع تصنيع أدوية مقابل أن يخصص عشرة بالمائة من الإنتاج إلى ألمانيا بثمن. استطرد السيد دولاندرز قائلاً: درس الخبراء اليوغسلاف المشروع ولاحظوا نسبة التلوث عالية، لذلك رفضنا المشروع وقلنا للألمان قدموا العرض إلى الدول الأفريقية وإلى دول أخرى، فخذوا حذرهم من المشروع -موجهاً كلامه للرفيق شبلي- وأن ألمانيا الغربية مستعدة لبيع المشروع مجاناً مقابل عشرة بالمائة من إنتاجه.

زار الرفيق عبدالفتاح الياسين لمواجهة الرفيق شبلي العيسمي، وتم اللقاء. ظهر لي أن مجيء الرفيق شبلي إلى يوغسلافيا تحاشياً للإحراج بعد عودة ميشيل عفلق إلى بغداد. وبعد انتهاء فترة النقاهة للرفيق شبلي وعائلته عاد إلى بغداد، وعلى ما يبدو سويت الأمور بما يرضي الرفيقيين.

مع السفارة الماليزية:

تقضي الإجراءات الدبلوماسية أن يقوم كل سفير ينسب إلى دولة ما أن يقوم بزيارة تعارف إلى كل السفراء المقيمين بتلك الدولة. تكون الزيارة قصيرة وللمجاملة والتعارف. تعلمت هذه الأصول وغيرها عملياً أثناء أداء وظيفتي في عمان حيث لم تقدم وزارة الخارجية العراقية أي تعليمات ولا إرشادات لتعريف السفراء الجدد بما يجب عليهم معرفته حتى لا يقصر السفير بمقتضيات وظيفته. إن أغلب السفراء الذين عينتهم الثورة هم من خارج وزارة الخارجية ولا علم لهم بالإجراءات الدبلوماسية الحساسة جداً. وإن أي خطأ أو تقصير غير متعمد لا يغتفر بالنسبة للدولة المقيم بها السفير أو بالنسبة لزملائه السفراء، لأن مبدأ المقابلة بالمثل أمر يعمل به بدقة.

وبعد هذه المقدمة القصيرة، وهي ليست بيت القصيد، بل المسألة تتعلق بزيارة السفارة الماليزية، وهي سيدة من العائلة المالكة الماليزية، كانت تمثلهم في الأمم المتحدة. جلب انتباهي نظراتها إلي بشكل لفت نظري، سألتها -مع ابتسامة خفيفة- عما إذا كان لديها ما يدعو إلى هذه النظرات. أجابت: نعم، أنا أنظر إليك لأرى جيوبك مألئ بالذهب. أحببتها ببساطة وتواضع مع ضحكة عميقة. وقفت وأخرجت دواخل جيوبي إلى الخارج وكانت فارغة، بل أفرغ من فؤاد أم موسى. ضحكت، وقالت: لا أعني جيوبك هذه، ولكنني قرأت تقريراً عن أغنى بلد في العالم، وكان العراق من الدول الغنية وهو في المقدمة، لديكم النفط بجزارة، وأراضٍ زراعية شاسعة، ومياه وفيرة، وشمس منيرة، وكل ما تحتاجه الزراعة، وكذلك اليورانيوم والذهب والكبريت. واستطردت تعدد ما في العراق من نعم وخيرات، وإذا بالدهشة تملأ وجهي ونظراتي. لم أجد جواباً جاهزاً لأرد على ضيفتي -وكانت مستنة- وأخذني الحياء، إذ ليس من واجب السفير أن يسرد سلبيات بلاده بأسلوب يسيء لشعبه وحكومته. قفزت خاطري لذهني واستحضرت تاريخ العراق، وقلت لها: كل ما أفضيت به صحيح، ولكن فاتك أمراً مهماً، أن هولاء هذا القائد التتري حطم حضارة وادي الرافدين، ودمر كل ما بناه القادة العرب، وأعقبه الحكم العثماني وقد امتد أكثر من ستمائة سنة من التدمير والتغيير والاستغلال، وتلاه الانتداب

البريطاني، والآن تعاورت عليه الشركات الأجنبية تنهش في لحمه دون رحمة، ولم يجد الشعب فرصته لاستثمار خيراته المدفونة في باطن الأرض، وكما تعلمين أن هذه الثروة العظيمة إذا لم تستغل تظل في باطن الأرض دون أن تقدم أي خدمة لأهلها. بهذا الأسلوب بدأت تتفهم واقع العراق وأسفت على ما يعانيه الشعب العراقي وما واجهه من ظلم وسرقة وتخلف، حتى آثاره التاريخية سرقت، وشواهداها في متاحف لندن وباريس وبرلين وغيرها. تجاوزت ذكر السلبيات والتخلف المنتشر في مدن العراق وريفه وما تعانية من شحة المال لقلة الرواتب، حيث صدرت الأوامر إلى كافة السفراء لشد الحزام على البطون بحجة تأمين النفط، واستقطع ثلث الراتب رغم قلته.

مع السفير الدنماركي:

في جولة السفير الدنماركي لزملائه السفراء أثناء استلام منصبه الجديد كانت زيارته للتعرف والمجاملة، حدثني عن التقنية في بلاده وتطور الإنتاج فيه، وانزلق إلى هاوية المواجهة عندما قال: نحن لا نصدر إليكم هذا الإنتاج المتطور لأنكم لستم قادرين على التعامل معه علمياً، وعدد لي الحاجات المنزلية في مقدمة حديثه. كان جوابي على ما سرد من معلومات استفزنتني عندما وضع العراق في خالة التخلف، قلت له: لا بد أنك اطلعت على علوم الهندسة والطب والرياضيات والفن وغير ذلك في بلدك، والعلوم تدرس عندكم في الجامعات وكانت مصادرها نتاج علماء عرب، ولا بد أنك تذكر هدية هارون الرشيد لشارلمان ملك فرنسا الساعة التي أذهلت عقول أوروبا وظنوا أن واحداً من الجن يقوم بتشغيل هذا الجهاز الدقيق. قلت: كانت أوروبا يومذاك تغط في جهل وتخلف. عدت له من العلماء في الطب كالرازي وابن البيطار وابن الهيثم وغيرهم في الرياضيات، وفي الطيران عباس بن فرناس وتجربته التي فتحت فكر الإنسان للطيران، وأول خارطة للعالم رسمها سائح عربي، وإذا بالسفير يتلعثم ووجد نفسه في مأزق وخرج، وأمعنت في حرجه متقصداً لأشفي غليلي وأداوي الجرح الذي فتحه في نفسي، قلت: يا سعادة السفير، في العراق الآن أكثر من سبع جامعات، ولدينا من الكوادر العلمية ما يكفي لتشغيل كل أجهزة إنتاجكم، بل قادرين على تطويرها، وإن حديثك عن زمن التخلف والاستعباد والاستعمار ولى دون رجعة، والعراق اليوم يشهد نهضة علمية كبيرة، ورجوته أن يتابع الأخبار ليصل

إلى الحقيقة. سكت الرجل، وبدأت أتحدث معه بلطف وود حتى تلتف الجو وانصرف شاكراً.

من بلغراد إلى بغداد:

أقامت رئاسة الجمهورية الاتحادية اليوغسلافية حفلة تكريم بمناسبة انتهاء عملي في بلغراد، وقلدت وسام الاستقلال من الدرجة الأولى، وهذا الوسام لا يمنح للسفراء إلا إذا قدمت وزارة الخارجية اليوغسلافية تقريراً تمدح عمل السفير إلى البرلمان اليوغسلافي وهناك يناقش التقرير وبعد ذلك يرفع إلى مجلس الوزراء إذا ما تمت الموافقة عليه، ويرفع مجلس الوزراء التوصية إلى رئاسة الجمهورية وتعرض بعد ذلك على الرئيس تيتو للمصادقة، بعد ذلك تقام حفلة تكريم للسفير يقلد فيها هذا الوسام الرفيع. نقل نائب رئيس الجمهورية لي رأي السيد الرئيس تيتو أثناء الحفل وقال: يستحق هذا السفير الوسام، وفعلاً تم ما اتفق عليه، لم يقلد أي سفير عربي هذا الوسام طيلة السنوات الست التي عملت بها في هذا البلد.

تكريم آخر:

قام وزير الخارجية اليوغسلافية حفلة تكريم بمناسبة انتهاء عملي، وهي حفلة روتينية تقام لكل سفير تنتهي أعماله في بلغراد. أشاد الرجل بالجهود الكبيرة التي بذلتها لتطوير العلاقة بين البلدين إلى المستوى الرفيع الذي بلغته، بينما كانت أعمال السفارة قبل استلامي لا أثر لها البتة. ومن جملة ما قاله السيد الوزير أثناء كلمته أن السفير الأمريكي اعترض على وزارة الخارجية لأنه لم يمنح وساماً تكريماً لخدماته بينما يكرم السفير العراقي، وأخذ السفير الأمريكي يعدد ما قدمه من مساعدات وتخفيف ليوغسلافيا وحسن العلاقة بين الدولتين. رد الوزير عليه بجواب أسكت به السفير حينما قال: أن الحكومة الاتحادية اليوغسلافية أدرى بمصالحها وأقدر على تقييم السفراء الأجانب، ولا أريد أن أعدد لك أعمال السفير العراقي، وكفى أن أقول لك هو يستحق هذا التكريم وأكثر من ذلك. كانت هذه الكلمات وساماً آخر حملته في نفسي وأنعش أحاسيسي وأرهف مشاعري، وأجبتة بكلمة فياضة شاكراً له ولحكومته ولرئيسه هذا التقييم الرفيع والإطراء المحب.

واستمرت دعوات التكريم، حيث أقام وزير الإعلام مأدبة عشاء بمناسبة انتهاء عملي، وقدمي لي رسوم فنية قديمة صربية وغيرها من الهدايا، وكذلك أقامت رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك حفلة تكريم أخرى وهدايا بالمناسبة، وشكرت لهم صنيع ما عملوا وقد تركوا في نفسي أجمل ذكرى.

ومن الدعوات المهمة والمؤثرة في نفسي كثيراً دعوة وزير الدفاع اليوغسلافي، إذ حضر قادة الجيش بما فيهم رئيس الأركان، كنت وأعضاء السفارة كافة مدعويين إلى هذا الحفل التكريمي. جرت العادة في مثل هذه المناسبات أن يتبادل الطرفان كلمات التوديع، يعرب كل منهما عن شكره وامتنانه مع تقييم للأعمال البارزة التي قام بها الطرفين. إن ما جلب انتباهي واهتمامي ما قاله السيد الوزير حينما قال أن وزارته تقيم ولأول مرة مثل هذا الحفل، إذ لم يسبق لهذه الوزارة أن تقيم حفلات توديعية بمثل هذه المناسبات، وبهذا أريد أن أؤكد -والكلام للوزير- للسفير احترامي وتقديري للعلاقات الشخصية والعلاقات الأخوية بين البلدين. وكان هذا وساماً آخر شرفني به وقدم لي مسدس من صنع يوغسلافي مع لوحة صغيرة ذهبية أرخت المناسبة وتوقيع السيد الوزير عليها.

كانت الحفلات التكريمية العديدة من قبل رجال الحكومة اليوغسلافية أوسمة شرف وتقدير كبير تحمل معنى للتكريم وتقيماً للأعمال المتميزة التي يقدمها السفير لتطويع العلاقات بين البلدين. لم أعاني أثناء عملي من معوقات في وزارة الخارجية من الدول التي عملت فيها كسفير، بل جل ما عانيته من عراقيل وإيذاء وإزعاج هو من موظفي السفارة العراقية، إذ لم يقدم أي منهم أي خدمة للسفارة سوى الركض وراء الكسب والانتفاع. وللأسف الشديد أود أن أسجل بأوراقى هذه الحقيقة عسى أن تأخذ وزارة الخارجية العراقية اهتماماً لدعم السفراء وسماع مقترحاتهم لتنفيذ تعليمات الوزارة بنجاح. كانت علاقتي بوزارة الخارجية العراقية ضعيفة وسيئة، وهذا حال أمثالي من السفراء، كانت لغزاً محيراً إذ وضعت عصي الإيذاء في عجلة الحماس الذي أتمتع به، ولكنني أقدر على تجاوز كل هذه المعوقات مادام خدمة العراق كان هدفي الأول. وما شهادة رجال الدولة اليوغسلافية إلا مؤشر نجاح وأوسمة شرف لي، وكذلك ملك وحكومة الأردن والوسام الرفيع الذي حصلت عليه تحكي قصة نجاحي في عملي، والحمد لله..

الفصل السادس

خاتمة المطاف

الفصل الأخير من الذاكرة..

استلم حزب البعث السلطة في العراق عام ١٩٦٨ بمعونة مجموعة من الضباط من ذوي الاتجاه الوحدوي وفي مقدمتهم المقدم الركن عبدالرزاق النايف. تقاسم حزب البعث الحكومة مع شركائه، فكانت رئاسة الوزارة من نصيب عبدالرزاق النايف، ورئاسة أركان الجيش من نصيب الرائد الركن إبراهيم الداود، وتوزع الضباط الوحدويون الآخرون على وحدات الجيش حسب رغباتهم، وكانت رئاسة الجمهورية والمناصب الأخرى من نصيب حزب البعث.

لم تمض على قيام التغيير الجديد أياماً حتى اعتقل عبدالرزاق النايف وسفر خارج القطر عنوة. أحيل رفيقه إبراهيم الداود على التقاعد عندما كان في زيارة للقطعات العراقية في الأردن. أما رفاقهم الضباط فقد خيروا بمناصب في وزارة الخارجية لإبعادهم عن الوحدات العسكرية.

تم تصفية الحلفاء غير التقليديين للحزب كخطوة أولى، تلتها الخطوة الثانية، وقد شملت جماعة الفريق الركن عبدالعزيز العقيلي الشريك القديم الذي وقع مع ضباط البعث ومجموعة من كبار الضباط طلباً إلى رئيس الجمهورية عبدالرحمن عارف حددوا في طلبهم ما على العراق من التزام وطني وقومي بعيد حرب عام ١٩٦٧ (الحرب بين العرب وإسرائيل).

أكمل حزب البعث تصفية الحلقة الأولى من شركائه بمقتل السيد ناصر الحاني وزير خارجية الحكم الجديد، وأخيراً عين مستشاراً في رئاسة الجمهورية، نقل إلى هذا المنصب بعيد تسفير قريبه عبدالرزاق النايف.

استمرت عملية تثبيت مواقع الحزب في السلطة وتسلق رفاق البعث المناصب الحيوية في الدولة حتى سيطروا على مفاصل الحكم بشكل تدريجي.

استقال عبدالهادي صالح محافظ الأنبار بسبب خلافه مع المنظمة الحزبية، وتلاه عبدالصاحب محمود محافظ كربلاء لنفس السبب حتى استشرت حمى السيطرة على المناصب الحكومية وغيرها.

ومن الأمثلة المؤسفة تدخل الحزب في قبول كلية الشرطة، فقبل من كان ساقطاً في الفحص الطبي وبعضاً ممن لم يكن لديه شهادة الإعدادية. طرحت عليّ مثل هذه العينات عندما كنت وكيل وزارة الداخلية، استفسرت عن الموضوع، فجاء الرد بأن إرادة الحزب تدخلت وأمرت بذلك، وعلى الآخرين الإطاعة.

بدأ تطبيق نظرية الشخص غير المناسب في مكان لائق. تصاعد نهم وشراهة قيادة الحزب حتى التهمت الشريك والمخطط الرئيسي للتغيير عام ١٩٦٨ الفريق الركن الطيار حردان التكريتي، أحيل على التقاعد عندما كان في زيارة لإحدى الدول وهو النائب الأول لرئيس الجمهورية، وقد عهد إليه هذا المنصب لإبعاده عن وزارة الدفاع، كانت ضربة إلى الأعلى حتى انتهى به المطاف منفيًا في الكويت وقتل هناك على يد إرادة الشر وليس إرادة الحزب، فحزب البعث عظيم بمبادئه وقيمه وأهدافه، إنه حزب الوحدة والحرية والاشتراكية، إن الحزب الذي يرفع شعار الرسالة الخالدة لا يغتال أقرب الناس إليه وأصدقائه وحتى رفاقه.

دارت عجلة الاغتيالات، فكان هدفها الجديد المرحوم عبدالخالق السامرائي عضو القيادة القطرية، فاعتقل، وأخيراً أعدم وذهب إلى العالم الآخر مأسوفاً عليه. لقد كان رفيقاً مخلصاً للحزب ولبلاده، بعيداً عن مغريات الحياة، زاهداً بمناصب الدولة. افترى عليه حتى أعدم.

دارت الأيام على الرفاق القياديين، وبدأت بمقتل عضو القيادة القطرية الصاعد الجديد عبدالوهاب كريم على إثر اصطدام سيارته أثناء عودته من محافظة الحلة إلى بغداد.

استمرت طاحونة الاغتيالات تسوق الرفاق القياديين وغيرهم كي يصفو الجو لمن

يمسك بمقود التصفية. برزت حوادث الاصطدام كوسيلة للتصفية. اصطدمت سيارة الرفاق علي عليان ونوري حمادي ومنذر عبدالقادر بسيارة حوضية تابعة لأمانة العاصمة، قتل على إثر الحادث منذر عبدالقادر، وفقد نوري حمادي عقله، وشفى علي عليان من جراحه، وبهذه الواقعة بدأت التصفية الجماعية. استمرراً قائد العمليات فواجع القتل بقلب مطمئن، إذ لم يثر عليه غبار الاتهام، وأخذ يمهد الطريق بقلب مطمئن وجسارة فائقة.

زرت مقر صدام حسين في القصر الجمهوري مرة واحدة وكان يشغل منصب رئيس مكتب العلاقات العامة، ورأيت الرفاق سمير الشبخلي وناظم كزار وطاهر العاني وسعدون شاكر وتايه عبدالكريم ومحمد فاضل وآخرون يترددون بإستمرار بل يومياً على مكتبه دون أن يثير هذا اللقاء أي اعتراض، كما لم يثر أي حساسية، بينما استنكرت على صالح مهدي عماش لقاءه بعبدالوهاب كريم.

دارت الدوائر على القيادة القطرية وبعضاً من قيادات الفروع لحزب البعث، اتهموا بالتآمر، ولم يكن هناك وضوحاً في الصورة -صورة المؤامرة- التي يقودها عدنان الحمداني ومحمد عايش وغانم عبدالجليل ومحي المشهداني ومحمد محجوب وكلهم أعضاء في القيادة القطرية. جرت التمثيلية بأسلوب هزلي وساخر حيث دعي كوادر الحزب إلى الاجتماع في المجلس الوطني لأمر هام، وحضر الجميع، وإذا بالدهشة والمفاجأة تمسك بلباب الرفاق المجتمعين. ظهر محي المشهداني على المسرح وهو يوضح خطوط المؤامرة المزعومة، واعتقل كل من ورد اسمه دون أن يسمح له بالكلام، وأصبح محي المشهداني الشاهد الوحيد في المؤامرة المزعومة، وإذا بالمقصلة تجز رؤوس هؤلاء الرفاق وغيرهم من القيادة كفاضل بدن والفريق الركن وليد محمود سيرت وبعضاً من أعضاء الفروع، وكانت بنادق الرفاق تصوب نحو صدور المتهمين، حيث ارتأى الرهط المسيطر أن يجري إعدامهم على أيدي الرفاق كي يلطخ أيديهم بدماء رفاقهم ويخلق الهلع والخوف في نفوسهم أسلوب جديد في تنفيذ أحكام الإعدام. أما مرتضى الحديثي وأخيه فقد سجنا وعذبا تعذيباً وحشياً حتى الموت ولم يكملا نصف مدة سجنهما، وقتل حوالي ثمانية عشر من كوادر الحزب بالتعذيب. طلع على الشعب العراقي الرئيس البكر يعلن استقالته، ولم يجد ما يبرر هذا

الموقف إلا حجة واحدة قدمها للجماهير بأنه غير قادر على زعامة الحزب والدولة، وهناك من يسيء لزعامته، وأخيراً استقال ومات في ظروف غامضة (رحمه الله).

استمرت طاحونة الإعدامات الجماعية تسحق البريء والمشكوك في ولأنه وآخرين ممن يحمل وجهة نظر لا تتطابق مع مسيرة الدم وقطع الأعناق.

أعدم الفريق الركن كامل ساجت حامل سيف القادسية وسيف أم المعارك، ولم ينجو من الإعدام رغم حصانة هذا التكريم -كما ورد في ميزات هذا الوسام-

التف حبل المشنقة حول عنق اللواء الركن الطيار محمد مظلوم أمر القاعدة. اندفع هذا الرجل لتطبيق مبادئ الحملة الإيمانية، بنى مسجداً في القاعدة وأخذ يؤم ضباطه مفاخرأ بإطاعته لأمر ربه، أخذه الموت من حيث لا يحتسب. ثارت عشيرته وشيع جثمانه باحتفال جماهيري من محبيه، ووري التراب.

(أرى رؤوساً أينعت فحان وقت قطافها وأني لها)، قالها الحجاج بن يوسف الثقفي. غرزت المقولة في عقلية قائد الحملة الإيمانية الحقد والعنف والرغبة في القتل والإعدامات والتصفية الجسدية بشكل لا يصدق عقل.

استعمل الفريق أول الركن علي حسن المجيد الأسلحة الكيماوية ضد الشعب الكردي المسلم والمسالم في حلبجة، فقتل الآلاف صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً بهذه العملية المأساوية كشفت نوايا الزمرة الدموية وفضحت قساوتهم وبرزت وحشيتهم عندما طبق السلاح الكيماوي على الشباب الكردي في الأنفال الأولى والثانية والثالثة.

وضحت صورة الإعدامات الجماعية للإنسانية بشكلها الصارخ، أدانها العالم أجمع، ولكن لا حول ولا قوة للشعب العربي والكردي حيث جثمت على صدره عشرات المؤسسات الأمنية وغيرها. نفذ الجيش العراقي مكرهاً تصفية القرى الكردية الحدودية، وأسكن أهلها في مجاميع سكنية من الطين، وبهذه العملية قضت القيادة على أكثر من أربعة آلاف قرية كردية، وأصبح الآلاف من الشعب الكردي عاطلون عن العمل يسكنون في بيوت طينية بشكل جماعي. شاهدت هذه المأسى عندما كنت في السليمانية، ورأيت العبث بخيرات القرى والدمار الاقتصادي.

التهمت مواقع الإعدامات العشرات من الضباط القيايين وغيرهم بسبب أو بدون سبب، المهم حز الرقاب، ودرجة الرؤوس إشباعاً لرغبة ونهم القيادة، وباتت القيادة تقف على جبل من الجماجم.

روى لي مدير الشرطة فاروق رشدي عندما كان موقوفاً في الأمن العامة عن الغرفة المجاورة لغرفته يسكنها مجموعة من الضباط العسكريين، جرى التحقيق معهم مرتين، لم تجد اللجنتان أي دليل على تأمرهم وبشروا بذلك من قبل لجنتي التحقيق، أمضى الضباط الموقوفون أكثر من سنة ونصف ولم يصدر قرار القيادة العليا أمراً بإطلاق سراحهم، وأخيراً أعدموا جميعاً. هذه واحدة من عشرات الإعدامات دون اتهام.

باتت شجرة الحزب خاوية من القيايين الخيرين، أعدم الدكتور رياض علي الحسين بعد أن أهين وضرب لمجرد إبداء رأيه، وهو البعثي القديم والوزير المبرز في عمله وإخلاصه ووفائه لوطنه ومهنته والمساهم في منظمة الصحة العالمية، خسر العراق والعالم العربي علماً من أعلام المعرفة، وخسر الحزب مناضلاً بطلاً.

تسلق المتسابقون من الانتهازيين والمصلحيين شجرة الحزب، بدأ التسابق في إبداء الخدمات للقيادة طمعاً في مكسب وظيفي أو حزبي حتى حقق الجميع مكاسب مالية دون وازع من ضمير وبلا حرص على مصالح الوطن.

جاءت الأخبار تحمل خبر غياب الفريق الركن ثابت سلطان، وبعد أيام وجد على مشرحة في الطب العدلي. هرعت عائلته واستلمت جثته ودفن في مثنواه الأخير. في أحد الاجتماعات سمح الرئيس للمؤتمرين بالتدخين، ظن ثابت سلطان أن مثل هذا الترخيص أمراً طبيعياً لأن اجتماع القادة العسكريين أخذ وقتاً طويلاً، فلا بأس من أن يدخن، وهو الوحيد الذي استجاب لهذا الطلب. وبعد أيام ظهر الرئيس على التلفاز يعلن للعراقيين بأن أحد القادة بحاجة لتطويعه وتدريبه، وفعلاً أمضى ثابت سلطان ستة أشهر يتدرب كجندي مبتدئ. ظهر الرئيس ثانية على التلفاز معلناً إطاعة القائد العسكري للأمر وأصبح جندياً ملتزماً فلا ضير من إعادته إلى رتبة عقيد بعد أن كان قائد فيلق برتبة فريق. ظل الشك مخيماً على نفسية الرئيس، وقد أوجس خيفة منه رغم الإطاعة الكاملة والالتزام الحذر، لكن أمر إحالته على التقاعد أراح قائد المسيرة.

جنى ثابت على أخيه العميد الركن ثامر وإذا هو يُتهم بعلاقته مع الدكتور راجي

التكريتي. سيق للتحقيق وحكمت عليه المحكمة بالإعدام وخفض إلى السجن المؤبد. شهد رفاق ثامر بحسن سيرته وأشادوا بذكائه وبعلمه العسكري، ورغم ذلك أودع السجن. لم يجد نفعاً حذر وحرص ثامر على وظيفته بعد مقتل أخيه، فالشك والظن ظل يلاحقه حتى الموت وهما من تكريت.

وعلى ذكر الدكتور راجي، فقد اتهم بمؤامرة هو ومجموعة من المحسوبين على تكريت، فقد أعدموا جميعاً بأساليب متعددة تقشعر لهولها الأجسام ودفنوا مع الآلاف من أمثالهم في ذمة التاريخ.

بدأت القيادة تسير بخطى حثيثة نحو المزيد من قطع الأعناق، حيث تلبس مرض الخوف عقلية ونفسية قائد المسيرة، كما عمق الخوف المرض في نفسية القيادة، فتم بناء القصور الخيالية الأسطورية، فزاد حذره وزادت قساوته ويطشه فعمت الفواجع الأسر العراقية كافة.

تفنن النظام في افتعال الأحداث والمؤامرات لتصفية منافسيه المبرزين سياسياً وعسكرياً كما افتعل ما يعزز الهلع والخوف في نفوس العراقيين كافة.

فعلت أسطورة (أبو طبر) الهلع والخوف في نفوس العراقيين قاطبة، هذه الأسطورة المستوردة من الاتحاد السوفيتي (سابقاً) لعبت دوراً مأساوياً في المجتمع العراقي، عم الخوف نفوس البغداديين، احتاطت كل عائلة بكل ما لديها من وسائل حماية اتقاءً لشر أبو طبر، حاك المواطنون الكثير الكثير من القصص، كل واحدة تحكي قصة خيالية عن كل جريمة ترتكب تحت هذا العنوان، غطت جرائم أبو طبر كل مناطق بغداد، وعم الخوف كل المواطنين حتى استنفذت المؤامرة كل أغراضها.

قصة أبو طبر المأساوية لا تختلف كثيراً عن القصص الأخرى من حيث الهدف، فقصة اعتقال وزير الدفاع حماد شهاب وسعدون غيدان عضو مجلس قيادة الثورة فضحت نوايا التأمير. دعا مدير الأمن العام ناظم كزار وزير الدفاع ووزير الداخلية لمشاهدة ما توصل إليه ناظم كزار من وسائل التعذيب والإجرام. صدق المدعوون هذه الدعوة، وحضر كل واحد على انفراد، واقتيد إلى المختبر الكيماوي (المركز الجديد) التابع لمديرية الأمن العامة. يترك كل مدعو سيارته وحرسه على بعد مسافة بحجة سرية المكان وهناك يعتقل في زنزانة تحت الأرض. عاد الرئيس البكر من الخارج

حيث كان في زيارة إلى الاتحاد السوفيتي (سابقاً). تفقد المستقبلين فلم يجد الوزيرين عضوي مجلس قيادة الثورة، وبعد التدقيق والتحقيق علم بما جرى لهما وكشفت برقية ناظم كزار أبعاد المؤامرة من خلال الطلبات الواردة في البرقية. أمر الرئيس البكر وحدة عسكرية لمطاردته وإلقاء القبض عليه.

علم ناظم كزار برد فعل الرئيس البكر، فاقتاد المعتقلين وأطلق النار عليهما فقتل حماد شهاب وزير الدفاع وأصيب وزير الداخلية بطلق ناروي سقط على الأرض مفتعلاً الموت، وقد روى لي قصته كاملة عندما زرته في وزارة الداخلية.

ختمت المؤامرة فصولها بإلقاء القبض على ناظم كزار وحوكم من قبل لجنة ترأسها سعدون شاكر وأعدم ورفيقه في الإجرام محمد فاضل عضو القيادة القطرية الذي وشى بالرفيق عبدالخالق السامرائي قائلاً له: أن هناك انقلاب يقوم به الحزب (حزب البعث) وسوف تسند رئاسة الجمهورية لك. استغرب عبدالخالق هذه القصة وفوجئ بالأمر، ولكن خطة المؤامرة حيكت بهذه الصيغة، وعلى هذا الأساس اتهم الرفيق عبدالخالق بضلوعه بالمؤامرة، وحكم عليه بالإعدام وخفضت عقوبته وأخيراً أطلق سراحه، لكن أعدم أخيراً ولم ينجو من الموت رغم براعته.

مطابح التآمر أخذت تقدم طبخات كاملة ومدروسة بعناية وتخرج إلى حيز التنفيذ، يتناولها الزبانية بحماس وحرص شديدين، وكل واحد منهم يبدع بما أسند إليه من دور حسب إرادة المخرج، وهكذا تقطع ألسنة الرفاق ويعم أجهزة الحزب الرعب والسكوت. قصص غريبة أخرجت للناس والكل يسمع ولا يصدق ولا يتكلم.

هرم الجماجم أخذ بالارتفاع، تتربع على قمته زمرة الإجرام، البطل القادم من الغيب أوكلت العناية الإلهية مهمة القيادة له، والويل والثبور لمن يعترض أو يحتج، فالسجون وأعمدة المشانق ووسائل التعذيب والجواسيس والمتطوعين مهياً لجز الرقاب وجز الرؤوس. تعددت دوائر الأمن، وقد زادت على اثني عشرة مؤسسة، ولكل مؤسسة فيها من وسائل التعذيب والجلوزة ما لا يصدق عقل ولا يقبله ضمير، وكل مؤسسة تراقب بعضها البعض.

أصبح النظام بعيداً عن الحزب ومبادئه، تغذى بثقافة معينة تصب في خدمة النظام وأزلامه، هذه الزمرة من الانتهازيين ومن عديمي الثقافة والمعرفة هما الاستغلال

بأبشع صورته. فالدكتاتورية نظام له أصوله وقوانينه يهدف خدمة الشعب عن طريق الحزب الواحد بقيادة زعيم مبرز.

لم يعد هرم الجماجم هرماً، بل أصبح جبلاً بعد نهاية الحرب مع إيران، فمئات الآلاف من القتلى، ومثلهم من الجرحى والمفقودين والأسرى أضيفوا إلى هذا الحشد من الرؤوس.

انتهت حرب إيران بخسائر فادحة من الأرواح والمال والحدود الجغرافية الوطنية. تنازل العراق عن أكثر من نصف شط العرب معترفاً بخط التالوك (المياه العميقة للإبحار) وهو الخط الذي يقترب من السواحل العراقية بسبب أراضيهِ الرسوبية بعكس الأراضي الإيرانية فهي أكثر صلابة وأكثر ارتفاعاً، أصبح شط العرب مشاعاً بين العراق وإيران تمخر فيه البواخر الأجنبية بحرية وبدون أن ترفع العلم العراقي كما كان معمولاً به أيام الحكومات السابقة لأنه نهراً عراقياً.

لم يكتف النظام بهذه الخسائر، بل زاد عليها بتهريب ما يقارب مائة وأربعون طائرة عسكرية ومدنية إلى إيران، البلد الذي خاض معه حرباً دامت ثماني سنوات، ومع هذا يعلن بكل جرأة بأنه منتصر (يا محلى النصر بعون الله). كانت هدية الطائرات لإيران جزءاً من تسوية لإسكاتهم.

اجتاحت القوات العراقية الكويت بسهولة ويسر، واستباحت كل شيء، وسرقت كل شيء، وحطمت كل ما هو حضاري وإنساني، وفتكت بكل شاب، وأسر المئات منهم، لم يكتف النظام البائس بزج قواته العسكرية بل أمدها بالآلاف من الجيش الشعبي، بكل من هب ودب، يسرقون ويعتدون ويحرقون ويكسرون بوحشية كل ما هو جميل، خرق ميثاق الجامعة العربية وميثاق الأمم المتحدة، وبهذه العملية تمزق التضامن العربي، ودفنت الأخوة العربية، انفرط عقد الأمة، هذا ما أفرح أعداء العرب ومكثهم من تدمير الشعب الفلسطيني، حتى أصبح الوضع العربي بحالة من التمزق والضعف لدرجة يرثى لها.

ساوم عزت الدوري الإيرانيين وبدأ النفط يباع بثمن بخس ويشترىه إيرانيون يتواجدون في البصرة من أولئك الذين أنعم عليهم السلطان بفواتير تبلغ ملايين البراميل، هذه التسوية أسكتت الحكومة الإيرانية مادام العراق يدفع تعويضات

الحرب بالمساومة بصورة سرية، المهم يبقى النظام مترفاً على مدة الحكم. أضافت حرب الخليج الثانية (حرب الكويت) عشرات الآلاف من الضحايا وخرج الجيش العراقي يجر أذيال الهزيمة وانتهت بوثيقة خيمة صفوان. وقع هاشم سلطان شروط الإذلال دون قيد وبلا شرط. وثيقة الإذلال والخزي والعار طبعت النظام العراقي وجللته بالعار إلى يوم يبعثون.

تبجح القائد بأنه خرج من الكويت منتصراً وينشد نشيده التقليدي (يا محلى النصر بعون الله)، الويل والثبور للشعب العراقي المسلم والمسلم، سرقت أمواله وثرواته، واستبيح شرفه، وأهينت كرامته، وجوقه الحكم تصفق لقائدهم الأوحده. لقد ضاع مجد العراق وذهب زهوه.

أعلن صدام حسين بأنه استلم أربعين مليار دولار عندما تولى رئاسة النظام، وخرج وخزينة الدولة مدانة بأربعمائة مليار دولار، مضافاً إليها المبالغ الطائلة من مبيعات النفط لمدة تزيد على الثلاثين سنة، وزاد عليها من خزينة السعودية سبعة وعشرين مليار دولار كما أعلن ذلك الملك فهد. ولم تنج خزينة الكويت من الابتزاز حتى ختمها بعشرة مليارات دولار تفاوضاً بواسطة السعودية. هذا هو النظام العراقي الذي يرفع شعار الوحدة العربية وزعيم الحملة الإيمانية. يطل صدام حسين على الشعب العراقي من نافذة التلفاز يومياً. يأخذ برنامجه ساعات من الحديث المعاد.

قتل أب ابنه، فاتصل الأب بالرئيس صدام وأخبره بمقتل ابنه بسبب عدم التحاق ابنه بوحده العسكرية، بارك الرئيس شهامة الأب، ولعن الابن. طل الرئيس من نافذته المحببة (التلفاز) ويجانبه الأب القاتل، أشاد الرئيس بشهامة الأب، وطلب من الآباء أن يسلكوا سلوك الأب القاتل، أنعم صدام بوسام الرافدين من الدرجة الثانية مدني لعظمة العمل الذي قام به الأب.

أخذ الإعلام العربي والعالمي الخبر هازلاً بإجراء الرئيس، انهالت الصحف الأجنبية بالنقد الساخر والتهكم الشديد، قضى الرئيس وأفتى دون تحقيق وبلا محاكمة، وبعد ذلك ظهرت الحقيقة. كان الأب على خصومة مع ابنه فتنازعا، أدى الشجار إلى استعمال الأب سلاحه فقتل ابنه، أراد الأب أن يتخلص من جريمته هذه، لذلك لجأ

إلى الرئيس زاعماً حرصه على الوطن فأخذته الشهامة فقتل ابنه. افتضح أمر الأب أخيراً، وعرف الجميع الحقيقة.

لم تكن أحكام الرئيس على شعبه المفجوع على واحدة أو اثنين، بل على مئات من الأحداث. وعلى سبيل المثال، قال الرئيس أن لديه القدرة على قراءة الشخص من عينيه، وبهذه الطريقة يكتشف نفسيتهم، قال: لو خلع أمين عام الجامعة العربية نظارته -قاصداً الشاذلي القليبي- لتمكن من قراءة نفسيته. سمع الرجل الخطاب، وفي المرة التالية خلع الرجل نظارته عند الرئيس صدام، وسمح للرئيس أن يقرأ نفسيته، ولكن الصمت أنقذ الموقف.

عشرات، بل مئات من الأحاديث لقائد المسيرة تحكى عن عظمتة وذكائه القيادي، وعلى ذكر القرارات العاجلة، بل الحاسمة والخطيرة، شنق أسماعنا التلفاز بحديث الرئيس المساوي عندما أعلن قائلاً: اتصلت بوزير الداخلية (أخيه وطبان) متسائلاً عن التجار الذين نفذ بحقهم حكم الإعدام، فأجابه الوزير بأنه أعدم اثنين وثلاثين تاجراً ومن كبارهم. رد الرئيس عليه وأمر بوقف مسيرة الإعدامات، وهذا العدد يكفي لردع الآخرين فأطلق سراح الباقيين. نحر الرئيس مجموعة من التجار بسكين العجالة والحماقة دون تحقيق وبلا محاكمة. إعدام هذا العدد من التجار في ساحة عامة وعلى مرأى من المتفرجين زرع الرعب والخوف في نفوس العراقيين.

كثير من القرارات الفردية أصدرتها القيادة دون معرفة العواقب وما يترتب عليها من نتائج، أصدر قراراً بقطع أذن كل من يتخلف عن أداء الخدمة العسكرية أو يهرب منها، وتكوى جباههم بموضع بارز ليكون عبرة لغيره وإسقاطه اجتماعياً أثارت تائراً المنظمات الإنسانية الدولية، وشجب الأمين العام للأمم المتحدة هذا الإجراء، وطالب بإيقافه، وبعد جهود عربية ودولية مضيئة أوقف تنفيذ الإجراءات. تأملت القرار وقلت في نفسي: نحن في نهاية القرن العشرين، قرن صعود الإنسان إلى القمر، ونفذ من أقطار الأرض وصولاً إلى كواكب الكون، وقرارات الرئيس تحط من كرامة الإنسان لدرجة الإذلال، حقاً إنها مفارقة عجيبة. جدع الأنوف، وقطع الأذان، وكوي الجباه، سياسة العصر الجديد.

في واحدة من ندوات التلفزة قال الرئيس استخفافاً بعلومهم: (شنو يعني القانون)

هو سطر أو سطرين، هات ورقة وقلم وساكتب لكم قانون. بهذه السهولة وبهذا الرأي تسن القوانين برأي الرئيس، نسي أن أخطر مهمة وأدقها هو التشريع، لما له من آثار اجتماعية ونفسية وغير ذلك، لذا يجد المشرع صعوبة بالغة عند سن القانون واضعاً في حساباته آثاره على الفرد والمجتمع.

استمرت مسيرة غسل الأدمغة والتجهيل دون معارضة وبلا منازع، وجد المنافقون من الانتهازيين والمعادين للأمة وقيمها فرصة ذهبية ليحققوا مآربهم في الوجاهة والغنى، أخذ هذا النفر يكيل المديح لأقوال الرئيس، وزادوا عليه تحليلاً رخيصاً ودجلاً مملأً، وظل الشعب يدفع ثمناً باهظاً من دمه وماله.

ظلت القيادة متربعة على جبل من الجماجم، وظل يبحث عن رؤوس في أروقة التعليم ومعسكرات الجيش ودروب المجتمع ليصعد خطوة أعلى، وكلما وقفت حمامات الدم يشعر بالخوف من انهيار جبل الظلم وانكشاف ليل الصمت. تفتحت قريحة القيادة، فأمر بتنظيف السجون، قاد ابنه الصغير (قصي) قيادة الحملة، بدأت رؤوس المساجين من أبناء الشعب العراقي تتطاير في غرف الإعدام وفي ساحات السجون زرافات زرافات، حتى تم تنفيذ الأمر بدقة وحزم.

تطاوت قمة جبل الجماجم حتى طالت رؤوس أقاربه، وكانت فرصته الثمينة في اصطلياد رؤوس من خرج عن طاعته ومن أهل بيته، أدام الاتصال مع (حسين كامل) النائب عريف سابقاً والفريق الأول الركن أجلاً وزوج ابنته (رغد). نجح القائد في اصطلياده بعد أن أصدر عفواً منه وبقرار مجلس قيادة الثورة تمهيداً لعودته. عاد الفريق أول الركن البائس واستقبله على الحدود (عدي) خصمه الأول ومنافس، عاد هذا الطاغوت الصغير (حسين كامل) بعد أن سيطر على الإنتاج الصناعي واحتكر أقاربه الإنتاج حتى بلغت الأسعار أضعاف أضعاف قيمتها التسعيرية. استغرب كثير من المراقبين عودته على اعتبار أن حسين كامل أدرى بعقلية صدام حسين وأعرف بجرائمه، نسي المراقبون عقلية حسين كامل المحدودة وشخصيته المهزوزة. عاد وكان شيئاً لم يكن، وتناسى تصريحاته عندما وصل الأردن إذ اتهم صدام بمقتل عدنان خيرالله وسرقة أموال الشعب وهجومه على إخوته. أخيراً وقعت الواقعة وقتل حسين كامل وأخيه صدام كامل وأبيهما وآخرين من العائلة، قتلهم العم البطل علي حسن

المجيد وشهّر بهم وداس رؤوسهم بحذائه.

أراد صدام حسين أن يداوي جروح ابنتيه رغد وورنا، فاعتبر حسين كامل وأخيه شهداء الغضب ومنح كل منهما مليار دينار، ولكن سبق السيف العذل، وظلت رغد وأختها تندبان حظيهما رغم الغنى والمجوهرات.

كل المآسي التي دفع الشعب العراقي والشعب العربي ثمنها كانت بسبب السياسة التي رسمها ونفذها قائد الحملة الإيمانية وزبائيته، ولكن الجروح البليغة والدمار الكاسح ستظل من النوادر النادرة يتناقل مفرداتها الناس جيلاً عن جيل.

ظل السؤال الكبير والمهم في ذهني يبحث عن جواب، لمن بنى صدام مجاميع القصور الخيالية، بل الخرافية وارتضى أن يسكن في حفرة تحت الأرض؟ سقط النظام، وستظل الحفرة باقية على مدى التاريخ تحكي قصة تاريخية مفزعة.

هذا غيظ من فيض، ففي ذاكرتي من القصص ما تذهل القارئ ويشيب لهولها شعر الأطفال، أتمنى أن أكتب كل ما رأيته وما سمعته، ففي ذاكرتي خزين من قصص الموت والتعذيب والنهب والتهريب، والله من وراء القصد.

هنا أريد أن أضع خطأ فاصلاً بين النظام وحزب البعث العربي الاشتراكي، إن الأعمال المهينة والإجراءات التعسفية كانت من صنع النظام وليس للحزب ناقة فيها ولا جمل.

إن حزب البعث عظيم بمبادئه وطروحاته وأهدافه ونضاله وتاريخه، إنه بطل الوحدة والحرية والاشتراكية، وحدة الأمة أعظم عمل نضالي عربي، سبقتنا أمم كثيرة بهذا الاتجاه الوحدوي، فوحدة إيطاليا ووحدة ألمانيا ووحدة أمريكا وغيرها من الوحدات العالمية بنت أمجاد لهذه الأمم العظيمة، فلا ضير من بناء مجد الأمة العربية بوحدتها وطموحاتها وتطلعاتها كي نسهم بشرف نضالي في مد الحضارة الإنسانية مما يسعد الإنسان أينما كان ويبعد عنها شبح الخوف من المرض والجوع والجهل والاستغلال والاستعباد.

أما الاشتراكي، وهو الهدف الآخر من أهداف الحزب، فهو لعمري مشيت على دربها كثير من الأمم لتحقيق العدالة الاجتماعية ورفع الظلم عن الإنسان.

بشر الحزب بالحرية، وهي هدف سامٍ من أهدافه الثلاثة، ولا أشك أن أي إنسان سوي أينما كان يقف ضد الحرية، إلا أولئك المجانين من محبي التسلط والتحكم بمصائر الشعوب، وهم من سقط المتاع.

فالحرية تفتح الأبواب أمام الأفكار البناءة الخلاقة لتدعيم الحضارة الإنسانية وتعزيز مواقعها في أعلى مراتب القيم الإنسانية. فشعار: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، عنوان حزب البعث، وهدف سامٍ من أهدافه، وهو شرف أمة العرب وعزّها وفخرها، والتاريخ يشهد للأمة بهذه الحقيقة، فالتراث العربي الإسلامي وأمجاده شاخصة لكل مؤرخ من الشرق إلى الغرب، شواهد حضارية شامخة في الهند واندونيسيا وماليزيا والباكستان وأفغانستان وإيران مروراً بالوطن العربي حتى بلاد الأندلس، لزال قصر الحمراء وأمجاد غرناطة باقية تحكي قصة الأمم، فبعد أمجاد العرب ليس في البناء المعماري بل القيم الإنسانية والأخلاقية لشعوب كانت ترزخ تحت أكوام من الجهل والمرض والضياع والجوع، هذه أمة العرب، لها رسالة إنسانية خالدة رفعت رؤوس الأمم إلى المجد والحضارة.

أنا لست قادراً على سرد كل ما جاء به العرب من أمجاد وتراث، فهي لعمري لا تعد ولا تحصى، فالتاريخ كفيل بحفظ هذا الكم الهائل من القيم والبناء، وفعلاً كانت أعلام مشرفة ترفرف على الكرة الأرضية بفخر واعتزاز، هؤلاء هم العرب أولي أمجاد ومفاخر رغم أنف الأعداء ورغم تحدياتهم البائسة البالية.

وفي خاتمة المطاف، أوجه خطابي لرفاقي، رفاق البعث، أن لا يخشوا النقد البناء، فالنقد الذاتي هدف من أهداف الحزب وسلوك من سلوكه ومن إرادته، فالنقد البناء الذي لا يرحم ولا يمالى هو السبيل لحماية الحزب من الانحراف ويرفع عنه شر الخصوم وما أكثرهم سواء داخل الحزب ومن خارجه، فهم خصوم الحزب بلا شك، فلا ضير من وضع النقاط على الحروف بجرأة وشهامة وشفافية فتكون للحزب انطلاقة جديدة تعيد له الحياة والقوة والمجد، فنضال الحزب وتاريخه يشرف الوطن العربي وبأهدافه ونضاله ستنتصر الأمة بعون الله.

أما أولئك الذين يرفعون شعار اجتثاث البعث هم أعداء الوحدة العربية بلا أدنى شك وهم أعداء الحرية والاشتراكية وهم أعداء العراق والعرب أولاً وآخرأ، لقد بان

عورتهم وانكشفت سواتهم واتضح خزيهم يجللهم العار، عار الاصطفاف مع العدو وتسهيل مهمة احتلال العراق وتدمير حضارته وتراثه وشعبه وأمجاده، حتى العلم العراقي لم ينج من حقدهم، فقد رفعوا نجومه الثلاثة المؤشرة على الوحدة بين سوريا ومصر والعراق، كشفوا بفعلهم هذا عن حقدهم الدفين للأمة العربية وتنكراً لحضارتها وأمجادها وللأسف الشديد.

ليس عندي ما أقوله لرفاقي إلا الاعتصام بحبل الحزب وتراثه وتاريخه والانفصام عن النظام الذي اتشح ببيافطته ولم يحقق من أهدافه إلا الدمار وتشويه مسيرته والنيل من سمعته ونضاله، فالحزب أبعد ما يكون من اجتياح دولة عربية أخرى بقوة السلاح ونهب خيراته وماله وقتل أبنائه، هذه الأعمال لا تشرف الحزب ولا يرضاه ضمير، بل كانت الأعمال لا تشرف الحزب ولا يرضاه ضمير، بل كانت الأعمال خدمة واضحة تصب في صالح أعداء الأمة.

فعدراً إن شط قلمي وتجرات على النقد وسرد المظالم بقوة قلب وبإيمان مطلق مفعم بالحب والود لرفاقي الخيرين من البعثيين وغيرهم.

اللهم اشهد أنني قد وفيت، وأرضيت ضميري ووجداني بحياد تام بعيداً عن الحقد والغيرة والحسد فهم من نفايات السلوك.

أرجو أن لا يضير قولتي أحداً، فأني والله حسن القصد والغاية والهدف وأشهد الله على كل حرف كتبتة.

الصور





الفريق أحمد أمين



السفير أحمد أمين



الفريق أحمد أمين بصحبة الفريق أحمد حسن البكر رئيس الوزراء ١٩٦٣



حفل تخرج كلية الشرطة برعاية الرئيس عبدالسلام محمد عارف ١٩٦٣/٣/٢٤



الفريق أحمد أمين أثناء مراسم استقبال أمير الكويت في بغداد ويظهر الرئيس البكر في أقصى اليمين



الفريق أحمد أمين في البصرة والى يمينه الفريق حردان التكريتي



الملك الأردني الحسين بن طلال يستقبل السفير أحمد أمين



الملك الأردني الحسين بن طلال يستقبل الوزير عبدالله الخضير في ١٩٧١/٧/٦ لتسليم رسالة البكر
ويظهر معه في الصورة السفير أحمد أمين



الرئيس اليوغسلافي تيتو لدى إستقباله السفير أحمد أمين



حفلة السفارة العراقية في عمان عام ١٩٧٠



السفير أحمد أمين مع رئيس الوزراء الأردني بهجت التلهوني والسفير السوري في مقر السفارة
السوفيتية في عمان بتاريخ ١٩٧٠/٤/٢٢



السفير أحمد أمين مع وزير المالية أحمد اللوزي في عمان ١٩٧٠/٥/٤



السفير أحمد أمين مع وزير الداخلية الأردني نجيب أرشيدات ١٩٧٠/٥/٤



السفير أحمد أمين مع رئيس الوزراء الأردني السيد بهجت التلهوني بمناسبة احتفال السفارة العراقية بأعياد تموز ١٩٧٠/٧/١٦



السفير أحمد أمين مع وزير خارجية الأردن السيد أنطوان عطا الله في عمان
١٩٧٠/٣/١٦



حفلة السفارة الأردنية في بغداد



مع رئيس جمعية الصداقة العراقية -الألمانية بمناسبة منحه وسام الجمعية الذهبي



تبادل أوراق عقد الصداقة العراقية - الألمانية مع رئيس جمعية الصداقة في العالم



تسلم وسام النجمة اليوغسلافي



نحن الحسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية

لقد برز لكفاح الجهاد الذي لا ينفك بها سعاده السيد احمد أمين
فقد سخرناه في مساهمة الاستقلال من الصراخ للعدو والأمرنا بما جاهدنا
للهمة والوفاء في ذلكنا إننا بنينا من

لهذا نحن ونحن السمان في حجاب في اليوم الذي ولا العيون من شهر ربيع الثاني سنة
الله والأمانة فلا عهد ولا عهد في حجاب الله الذي اليوم الذي سخرنا من الله
عز وجل سنة الله والسعائفة فلا عهد ولا عهد في حجاب سنة

بأمر الملك الحسين بن طلال

الملك

رئيس الوزراء الحسين بن طلال

مرسوم منح السفير أحمد أمين وسام الأستقلال الأردني من الدرجة الأولى

معالي السيد الزبير

ايها الزملاء

بقيض من الاحاسيس ونشوة الرضى . . . من قدسية النضال وشرف القتال . . . من الوفاء
للامة واستجابة لنداء الوطن . . . من جذوة الامل . . . امل تحرير اولى القبليين
وثاليج الحرمين . . . بهذه المشاعر الملهبة والروح الوثابة . . . من بغداد البلد العربي
الناهض قلبه بالاخلاق والقداء . . . من شطآنته يبراهمة ونهيكه واهله . . . حملت بين
جوانحي امانى الملايين من ابنائهم وهي تستصرخ الهم العربية والضمير الانساني . . . لقهـر
الاحتلال ودحر قوى الشر .

هذا ما اطرب سمعي وابهج نفسي وانعش املني . . . فقد تبرعت في الاماني . . . ناستطارت
محجلات الذكريات . . . وروى الشباب . . . واحلام الكبر . . . وحسبي قد اصطدت مجنحات
الاحاسيس وشرقات الخيال فعدت عليها حنوا واعتزازا .

هكذا عشت ايامي بعمان وهكذا عاشت عمان بين حنايا الضلوع . . . وطويت اكثر من عام وانا
ارقب لحظات القتال ونواقص الحرب . . . وظلت اضاقر الانتظار ضاربة في الاعماق . . . وانياب
الصبر تشد على النواجذ . . . واليوم تركت خلقي ضخامة الامانة وجسامة المسؤولية بافئاق
اخواني . . . خلقت الرجال يواجهون الموت ذليلا عن حياض الوطن . . . وهم يقدمون على
مذابح الشرف والكرامة دماءهم الطاهرة . . . انطلقا فلم يبق لي الا الدعاء للامة ولكم بالنصر
والظفر .

ايها الزملاء تلوك الامة العربية بضاعة الذل ومرارة الهوان منذ ان سقطت المقدسات بيد
الظلم والخراب وكلما استنافت الامة من رقدتها تكالبت عليها قوى الشر والدمار . . . فلا بد
للبل من آخر ولا بد ان يرفرف علم النصر فوق روابينا الخضراء . . . وسيكسب العرب شرف المجد
والسودك يوم تدك الجيوبن وكان المصعب والاضطهاد . . . يوم يتشابك سلاح الاخوة ويمتد
دم التضحية على التراب الطهور . . . فمرحبا بللمعة الرصاص واهلا باحتدام القتال .

ايها الزملاء لم اجد من كلمات الشوق والوفاء ما اقنوه به الا وازدحت بذهني ظفر خواطر
الالم والاسى . . . فمن زحمة الذكريات ارجي لكم تحياتي العطرة وسلامي الحار . . . متشيا لكم
النصر والنجاح . . . فسيبرئكم الشاقة على ضخامتها تحمل نيل القداء وشرف النضال . . . وهو
لعمري اقدس المقدسات واكرم التضحيات واشرف المنجزات .

عفوا لقد مزجت لكم الشوق بالاسى والود بالالم والحب بالمرارة فعذرا ان شط قلبي وجنح
خيالي فالمصيبة اعظم مما نتصور واكبر مما تكابد . . . فني كآسي تعبيري عن خوالج الحب وشرارة

الاخلاص... وان خالطتها الصرخة الغاضبة واللوعة المشهوية... فشكرا لكم جميعا
حيث فرستم نبي من الصوق احزه بين الود اعمقه وبين الاحترام اعظمه... وكلني لسان شكركم
وتناء فقد لست العين من الجميع بريح اخوية عقلية متفحمة... فقبلوا تحياتي العطرة
ايها الاخوان والسلام عليكم...
١٩٧١/٦/٢٤

الكلمة التي ألقاها السفير أحمد أمين خلال الحفل التوديعي الذي أقيم في عمان بمناسبة إنتهاء
مهام عمله ١٩٧١/٦/٢٤

DEUTSCH-ARABISCHE GESELLSCHAFT
IN DER DEUTSCHEN DEMOKRATISCHEN REPUBLIK
DER PRÄSIDENT

In Würdigung
des verdienstvollen Wirkens
für die Festigung der Freundschaft
zwischen den arabischen Völkern und der
Bevölkerung der Deutschen Demokratischen Republik
wird

Herr Ahmed Amin

auf Beschluß des Präsidiums der
Deutsch-Arabischen Gesellschaft
zum

EHRENMITGLIED
der Deutsch-Arabischen Gesellschaft
in der Deutschen Demokratischen Republik
ernannt

Berlin, den 7.10.1969

Paul Scholz
Paul Scholz

الوسام الذهبي الذي منحه جمعية الصداقة العراقية- الألمانية

IN WÜRDIGUNG HERVORRAGENDER VERDIENSTE UND
LEISTUNGEN FÜR DIE ENTWICKLUNG UND VERTIEFUNG
FREUNDSCHAFTLICHER BEZIEHUNGEN ZWISCHEN DEN
VÖLKERN VERLEIHT DIE LIGA FÜR VÖLKERFREUNDSCHAFT
DER DEUTSCHEN DEMOKRATISCHEN REPUBLIK

Herrn Ahmed Amin

DIE
EHRENNADEL
FÜR VERDIENSTE UM DIE
FREUNDSCHAFT
DER VÖLKER
IN GOLD

PRÄSIDIUM DER LIGA FÜR VÖLKERFREUNDSCHAFT DER
DEUTSCHEN DEMOKRATISCHEN REPUBLIK

i. v. Schmidt
PRÄSIDENT

الوسام الذهبي الذي منحه جمعية الصداقة العراقية- الألمانية



السجل الذهبي

الدبلوماسي العربي العراقي الكبير الذي رفع شأن الدبلوماسية العراقية إلى ذروة المجد
حضرة صاحب المعالي -

السيد احمد بك امين محمود المحترم

- سفير الجمهورية العراقية في عمان عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية الشقيقة -
الدبلوماسي العربي العراقي الشجاع الذي شهدت مجتكمته السياسية والدبلوماسية
الأوساط الاردنية العربية الرسمية والشعبية والأدبية والصحفية

بعدما شغرت رئاسة البعثة الدبلوماسية العراقية في عمان : عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية ،
رأت الحكومة العراقية الجلية إن لا مندوحة لها إلا بتعيين أحد الافراد العاقرة من رجالات
الدبلوماسية العراقية في عمان نظراً لما لهذه العاصمة العربية في هذا الوقت العسير من مهمات ومشاكل
عامة شغلت جميع ساسة الدول العربية ، منها حربها مع إسرائيل وغيرها من الشؤون السياسية
الملحة ، لذلك فقد كان لتعيين السيد احمد بك محمود المحترم على رأس سفارة الجمهورية العراقية في
عمان أثر كبير في هذا المجال . . ولا غرو ، فإن الدبلوماسية العراقية العليا تظهر بأجلى مظهرها
عندما يهدد بتشيها إلى رجالات من نظام ، السياسة والأدب والعلم والاجتهاد ، وقد كان لمعالي السيد
أحمد بك أمين محمود المحترم سفير الجمهورية العراقية في عمان عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية الخبرة
الراسخة في هذا المجال حيث رأينا سياسة بلاده الشقيقة بقدرونه حتى فدره وبعطون شأنه وبيشرون له
مناصب ومهمات سياسية رفيعة . . وبالطريقة فقد رأينا نجم هذا الدبلوماسي الكبير يلمع في سماء
الدبلوماسية العربية والعالمية ويعطي سياسة بلاده رونقاً وأهمية كبرى جعلت في الرعي الأول بين
رجال الدبلوماسية العراقية في الجمهورية العراقية ، وخاصة في هذا العهد المجيد عهد البعث العراقي
التقدمي الحاد التي انبثقت عنه ثورة ١٧ تموز سنة ١٩٦٨ التي برزت للعالم العربي عامة والأجنبي
خاصة أعمال رجال السياسة والدبلوماسية العراقية في مختلف المجالات .

ويجد ، فانا إذا ما أخصنا القول عن سيرة حياة السفير الفاضل فباستطلاعنا للتوربه إنه ، بلا
جدال ، من الرجال الوطنيين الخالصين الذين كلفوا طويلاً وجاهدوا جهاد الأبطال في
في سبيل إعلاء كلمة بلاده والاشتراك في دعم سياستها على قوائم متبته ، بل لا نبالغ في القول إنه
سيد من سادات الساسة العراقيين الذين يشار إليهم بالبنان .

لقد عرفه الشعب العراقي الشقيق منذ سنوات عديدة رجلاً عبقرياً فذاً ووطنياً حاذقاً من خيرة
أبناء مجتمعه البررة الصالحين . . عرفه مواطناً شريفاً ودبلوماسياً قوياً يعمل بشفان وإخلاص في سبيل

يتبع

متخلفة بلاده ، وكم رأه مرابطوه يقارع الاستعمار والمستعمرين والرجعية والحزنة وعملاء الاستعمار والصهيونية ويفضح أساليبهم ودسائسهم ، وعرفه كذلك ساسة الاردن والعراق وكافة الاقليات العربية بأنه من الرجال العرب الذين يبرزوا في التاريخ العربي الحديث فكانوا خير معوان لبلادهم وكل البلاد العربية الشقيقة .

واليوم ، نجد معاليه - بصفته حقيراً لبلاده في العاصمة الاردنية الشقيقة - يعمل بجميع الطرق الدبلوماسية التعاونية في سبيل توثيق الروابط الاخوية بين الدولتين الشقيقتين رغم ما اعتراها من بعض القنور في الماضي القريب .

لقد احتل هذا النهج السياسي العراقي الساطع مكانته السامية الكبرى لدى الامة العربية العليا ولدى السلكين الدبلوماسي العربي والاجنبي في المملكة الاردنية الهاشمية ، وكم سعاد ورأيانه ينادي بالاخوة والتعاون بين الدول العربية وجمع صفوفها وكتلتها أمام مكانة الاستعمار والصهيونية العالمية للعنينة ، ولفد دافع معاليه عن القضية الفلسطينية وطالب بطلد إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي اعتدت عليها ظلاماً وعدواناً . فلم تغفل بعض الأوساط الاجنبية العادلة أن تأخذ مواقف تلك الشريفة بعين الاعتبار .

ولا ننسى ان معاليه هو عدو الصهيونية رقم واحد .

وبكلمة ، فقد برهن معالي السفير الفاضل السيد أحمد بك أمين محمود المحترم طرالد حياة العالمية من ذكاه متفوق ومرونة وحسنة سياسية بارزة . ولقد كان كل من صاحب الفضل السيد الرئيس الميهم أحمد حسن البكر المعظم ووزير خارجيته المحترم على حق عندما اختلفوا معاليه لتمثيل بلاده في عمان عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية ، ولا غرو فقد رأينا العلاقات الاردنية - العراقية تقبل إلى التحسن بعد إن اعتراهما شيء من القنور خلال الأحداث الاردنية الاخيرة .

لقد شهد السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي في المملكة الاردنية الهاشمية ووزير خارجيتها بعنصرية ووطنية وديبلوماسية معالي السفير النشط السيد أحمد بك أمين محمود المحترم ، ولم يثن عن التصريح بقوله إنه جد فخور بأن يكون ممثلاً لبلاده وسفيراً من خيرة رجالالات ساسة العراق الذي شعب عربي شقيق أجمعت الكلمة على حبه وتعارفه في جميع المجالات . ولقد رأينا الساسة الاردنيين يسلمون مهمات هذا الدبلوماسي الكبير وشاؤون برأسه لعقد الاتفاقات الاقتصادية والتجارية والمالية والثغافية خاصة بعد الملتزعات الداخلية الاخيرة التي أصابت البلاد ، ولا غرو فكل من عوامل الاخوة والعروبة والدين والدفاع المشترك من الاسباب التي لا يجب أن تتبدل أي فاصل بين الدولتين الشقيقتين ، ولا شك إن القوات العسكرية العراقية المرابطة في الجهة الشرقية على حدود العدو المشترك : إسرائيل ، هي القوة الضاربة التي تنزل بالعدو الاسرائيلي بضرباتها

الربة التي لا ينساها مدى العمر ، ولا ريب إن القوات العراقية مرتبطة مباشرة بالسفارة العراقية
وإن معالي السفير هو من أكبر القواد الذي يناهز بانزال الضربات بإسرائيل لقمها ودحرها باذت
الله العلي القدير .

وبكلمة ، فانه من دواعي الفخر القول إن معالي السيد أحمد بك أمين محمد المحترم كممثل
لحكومة صاحب الفخامة السيد الرئيس المييب أحمد بك حسن البكر المعظم هو من أكبر القادة
السياسين في حزب البعث العراقي التقدمي العظيم - حفظة الله وأيد حكمه - وخير رجل
دبلوماسية يمكن أن يزدي وسالة أخوية بين بلدين عرييين . فحس أن ترى العلاقات العراقية -
الأردنية تعود في عمده إلى صفوها الكامل بعد إن اعترافا بعض الجلود ..

إن معاليه من أخلص رجالات العرب فعاوناً وصدقاً وتزاهة .

وهو من أشهر وأبولاهم لحكوماتهم ولطريهم وحجهم بلادهم وعشيرتهم .

ولا ننسى إن معاليه أدب كبير ومن أنصار أهل الصحافة والقلم والأدب والاجتماع .

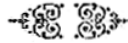
فبورك به من سفير جليل فاضل فذ .

*

والسجل الذهبي اللبناني العراقي العربي الدولي الممتاز يقدم بهذه المناسبة السعيدة ترائيه الحارة
لخيرة السفير الفاضل السيد أحمد بك أمين محمد المحترم كما يجيء رئيس جمهورية العراق المعظم
والرؤساء الكرام به ، أدائه الله بالصحة والعافية وأبناه خير ملة بين شعب بلاده وأبنائه
العربية في دنيا العروبة والاسلام .

واشت الأخوة بين الشعبين العراقي والأردني في سبل فخر العود المشترك ..

لعاله أصدق السلامة والتحيات ..



مكتب نائب رئيس الجمهورية الاتحادية الاشتراكية اليوغسلافية بيتر ستامبوليج

تهنئة مرسلة لسفير الجمهورية العراقية بتاريخ ٧ نيسان ١٩٧٥

سعادة السفير

أشرف أن أحمل إليكم التهانئ باسم رئيس الجمهورية الاتحادية الاشتراكية اليوغسلافية يوسيب بروز تيتو بتقليده مساعدتكم ومسام التجمه لليوغسلافية مع اللشاح والذي أمر سيادته برسمه لكم تهنئاً لجهود مساعدتكم الشخصية وخدماتكم الطيبة في تكمين علاقات الصداقة والتعاون بين بلدينا.

وأنا بدوري بطيب لي أن أهني مساعدتكم بهذا التتويط السامي.

سعادة السفير

بهذه المناسبة الطيبة أستطيع أن أجزم بأن العلاقات بين بلدينا الصديقين ناجحة ومثمرة في كل المجالات، والتي تتلق تماماً مع مصالح شعبينا.

إن بلدينا وبكل ما يملكه من أرض وقوة قد وضعت نفسها بكل فعالياتها الدولية والسياسية ضمن سياسة عدم الانحياز. وهذا ما جعل من بلدينا يمتلكان قاعدة عريضة من العلاقات لدولية ومع مداها إلى امتداد دول البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط دون أن نعرض بلدينا إلى التحالفات التي قد تعود علينا بالضرر. ومن هذا المنطلق، فمن أصبحنا مثلاً طيباً يحتذى به ومثال ناجح لكل من يرغب بعلاقات دولية طيبة مبنية على أساس عدم الانحياز، وعلاقات ثنائية بين جميع الدول المحبة للسلام وهي نتيجة طبيعية نحن على قناعة تامة بها. وإلى على قناعة تامة بأن صلنا المشترك وكذلك كل الدول الصديقة المحبة للسلام ودول عدم الانحياز يمكن لها أن تستفيد من هذه التجربة الطيبة والتي ستقتع جميع هذه البلدان وخصوصاً فيما يختم القضية الفلسطينية وتحرير أرضها وخدمة شعبيها.

سعادة السفير

حسب قناعتي الثابتة بأن علاقة بلدينا الثنائية المتطورة تسمير نحو تطور أفضل يوتائر متصاعدة وبنجاحات مستمرة ويفتح أفق لتطوير التعاون بيننا في جميع المجالات وعلى وجه الخصوص في المجالات الاقتصادية وفي كل حقولها حتى وصلت إلى أعلى مستويات التطور وتحقق جميع الاتفاقيات بين بلدينا في

جميع هذه المجالات والتي خدمت ولا تزال تخدم الجانبين وكذلك مستقبلاً. ونحن بدورنا نتطلع إلى علاقات عمل أكبر وعلاقات اقتصادية أعلى مما هي عليه الآن في عملنا المشترك وفي كافة المجالات الاقتصادية.

إنها مناسبة جليلة لبلدينا الصديقين نتمنى أن تمتد طويلاً وأفضل في المستقبل، وهذه مناسبة طيبة لأعرب لسيادتكم باسمي شخصياً عن خالص شكري وتقديري لجهودكم العظيمة التي أوصلت العلاقات بين الجمهورية العراقية والجمهورية الاتحادية الاشتراكية اليوغسلافية إلى ما هي عليها الآن وأغنتها.

أرجو من سعادتك نقل التحيات الحارة والأمنيات الطيبة مني شخصياً إلى فخامة السيد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر مع الاعتزاز الكبير بقيادته لحكومة وشعب العراق الصديق وتحيات حكومة وقيادة الجمهورية الاتحادية الاشتراكية اليوغسلافية لحكومتمكم وشعبكم الصديق مع الأمنيات الخالصة بالنجاحات المتتالية والتقدم المضطرد للشعب العراقي الصديق. ومني لسعادتك شخصياً أطيب الأمنيات بالتوفيق والنجاح في عملكم الآن ومستقبلاً.

بلغراد

٧ نيسان ١٩٧٥

الترجمة النصية لمرسوم منح السفير أحمد أمين وسام النجمة اليوغسلافية مع الوشاح

GOVOR POTPREDSEDNIKA PREDSEDNISTVA SFRJ PETRA STAMBOLIĆA
PRILIKOM OPROŠTAJNE POSETE AMBASADORA REPUBLIKE I R A K,
7. APRILA 1975. GODINE

GOSPODINE AMBASADORE,

VELIKO MI JE ZADOVOLJSTVO DA VAM, U IME PREDSEDNIKA SOCIJALISTIČKE FEDERATIVNE REPUBLIKE JUGOSLAVIJE JOSIPA BROZA TITA, PREDAM ORDEI JUGOSLOVENSKE ZASTAVE SA LENTOM, KOJIM VAS JE PREDSEDNIK REPUBLIKE OBLIKOVAO ZA VAŠE LIČNE ZASLUGE I DOPRINOS U RAZVIJANJU PRIJATELJSKIH ODNOSA IZMEDJU NAŠE DVE ZEMLJE.

JA VAM ISKRENO ČESTITAM NA TOM VISOKOM OBLIKOVANJU.

GOSPODINE AMBASADORE, DRAGO MI JE ŠTO U OVOJ SVEČANOJ PRILICI MOGU DA KONSTATUJEM DA SE ODNOSI IZMEDJU NAŠE DVE ZEMLJE USPEŠNO RAZVIJAJU NA SVIM POLJIMA, ŠTO ZAISTA ODGOVARA ISTINSKIM TEŽNJAMA NAŠA DVA NARODA.

NAŠE DVE ZEMLJE PRIPADAJU ONIM ZEMLJAMA I SHAGAMA KOJE SVOJU MEDJUNARODNU AKTIVNOST I SVE AKCIJE USMERAVAJU I SPROVODE NA OSNOVAMA I PRINCIPIMA POLITIKE NESVRSTANOSTI. TA OKOLNOST PRUŽA NAM MOGUĆNOST DA ZAJEDNIČKI RADIMO I DELUJEMO, NA VEOMA ŠIROKOJ ŠLATFORMI U MEDJUNARODNIM ODNOSIMA, POSEBNO U POGLEDU POSTOJEĆIH MEDJUNARODNIH KRIZA I KRIZNIH ŽARIŠTA, MEDJU KOJE SPADA I VAŠE PODRUČJE, REGION BLISKOG ISTOKA I ŠIRE MEDITERANA U CELINI. UVEREN SAM DA ZAJEDNIČKIM NAPORIMA NESVRSTANIH I SVIH DRUGIH NEROLJUBIVIH ZEMALJA MOŽEMO POSTIĆI TAKVA REŠENJA KOJA ĆE ZADOVOLJITI INTERESE SVIH ZEMALJA TOG PODRUČJA, UKLJUČUJUĆI I PALESTINSKI OSLOBODILAČKI POKRET I NJEGOVE PRAVEDNE ZAHTEVE.

GOSPODINE AMBASADORE, SA ZADOVOLJSTVOM KONSTATUJEM DA SU NAŠI BILATERALNI ODNOSI U STALNOM USPONU I DA SE DANAS NAHAZE NA ZAVIDNOM NIVOU NA SVIM POLJIMA SARADNJE, A POSEBNO NA EKONOMSKOM PLANU. VEĆ POSTIGNUTI NIVO I DOGOVORENA PLANIRANA PROŠIRENJA ODNOSA NA TOM POLJU, ZAŠTO SU OBE STRANE PODJEDNAKO ZAINTERESOVANE, UVERAVAJU NAS DA POSTOJE JOŠ VEĆE MOGUĆNOSTI ZA SARADNJU NA EKONOMSKOM POLJU.

PRILIKOM NAPUŠTANJA NAŠE ZEMLJE I ODLASKA NA NOVU DUŽNOST, ŽELIM DA VAM SE I U LIČNO IME ZAHVALIM NA VAŠIM NAPORIMA KOJE STE STALNO ULAGALI ZA ŠTO SVESTRANIJI I BOGATIJI RAZVOJ ODNOSA IZMEDJU SFRJ I REPUBLIKE IRAKA.

MOLIM VAS DA NJEGOVOJ EKSELENCIJI HASANU EL BAKR-U, PREDSEDNIKU REPUBLIKE IRAK, VLADI I NARODIMA VAŠE ZEMLJE PRENESETE NAJTOPLIJE POZDRAVE PREDSEDNIKA REPUBLIKE, VLADE SFRJ I MOJE LIČNO SA' ISKRENIM ŽELJAMA ZA DALJE USPEHE I NAPREDAK PRIJATELJSKOG NARODA IRAKA.

VAMA LIČNO ŽELIM PUNO SREĆE I USPEH U VAŠEM BUDUĆEM RADU.

B E O G R A D,
7. APRIL 1975. GODINE

نص مرسوم منح السفير أحمد أمين وسام النجمة اليوغسلافية مع الوشاح

٦١٩٥٣ رئيس التحرير
٦١٩٥٤ التحرير
٦١٩٥٢ المادة

السنجى

جريدة يومية سياسية

العراقية - شارع بن دوية
مقابل سوايت الجيش
بغداد

تصدر باللغتين العربية والكرديّة

(١)

العدد:

التاريخ: ١٩٦٩ / < / >

حفّة السنّة الفحل الفرقة الدولة صالح مهدي عثمان
المؤتم

بعد الحقبة والاعتزاز

لديجفين على سيادتكم وعلى كل الخاضعين والمخلصين بأمر هذا
الملك العزيز ، انه القضية الكردية التي تولدت نتيجة
الارادة التي تجاوزت الحدود من طروقة العصية تحمل
مكافاة الصدارة والأولوية بين القضايا الرئيسة
بالاصري تعتبر مفتاح حلّ الصديوض القضايا الاصلية
والفرعية التي ترتبط باحيث بدونها لا يمكن ارساء
تواعد الوطن والاستقرار وترصين وحدة وطبيعة مشورة
واردها الحياة السياسية والاجتماعية والاعتصاوية
وبناء وحكم قوي ووحيد يستمد على تلاحم النضال المشترك
بجهايد النضال الشعبين ذرنة كعارة ولين ضد اعدائهما

٦٤٩٥٢ رئيس التحرير
٦٤٩٥١ التحرير
٦٤٩٥٢ النماذج

الطونان

التأني

جريدة يومية سياسية

البراضية - شارع بن درويش
مقابل حوازيه الجيش
بغداد

تصدر باللغتين العربية والكردية

التاريخ / / ١٩٦٦

(٢)

العدد :

المتكدة من الاميرالين والعربيين والرحصين
ومن اجل تحقيق الديمقراطية اشتراكه راحة
تخدم قضاياهم المعيشية المشتركة وتوفر لهم الخبر العظيم
كما ولديهم ان يتحقق شعار لكل شعب من اجل
حركة خلقين الطرية بدون حل هذه القضية
التي تترجم لجميع الاممات هينا وسنا
التي من الحركة بأعلن المستويات
هذه القضية الوطنية التي تفرح نفسا بأنا القياس
الحقيقي لهوية الحزم الوطن الذي يستطيع توسيعها
ومن هنا الخط ان القضية الائمة الذكر
تعمل مسؤليا قويتين سياسيتين كبيرتين فكان مستخدمين
من الاكشاف والمباركة المتألمة عليهما من الحرة والشعر

رئيس التحرير ٢١٩٥٣
التحرير ٢١٩٥١
الطبقات
المطبعة ٢١٩٥٢

التأني

جريدة يومية سياسية

البيروتية - شارع ن دريد
مقال حوازيه الجيش
بنداد

تصدر باللغتين العربية والكردية

التاريخ / / ١٩٩

العدد: (٧)

بالمؤلفيه الوطنيه ما يملؤها من تدليل جميع الصعاب وحل
جميع العقبات التي تقترح طريقها فيما ان تد زعنا بصوره
اكثر جديه بالحقه والشعر وتجاوزنا كل ترسبات
الانفعالي والمخاطره
وباعتقادنا على الرغم من الهيبه هذه القصيه الطويله فاننا
لم نخفق بالاهتمام والمعاينه التي استحقها ولم تقدر حقها
قدرها نشأنا على الباعه وعراقيل الخطره - حيث كان من
الاجل نذكر الجمهور الذكرف مع الطرحه الذي بإمكانه حفظ القدره
والتعاون مع السلطه من حثها الصميم مدلف من الانجراحت
مع صفات واوراط يهبط لقصدها والرباط والحاقه
ابلق الضار على الشعب والتمس والجزيره لتصف اغرامنا الحاصه
وحما اشهرات الخوانضاف المكنيه السايك والتفنديه
وعلى رأسهم السيد صلفين البارزاني قد أدت وراحمه عميد

٦١٩٥٣ ربيع الثامن
٦٤٩٥١ التحرير
٦١٩٥٢ العامة

التساخي

جريدة يومية سياسية

تصدر بالفتن العربية والكردية

الدوايمة - شارع بن دريد
مقالى حوايت الحيش
بغداد

التاريخ / / ١٩٦

العدد: (٤)

من المناسبات عن استعدادهم للسلام مع الطورلين على صعيد
السلطة والحزب في حل هذه القضية الكردية التي تفتقر
جميع الاعتبارات الشخصية والحزبية .
ولاشك باننا خلال هذه الفترة الطويلة التي دخلنا في حوار
مع الاخوان السورليين تمكنا من تحييد القضية للاثر
كما توصلنا الى تحديد مراحل الحل وتحديد نقاطها واعادها
بمفهوم الموضوع بحيث وفرنا لهم الحل الذي كونه مشتركة
تختلف عن تنفيذها وقد اوتسكت ان تتطابق جهودنا
المشتركة الى المرحلة النهائية عن تنفيذها من قبل اللجنة
المتنفة عموما وذلك قبل عيد الفطر المقبل بحدوث
على الجهود والمساعى سرعان ما تعرضت من قبل لايديهم
لهم اني حل ليست السهل يتخطى من العقبات والظروف
وليس ذلك طاقاته المهدره - ومع ذلك واصلنا جهودنا

رقم العدد ٦٤٩٠٢
التعريف ٦٤٩٥٤
المادة ٦٤٩٥٢

الكلونات

التأني

مجلة يومية سياسية

تصدر باللغتين العربية والكردية

البيروتية - شارع بن دوز
مقابل حوايت الجيش
بغداد

التاريخ / / ١٩٦

(٥)

العدد:

مع الضحك لجسار هذه العقبة وغيرها ايماناً بأنها ساجية
أن تحارزها بكون تمن لونه الصلابة العامة خوتة الجميع -
وكن سرعان ما كانت تلك الساع تنصون باستمرار الح
السفح من حسن اولئك المفرضين والمنقذين الذين يعينون
كل من الوطن .
وهي ان التغطية تحارز من طرف الرهن الذي يتقون
العه الطراكة والذمة الوية الشعبه - تحارزولة
تطلب الى المزيد من الاحكام والمعاجة الجدية والحازمه
وعلى الرغم مما لسته حينك أساء المقابلة الضخمة من
روح الاندفاع والحماس الطيبين وحاأ عهدكم
عن روح الجدية - وقد انكبت ذرر مدحوظان ولكن
نظراً لم استطع مزيد السفه التأثير المطلوب للذخات
الترسبات السليمة ويحتاج الى جدية أكثر وقد أكدت

٦٤٩٥٢ ربيع الثمير
٦٤٩٥٤ الثمير
٦٤٩٥٢ الثمير

التاريخي

جريدة يومية سياسية

تصدر بالفتن العربية والكرديّة

البراصية - شارع بن دريد
مقابل حوايت المير
بغداد

التاريخ / / ١٩٦

العدد: ٤٦

ذلك لانه الثانيه عن الوجود
واعتقد ان سماع القصة في مناوكة يدك بالدرجة الاولى
لديهم تملكون الحكايات اعظم مسؤوليه اصحابهم كجزء وسلطة
رغم انهم في نفس الوقت . وان مقتضيات المصلحة العامة
والطروقة الرافضة تفرض عليهم ان يتخذوا مبادرات الكفرية
واجابه - لذاري من الافضل ومناسبة قرب حدود
عيد الوجود المبارك المواقفة عن ارسال الهدايا لغيرك
المسؤولين معي كما افضل ان يكون الذبح احمداً من
للوقفا مع الوجود لذنه وجوده يوغر من ذرا من الثقة
ويشجع موقفين وموقف الوجود المفضلين ويذري
ترسيات الشكوك ويؤدي جميعها المعتقد ان
خلقت افضل اجزاء وتعتبر من نفس الوقت اجزاء
تقريباً ما من ثمة تقديراته لتعني كل اعظم فكلية
تجسده داخله في بلادها لتعلق بغير الوجود كما هو الحال

٦١٩٥٢ رئيس التحرير
٦١٩٥١ التحرير
٦١٩٥٢ المجانية

التأخي

جريدة يومية سياسية

البيضاوية - شارع بن دريد
عقال حوايت الجيش
بغداد

تصدر باللغتين العربية والكردية

التاريخ / / ١٩٦

العدد: (٧)

مع قوة نقدية ثورية موروثة نهضة يا وطنينا والجمهورية
المتحدة صلياً - فزيد ذلك من زحفه سمعة حركتهم وثوراتهم
ويكون دعاتهم حكامهم ويحتمل البهرك من عواقب
الكوارث والناكس الوطنية وتكون لهذا العمل الثوري
أفضل كثير من زيارات التوليد للاقطار الجاورة
وتعلم فاستغله النقص في نتيجة عدم التقدير من أنه
يؤثر في إلى انتقام سمعة وحسنة حركتهم وحكامهم
كما وان ذلك يؤدى إلى محبة وفهم الأخطار على العمل
المستعرات إلى بطلان وتخطى بمقابلة السيدات الثوريين
ومن ثم تعلق على الحل مع الأخطار المتولدين وعلمت
نظير مدى أهمية لهذا العمل الثوري وتناجحه الثوري
وتحسينه من قبل المخلصين للثعب ولهم وبالعكس
لدى كل أعمالهم والمفوضين الثوريين من ومون ترويج الصنف
والفضيلة وازالة الكوارث والناكس على هذا المبدأ الثوري

رئيس التحرير ٦١٩٤٢
التحرير ٦١٩٥٤
العمارة ٦١٩٥٢

الساخي

جريدة يومية سياسية

البيروتية - شارع بن دويه
مقابل حوازي الجيش
بيروت

تصدر باللغتين العربية والكردية

التاريخ / / ١٩٦٦

(٨)

العدد:

ومن حالة عدم المراجعة على ذلك نزيد من استعمار
تحريرى الى الرضوان يتعدى ثم صحتهم بقدرتهم الى
لغداد لمواصله حل القضية تنفيذاً لما ورد في بيانهم
وصحرائهم وان لم يكن ذلك أيضاً - أرى من المصلحة
ضمان حمايتهم لدراسة المباشرة مع الرضوان كضمان
لصحة التأثير المباشر عليهم بصورة أكثر والشروع
بإتمام الأعمال المشروعة وخلفه الجوال المسدود وتأمل
المسألة الدقيقة معكم ومن ثم تدوم الرضوان حسب
الرفاهية لدراسة من حل القضية وأملهم وطيد
أني تكون رسالتكم هذه موضع عطفهم واحترامهم
وعطف واحترام الرضوان المبرزين وانظر صوابهم بالبرهان
وتقبلوا طابقتهم
المهدي
صالح اليوسفي

نص رسالة صالح اليوسفي الى وزير الداخلية الفريق صالح مهدي عماد بتاريخ ١٩٦٩/٢/٢٢

فهرست

5	الإهداء
7	المقدمة
12	الفصل الأول: سيدتي نفرتاري
33	الفصل الثاني: العراق بعد انقلاب عام ١٩٥٨
159	الفصل الثالث: حزب البعث والحركات السياسية الكردية
173	الفصل الرابع: كنت سفيراً في الأردن
218	الفصل الخامس: يوغسلافيا
231	الفصل السادس: خاتمة المطاف



